الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلّيّة الآداب واللّغات
شعبة آداب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطيّة

أطروحة تخرّج لنيل شهادة " **الدّكتوراه**"

الموسومة :

المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي من ق8ه إلى ق9ه
مقاربة تاريخيّة وصفيّة تحليليّة

إعداد الطّالب: لطفي بقّال بريكسي

إشراف: أ.د/ محمّد مهداوي

لجنة المناقشة:

أ.د/ محمّد مرتاض	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	رئـــــــيسا
أ.د/ محمّد مهداوي	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقرّرا
أ.د/ أحمد طالب	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
أ.د/ محمّد بن اعمر	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
أ.د/ بنعلي قريش	أستاذ التّعليم العالي	جامعة سيدي بلعبّاس	عضوا مناقشا
د/ تاج بالطّير	أستاذ محاضر "أ"	جامعة معسكر	عضوا مناقشا

السّنة الجامعيّة:

1438هـ- 1439هـ/2017م- 2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

إِلَى وَالِـدَيَّ الغَالِيـَــيْنِ عَلَى قَـــلْبِي هُمَـا غَـمَـــرَانِي بِالحَـنَـانِ وَبِـالحُـــبِّ

وَكَمْ تَعِبـَــــا فِي رَاحَـــتِي وَتَحَمَّـــلاَ لِتَرْبِيَتـي وَاسْتَسْهَلاَ كُلَّ ذِي صَـعْـبِ

فِدًى لَهُمَا نَفْسِـــي وَمَا مَلَكَـــتْ يَدِي فَرَضِّــهِمَا وَارْحَـــمْهُمَا الدَّهْـــرَ يَا رَبِّي

إِلَى زَوْجَــــتِي وَمَنْ فِي الحَيَاةِ شَرِيكَتِي وَمَـنْ هِـيَ لِي نِعْمَ الـمُـسَـانِدُ فِي دَرْبِي

إِلَى كُلِّ أَشْيـَــاخِي الذِينَ بِفَضْلِهِــمْ رَقِيتُ سَمَــاءَ العِلْمِ سَامٍ عَلَى السُّحُبِ

أَسَــــاتِذَتِي أَهْلَ المَكَـارِمِ مِنْهُــــمُ أَطَـلَّ عَلَيَّ النُّـــورُ مِنْ غَيْرِ مَا حُجُبِ

إِلَى كُــــلِّ إِخْـوَتِي وَأَحِبَّـائِي الأُلَى لَهُـــمُ خَالِصَ العِرْفَـــانِ مِنِّي وَالحُـبِّ

إِلَى كُلِّهِمُ أُهْدِي جَنَى البَحْثِ دَانِيَ الْ قُطُـوفِ وَسَهْلاً سَـائِغَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ

وَإِنْ كَانَ بَحْثًا هَلْهَلَ النَّسِيجُ بَادِيـًــا عَلَيْـهِ أَمَـــارَاتُ النَّقَـــائِصِ وَالعَيْــبِ

(بحر الطّويل)

مقدّمــة

إنّ الإنتاج الأدبي في كل عصر من العصور، هو مرآة تعكس المجتمع في زمن معيّن إذ إنّ الأدب يساير دائما وأبدا التّطورات الحاصلة في عصره، فهو يستجيب لها في مسايرة ذلك الواقع الذي يزوّد الأديب بمختلف العناصر الإبداعيّة، ولقد حاكى الأدب المغربي عصره، بل الواقع الحضاري الجديد الذي آلت إليه بيئته؛ فعبّر بلغتها الحضاريّة التي تسرّبت إلى مختلف مناحي الحياة فانعكست مميّزات هذا العصر على الأدب المغربي بنوعيه الشّعري و النّثري. و دراستنا هذه عُنيت بالشّعر المغربي خصوصا في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريّين الذي كان ينضح بما عاشه الشّاعر المغربي في غالب الأحيان خاصّة في القرن الثّامن. أمّا القرن التّاسع فقد قلّ فيه وصف التّجليات الحضاريّة أو لم يصلنا منها إلاّ القليل فما وصلنا منه حاولنا إبرازه و شرحه و تحليله، و منه جاء عنوان بحثي الموسوم : **"المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي من ق 8ه إلى ق 9ه " مقاربة تاريخيّة وصفيّة تحليليّة.** الّذي حاولنا من خلاله التّعرض للعلاقة الحميميّة القائمة بين الشّعر و الحضارة المغربيّة الإسلاميّة، فركّزنا فيه على مدى تأثير هذه الأخيرة في الشّعر المغربي وكيف تعامل الشّعراء معها؟ و هل وصفوا كلّ المظاهر أم اكتفوا بوصف بعضها؟

و تجدر الإشارة إلى أنّ الأدب المغربي بحاجة إلى اهتمام كبير وتفرّغ لدراسته تحقيقا و تحليلا، فضلا عن الدّراسات التي تقوم بربط هذا الأدب بالتجليات الحضارية في المغرب الإسلامي، و مدى مواكبته لعصره، و من ثمّ فقد حاولنا في هذا البحث أن نتطرّق إلى هذه الإشكاليّة والتي تبدو في بداية الأمر مستعصية لكن بالبحث و الإصرار تأتّى لنا التّوصل إلى المظاهر الحضاريّة التي وُصفت في شعر المغرب في القرنين الثّامن والتّاسع و أذكر في هذا الصّدد أنّ الدّراسات المتخصّصة في هذا النّوع قليلة جدّا إن لم تكن شبه منعدمة و لم تُمَسَّ بعض جوانبها إلا عبر مقالات مقتضبة في دوريّات أو مواقع إلكترونية و حسبي الدّراسات الّتي سبقت موضوعي هذا ولامست قليلا الموضوع الّذي نحن بصدد معالجته ككتاب نفح الطّيب للمقّري، و تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، و كذا النّبوغ المغربي لعبد الله كنّون؛ قد خلت من الشّرح و التّحليل إلاّ أنّنا اعتمدناها كمصادر نهلنا منها أبياتا ومقطّعات خدمت موضوعنا.

أمّا سبب اختيارنا لهذا الموضوع فيعود إلى غياب العناية بالجانب المشار إليه آنفا و رغبةً منّا في البحث عن زواياه التي ظلّت غير واضحة، ويضاف إلى ذلك سبب آخر ذاتيّ والّذي تمثّل في الفضول الّذي انتابنا بعد فترة الدّراسة في مرحلة الماستر فكان تخصّصنا فيها أدب و حضارة عربيّة إسلاميّة، أمّا في هذه المرحلة فقد كان تخصّصنا أدقّ و هو آداب المغرب الإسلامي و الحضارة المتوسطيّة؛ ممّا زاد شغفنا بالبحث عن علاقة الشّعر بحضارة المغرب الإسلامي فركّزنا فيها على القرنين الهجريين الثّامن والتّاسع فقط، والتي تحرّكت فيهما قرائح الشّعراء كي تعكس مختلف التّجلّيات الحضاريّة.

ولقد كانت دراستي تعتمد على مجموعة من المصادر سعينا من ورائها إلى الكشف عن أبرز جوانب التّحول الذي عرفته الحياة الاجتماعيّة والفكريّة والحضاريّة ومدى تأثّر هذا الأدب بهذه التّجليات ويمكن تلخيص أهداف هذا البحث في النُّقط الآتية :

- الكشف عن شعر التّجليات الحضاريّة وإبرازه خلال هذه الفترة .
- معرفة المظاهر الحضاريّة المادّيّة والتّجليات المعنويّة التي شاعت في المجتمع المغربي من خلال قصائد الشّعراء ومقطّعاتهم، وإمكانيّة معرفة مدى شموليّة هذا الوصف من عدمه.
- البحث عن اللّغة التي وظّفها شعراء هذه الفترة والألفاظ التي استعملوها في وصف التّجليات الحضاريّة، والصّور التي استعانوا بها في تقريب هذا الوصف.

أمّا عن المنهج الذي وظّفناه فهو الوصفي التّحليلي وكان ذلك لإبراز مدلولات النّصوص المعنوية؛ النّفسيّة والأخلاقيّة.. وكذا المادّية، والقيم الجماليّة فيها .

إنَ الصّعوبات التي اعترضت سبيلنا في أثناء بحثنا تمثّلت في قلّة الدّواوين لشعراء المغرب الإسلامي وكذا قلّة المراجع والمصادر، وهذا يدلّ على أنّ تراث المغرب الإسلامي بحاجة إلى خدمة كبيرة واهتمام بالغ و بذل جهود عظيمة و متواصلة لإبرازه و إخراجه ما بين تحقيق لمخطوطاته و جمع لمادّته و تحليل لها.

وللإجابة عن الأسئلة الملقاة في ثنايا البحث أو بعضها، قسّمنا بحثنا إلى مدخل و ثلاثة أبواب و خاتمة .

ففي المدخل تعرّضنا للشّعر وأحواله قبل القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين والعوامل التي أدّت إلى بروز مراكز علميّة وشعراء في هذه الفترة ، كما أنّنا ذكرنا أهمّ الأسباب التي ساعدت في ظهورها. وسمّيناه: لمحة عن شعر المغرب الإسلامي قبل هذه الفترة؛ أي قبل القرن الثّامن والتّاسع الهجريين.

الباب الأوّل عنوناه بمضامين شعر المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، و قسمناه إلى فصلين؛ الفصل الأوّل كان بعنوان مضامين شعر المغرب الإسلامي خلال القرن الثّامن، والفصل الثّاني كان للقرن التّاسع، و تعرضنا فيهما - بحسب أحوال الشّعراء - للأغراض الشّعريّة التي كانت في تلك الفترة ومثّلنا لها بأبيات شعريّة وشرحناها، وذلك لإبراز معاني الأغراض المضمَّنة فيها والتي تنوّعت بين وصف و مدح وهجاء وفخر وحماسة، وما يدخل في إطار الشّعر الوجداني: من غزل ونسيب وذكر للشّباب والشّيب و شكوى و حنين، و غير ذلك من الأغراض .

أمّا الباب الثّاني فقد عنوناه: "المظاهر الحضارية في شعر المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين"، قسّمناه هو كذلك إلى فصلين؛ الفصل الأوّل خاصّ بالقرن الثّامن، والفصل الثّاني خاصّصته للقرن التّاسع، وإنّ أهمّ ما ميّزهما شعر"المولديّات" أي شعر المولد النّبوي الشّريف، الّذي جعله الشّعراء لمدح النّبيﷺ، غير أنّها لم تكن خالصة فقد أدخل عليها مدح السّلطان، و جملة من الأغراض بحسب زمن نظمها و موضع إلقائها، مع بروز أغراض أخرى تعرّض لها شعراء تلك الفترة كوصف الآلات و المباني والدّعوة إلى الأخلاق والعلم وغير ذلك، و بالنّسبة للباب الثّالث فقد عنوناه بدراسة فنّيّة ولغويّة لشعر المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، و قسّمناه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل شعريّة الخطاب وتعرّضنا فيه للمعجم اللّغوي الذي استخدمه الشّعراء في قصائدهم في تلك الفترة، أمّا الفصل الثّاني فكان في البنية الإيقاعيّة وتعرضنا فيه للوزن والقافية والرّوي ودورهم في توضيح المعاني والدّلالات، والفصل الثّالث التّوازنات الصّوتيّة

وتجسّدت في الصّور البيانيّة والمحسّنات البديعيّة و أنواع الصّور الحسّيّة والتي كان لها دور في إيضاح المعنى وبيانه.

أمّا عن خاتمة البحث فتضمّنت أهمّ النّتائج التي توصّلنا إليها وأتْبعت ذلك بقائمة للمصادر والمراجع وذيّلت ذلك كلّه بفهارس ذكرت فيها فهرس الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة وكذا الشّعر الوارد في هذه الرّسالة والأعلام وأتبعت ذلك كلّه بفهرس عامّ للموضوعات.

وأخيرا نشكر أستاذنا المشرف محمّد مهداوي على رحابة صدره وقوّة صبره إذ كان سندا لنا ومعينا، و نسأل الله تعالى التّوفيق والسّداد، فلعلّ رجائنا هو أن يسهم هذا البحث في فتح المجال لدراسات تكون أكثر عمقا وشمولا، والله الموفّق والمعين.

تلمسان : 01 / رجب / 1439هـ

الموافق لــ : 16 / مارس / 2018م

الطّالب : لطفي بقّال بريكسي

مـدخــــل:

لمحة عن شعر المغرب الإسلامي قبل القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين

أ- انتقال الأدب العربي إلى بلاد الأندلس

ب- الشّعر في عصر الموحّدين

ج- عوامل بروز الشّعراء في هذه الفترة

د- أهمّ المراكز والشّعراء في هذه الفترة

مدخل :

أ- انتقال الأدب العربي إلى بلاد الأندلس :

من المعلوم بالضّرورة أنّ الأدب المغربي كان من النّاحية التّاريخيّة آخر ما تنفّست به العربيّة في أقطارها التي فتحت، فقد عرفت هذه الأخيرة شرقا أو غربا أدبا عربيّا نشأ فيها أو نزح إليها عبر العرب الفاتحين ممّن تمكنت قريحتهم من الشّعر والأدب، فقد تأثّر المغرب عموما بشعر عربيّ أصيل كان منبعه شبه الجزيرة العربيّة، فحفظ بعضهم شعرهم و قلّدوه ابتداء، ثمّ أبدعوا شعرا من عندهم، إلاّ أنّ هذا الشّعر جاء متأخّرا "لأسباب جغرافيّة وحضاريّة واجتماعيّة وسياسيّة عملت فيها الفتن والحروب، وعملت فيها أكثر من ذلك كلّه فتوحات الأندلس التي تسرّب بها العنصر العربي من البلاد، بل حتّى العنصر المغربي والذي كان يُرجى منه أن يأتي أكله في بلاده، والنّتيجة أنّ الأندلس تعرّبت قبل المغرب ظهر بها الأدب قويّا"[1]، ويرجع ذلك إلى الهجرات التي اتّجهت إليها من كلّ حدب، فاتّجه إليها الأدباء و الشّعراء يطلبون ودّ حكّامها وملوكها فوجدوا فيها المبتغى، ولهذا كان نتاجهم الشّعري - سواء من أهل المشرق أو المغرب - في هذه الأرض،" وهذا لا نستغربه فهو ما حصل مثله حتّى بالجزيرة العربية نفسها موطن العربيّة و الأدب الرّفيع والشّعر الصّادح، فمذ أن عرفت الجزيرة الأقطار الأخرى انتقل صوت الأدب الجهوريّ منها إلى تلك الأقطار وما مضى عليها زهاء قرن من الزّمان حتّى خفَتَ ذلك الصّوت إن لم يكن سكت نهائيّا بها وتردّدت أصداؤه المدوّية في جنبات بلاده خارج تلك الجزيرة"[2].

وتدخل في سيرورة المجتمع ظهور الأدب المغربي فكانت أوّل باكورة له في أوائل القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني الهجري وأنّ المراكز الأولى التي ظهرت فيها بعد مراكز الأندلس كان جلّها واقعا على السّواحل الشّمالية للمغرب مثل مليلية و النّكور- النّاظور- وسبتة وطنجة وأصيلا والبصرة التي كانت تحاذي البحر أو تقاربه، يضاف إلى هذه المراكز

1- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمّد بن تاويت ، دار الثّقافة الدّار البيضاء، 1402ه/ 1982م، ج1 ص 09 .

2- المصدر نفسه، ج1، ص 10 .

السّاحلية العاصمة فاس والعاصمة الخارجيّة سجّلماسة ونظرا لتحضّر هذه المراكز في غالبها قبل الفتح احتفظت بنفسها أو أقام الإسلام على أنقاضها مدنا وعواصم[1] .

وهكذا ظلّ الأدب المغربيّ بين مدّ وجزر على حسب أحوال البلاد والمنطقة وبحسب استقرارها وطمأنينة أهلها، فمثلا تعرّضت بعض دول المغرب لزعزعة أمنيّة من قبل الفاطميّين كسجّلماسة وغيرها، بينما نعمت فاس بعد تعرّضها لخطرهم بالفتح الأموي و استقرار الحضارة الأندلسيّة بها طيلة القرن الرّابع تقريبا فكان جامع فاس (القرويين) يعجّ برجال العلم والأدب في ذلك العهد[2] .

وممّن برز منهم إبراهيم بن أيّوب النّكوري كما كان من مهاجرة الأندلسيّيـن إليها شاعر الإمارة الأحمس التّطلي أو الطليطليّ، وعبد الرّحمن بن سليمان البلويّ وعبد الله ابن غالب الهمداني، ثم مُحَمَّد بن يعلى المعافريّ وابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة القرطبي وغيرهم .

وهكذا ظهرت في هذه السّنوات ثلّة من شعراء المغرب عموما بما فيها الأندلس فبرزت ثلّة منهم واشتهرت أسماؤهم، ثمّ توالت دول في هذه المنطقة إلى أن جاء الموحّدون فأقاموا دولتهم على أنقاض المرابطين وأسّسوا ثقافتهم وأدبهم وشعرهم وهذا ما سنتطرّق إليه في المدخل .

ب- الشّعر في عصر الموحّدين :

يعتبر عهد الموحّدين أساس التّجسيد التي انتهى إليه الأدب المغربيّ في شتّى الألوان ومختلف الأنشطة فقد كان يمثّل حقيقة استمرار النّماء لتلك النّهضة التي باركها العهد المرابطيّ وكان على رأس تلك النّهضة الأدبيّة القاضي عياض والذي استلم بطبيعة الحال شعلتها إلى يومنا هذا.

1- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، مُحَمَّد بن تاويت ، ج1، ص11.

2- المصدر نفسه ، ج1، ص 13-14.

" فقد أدّى الدّور في هذا العهد رجال برزوا فيه وكان منهم القاضي عياض لولا أنّ المنيّة لم تمهله إلاّ قليلا، فقضى نحبه وانتظر فيهم شعراء كان في مقدّمتهم ابن حبوس الفاسيّ وكتّاب في طليعتهم أبو جعفر بن عطيّة وأخوه أبو عقيل"[1].

"ففي عهد الموحّدين ازدهر الشّعر وكثر الشّعراء لاحتفال الموحّدين بشعر المديح وبالإجازة عليه وخصوصا في أيّام السلطان يعقوب المنصور (ت 595 هـ) فليس غريبا إذن أن تكثر مجاميع الشّعر التي صنعت في هذا العصر ثمّ وصل إلينا كثير منها، ومن هذه المجاميع : "روح الشّعر ودوح الشّجر" لأبي عبد الله بن مُحَمَّد ابن الجلاب الفهري المعاصر للمنصور الموحّدي، "زاد المسافر" لأبي بحر صفوان ابن إدريس(ت 598هـ)،"الحماسة المغربيّة" لأبي الحجّاج البيّـاسي(ت 653هـ)[2] وغيرها.

ومن هذا العصر وصلت إلينا موشّحات بارعة لأبي بكر بن زهر (ت 596 هـ) :

" أَيُّهَا السَّـاقِي إِلَيْكَ المشْتَكَى   ثُمَّ مَا لِلْمُولَهِ مِنْ سُكْرِهِ لاَ يُفِيقُ " (رمل تامّ).

ثمّ موشّحـة ابن سهل الإشبيلي (ت 649 هـ) :

" هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى   ...." (رمل)

وهي الموشّحة الّتى نظم نفر كثيرون على مثالها منهم لسان الدّيــن ابن الخطيب (ت667هـ) في قوله : " جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى ...." (رمل)

كثر كذلك الرّثـاء خاصّة رثاء المدن لمّا أخذت المدن الأندلسيّة تسقط في أيدي الإسبان في أواخر عصر الموحّدين، منها : (البسيط)

" أَدْرِكْ بِخَيْلِك خَيْلَ اللهِ أَنْـدَلُسَا .." لابن الأبار القضاعي، " وَلِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ".. لأبي البقاء الرّنــــدي (ت 685 ه)[3] ، كما برز شعراء كثيرون في الأنـدلس في العهد الأوّل لدولة الموحّدين، لأنّـه كان عهد هدوء وسكينة، ومن أبرزهم: ابن طفيل وابن رشـد وابن زهر و ابن البيطار واشتهر أبو عبد الله محمّد بن غالب البلنسي المعروف بالرّصافي(ت 573ه) وابو بحر صفوان ابن إدريس الحميري صاحب " زاد المسافر" و أبو

1- المصدر نفسـه ، ج1،ص 91. بتصرّف.

2- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ج5، ص378.

3- المرجع نفسه ، ج5، ص378.

عبد الله محمّد ابن إدريس المعروف بمرج الكحل(ت 634هـ) واشتهر كذلك عدد من النّسـاء اللّواتي تعاطين القريض من مثل : حفصة الرّكونية، كما اشتهر إبراهيم بن سهل الإسرائيلي (ت 649هـ) و أبو عبد الله بن الأبّار القضاعي[1].

ج- عوامل بروز الشّعراء في هذه الفترة :

تجدّدت النّهضة الفكريّة والأدبيّة في عهد المرابطين وامتدّ ذلك إلى عهد الموحّدين و ما كان ذلك إلاّ لعدّة عوامل أدّت إلى دفع الحركة الفكريّة والعلميّـة في البلاد، ويمكننا أن نجمل تلك العوامل فيما يأتي[2] :

أوّلا: استقرار الأوضاع بالبلاد :

استقرّت أوضاع المغرب منذ أن استولى عليها المرابطون، حيث استطاعوا توحيد مناطقه المختلفة في ظلّ حكومة مركزيّة واحدة وكذلك فعل الموحّدون و أحسّ السكّان بحزم ولاة الأمـر وسيطرتهم على أنحاء البلاد وتمخّـض عن هذا الاستقرار طمأنينة عمّـت السّكان،وصاحب هذا الاستقرار توسّـع وامتداد أبناء المـغرب إلى خارج حدودهم ففي عهد دولة الموحّـدين قد امتدّت حدودهم شرقا إلى إفريقيّـة وهي تشمل معظم الشّمال الإفريقي بالإضافة للأنـدلس، وقد صاحب ذلك تدفّق الأموال على عاصمة الخلافة وازدهار في الحياة الاقتصاديّـة وهذا بدوره يهيّء المناخ العلميّ الذي يدرس فيه الطلبة ويجعلهم يقبلون على البحث و التّحصيل.

ثانيا: تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء :

فدولة الموحّدين قامت على مبدإ ديني وعلميّ ومؤسّسها تتلمذ على شيخ ثنى ركبته عند العلماء، فهو يقدّر العلم والعلماء فكان من البديهيّ عنده ومن الطبيعيّ أنّـه يشجّع العلماء ويقرّب إليه رجال الدّيـن والأدب، فكان يعرف قدرهم حيث كان يكرمهم و يقدّرهم ويحبّـهم ويشاورهم فجعلهم أهل خدمته وخاصّـته.

1- الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم -، حنا الفاخوري، دار الجيل بيروت لبنان ، 1986م، ص938.

2- الحضارة الإسلامية في المغرب و الأنـدلس في عصر المرابطين و الموحدين، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي مصر 1980م ، ص 443.

ثالثا: هجرة العلماء والأدباء إلى المغرب :

ففي ظلّ الاستقرار والاحترام والاكرام " هجر الكثير من العلماء إلى المغرب فرارا من المعارك الطّاحنة التي شهدتها منطقة الأندلس خلال حكم الموحّـدين ضدّ الإفـرنج المعتدين لينعموا بالاستقرار والطّمأنينة والأمن فضلا عن التّكريم والتّرحيب والاهتمام من الولاة والشّعب المغربي"[1] .

رابعا: بناء المؤسّسات التّعليمية المختلفة:

وفّرت دولة الموحّدين المؤسّسات التّعليميّة فنتج عن ذلك مجيء الكثير من العلماء من شتّى الأقطار وكذلك طلبة العلم إلى المغرب، "خاصّة أنّ مناصب الدّولة ووظائفها كانت قاصرة على المتعلّـمين والمثقّفين"[2] ممّا أدّى إلى رغبة الرّعية وأبناء الشعب لتلقّي العلوم المتنوّعـة ولاسيما علوم الدّيــن واللّغة والأدب.

خامسا: المناخ الجغرافي لمدن الأندلس والمغرب:

الموقع الجغرافي والطبيعة الجميلة لبعض المدن الأندلسيّـة والمغربيّـة هي التي أهّلتها لأن تكون مراكز إشعاع حضاري ومعاهـد علم وفكر وثقافة، فهذا الأمر دفع الحكّـام إلى الاهتمام بالمدن القريبة من الحدود والشواطئ تمهيدا لحركة انتقال العلماء وطلبة العلم وشجّعهم على العناية بالمدن الجميلة ذات الطّبيعة السّاحرة وتهيئة المناخ المرح الذي يفضله معظم الأدباء والشّعراء لتجود قريحتهم بالإبداع الشّعري والنّثري.

ومن هذه المدن الأنـدلسيّة: بلنسيّـة ، مالقة، دانية، غرناطة، قرطبة وإشبيليّـة ومن المدن المغربيّـة : طنجة ، تلمســان ، سبتة، فاس، مراكش، سلا.[3]

سادسا: استضافة الحكّام الموحّدين الأدباء واللّغويّين في قصورهم وإعلاء شأنهم :

كان استقدام أعلام اللّغة والأدب من قبل أمراء الموحّـدين وحكّامهم للاستعانة بهم في صياغة المخاطبات والمراسيم السّلطانية والتّـوقيعات، وكذلك استشارتهم وأخذ الرّأي

1- ينظر: المرجع نفسه، ص446.

2- 3- المرجع نفسه، ص445/446.

منهم وتكريمهم[1]. " فقد كان مؤثرا لأهل العلم؛ أي عبد المؤمن بن علي محبّا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التّنويه بهم والإعظام لهم" [2].

" وكان الخليفة عبد المؤمن بن عليّ يعتمد على الكتّاب اعتمادا كبيرا ويرقّيهم إلى منصب وزير إن توسّم فيهم النّباهة والنّبوغ والظّاهر أنّ لمنصب الوزير في الدّولة الموحّديّة أهميّة كبيرة لأنه يجمع بين ثلاث مهمّات وهي : الوزارة والكتابة والنّباهة وكان حريصا على اجتماع الشّعراء والأدباء في كلّ مناسبة واحتفال فكان يجلس إليهم ويحسن الاستماع إليهم، ويسرّ من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرض ذاك ويفيض على الجميع بعطائه"[3]. ومن ذلك أيضا استدعاؤه كبار الشّعراء حين نزل جبل الفتح أو جبل طارق واستماعه إليهم، واحتفال بيعة أهل الأندلس له، وكان قد أنشده في ذلك الاحتفال بالطّليعة المرواني والشّاعر محمّد ابن غلب المعروف بالرّصافي البلنسي و الشّاعر ابن السّيد اللصّ[4].

وكان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن بن عليّ أيضا يستضيف الشّعراء ويهتمّ بهم ويكرمهم ففي غزوة الأرك وبعد رجوعه منتصرا منها على أعدائه" أقبل عليه الشّعراء و أكثروا من مدحه فكان كلّ واحد منهم ينشد من قصيدته بيتا أو بيتين لكثرتهم ويترك رقعتها أمامه، فما استتمّوا الإنشاد حتى حالت رقاع القصائد بينه وبين النّاس"[5].

كما أنّ الخليفة يعقوب المنصور الموحّدي شجّع جماعة منهم الوشّاحون والّذين عرفوا باسم "السّادة" وقرّبهم منه واستضافهم في قصره، فكان اهتمامه بهذا النّوع من الأدب واضحًا جليّا حيث كان أبو بكر ابن زهر صاحب موشّحات يقع في نفس يعقوب المنصور

1- الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين، حسن علي حسن، ص443-446.

2- المعجب في تلخيص أخبار المغرب من فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد المراكشي، ضبطه وصحّحه وعلق على حواشيه : مُحَمَّد سعيد العريان و مُحَمَّد العربي، دار الاستقامة القاهرة، 1368هـ/1949م ، ص293.

3- المرجع السّابق ، ص 80.

4- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، المطبعة المهدية تطوان المغرب،1357هـ، ط2، ج1،ص111-112.

5- التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين، فاتن كوكة، منشورات الهيئة العامة السّورية للكتاب وزارة الثّقافة دمشق، 2012، ص82.

موقعا حسنًا فقرّبه إليه وجعله وزيرًا، وكان الشّاعر أبو حفص عمر يمدح الخليفة يعقوب المنصور مدحا يعجب الخليفة، فقرّبه منه وولّاه قضاء تلمسان و فاس و إشبيليّـة[1].

إنّ ما قام به الخلفاء الموحّـدون من تقريب الشّعراء والأدباء إليهم في قصورهم وترقيتهم مناصبَ عليا في الخلافة لهو أكبر دليل على اهتمامهم بالعلم والأدب، فهو أمر أدّى إلى ازدهـار العلوم والآداب شعرا ونثرا[2].

سابعا: إقبال الموحّـدين على التّعلّم والتّعليم:

شجّع الخلفاء الموحّـدون التعلّـم باتّبـاع سياسة فرض التّعليم الإلزاميّ انطلاقا من فكرة قيام الدّولـة الموحّدية على أسـاس علميّ تعليميّ، لذلك يجب أن يكون جميع الأفـراد فيها متعلّميــن، منفتحين على الثّقافة، كما أنّهم ذلّلوا الصعوبات الماديّة التي تعترض طلّاب العلم الفقراء، فأجروْا عليهم المرتّبات وخصّصوا لهم أماكن جيّـدة للمبيت فيها، فرحّبوا بالمساعدات الخاصّـة من المغرب و الأندلس بغية تشجيع العلم و أماكن التعلّـم[3].

وقد اعتنى الخلفاء الموحّـدون بالنّساء المثقّفات فأولوهنّ عناية خاصة و استمعوا إلى أدبهنّ وشعرهنّ واستدعوا بعضهنّ حتّى يصبحن معلّمـات ومؤدّبـــات في قصر الخلافة ومن تلك الأديبات بنت الحاج الرّكونية الغرناطيّـة التي شاع خبرها فكانت أستاذة وقتها وصارت معلّمة النّساء في دار الخلافة[4].

ثامنا: اهتـمام الموحّدين بالكتب والمكتبات وحركة التّصنيف:

أظهر الخلفاء الموحّدون اهتماما كبيرا بالكتب المصنّـفة في جميع العلوم والفنون فكانوا يجمعون الكتب ويرحّبون بما يهدى إليهم منها، وهذا الاهتمام دفعهم إلى تأسيس المكتبات المتنوّعـة خاصة وعامة، فالخاصّة ما كان يمتلكها الخلفاء في القصور وكذلك الأفراد والعامّـــة لعموم الطّلبة خارج القصور والبيوت، ومن هذه المكتبات مكتبة جامع القرويّين

1- التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين ، ص169.

2- النّبوغ المغربي في الأدب العربي، ص83،

3- المصدر السّابق ، ص 91.

4- حضارة الموحّدين ، مُحَمَّد المنّـوني ، دار توبقال للنّشر الدّار البيضاء ، 1989، ص25-26.

في فـــاس ومكتبة جامع الزّيتونة في تونس، ومكتبة جامع تلمســان في الجزائــر[1].

كما شجّع الخلفاء الموحّدون التّصنيف كونه يبرز أفكار العلماء ويبيّـن قدرتهم على إثبات آرائــهم العلميّة لتقديم نتاج علميّ رصين، فأقبل الشّعراء على وضع الدّواوين كديوان ابن سهل الإشبيلي وأبي العبّـاس الجراوي وحسن بن الفكون وأبي الرّبيع الموحّدي سليمان ابن عبد الله عبد المؤمن وغيرهم، ووقف الزّجّالون كذلك إلى جانب الشّعراء يعرضون نتاجهم في دواوين خاصة كمدغليــــس[2].

تاسعا: مشاركة الموحّدين في الجانب الثّقافي (اللّغوي والأدبي) :

كان الشّعر العربي مرغوبا فيه عند الخلفاء الموحّـدين وغيرهم، كان يعقد له المجالس الخاصّة، بل يشاركون فيها بنظم الشعر الجـيّد، فمثلا الخليفة عبد المؤمن بن علي كانت له مشاركة أدبية متواضعة في كتابة رسالة نظم الشّعر فيها لأعراب بني هلال ليستثير همـمهم، ويحفّزهم على القتال وأمر أن تكتب في آخرها أبيات له في ذلك المعنى مطلعها:

أَقِيـمُوا إِلَى العَلْيَـاءِ هُوْجَ الرَّوَاحِـلِ   وَقُودُوا إِلَى الهَيْجَـاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ[3]

وكان الخليفة عبد المؤمن بن عليّ يناقش الشّعراء والأدبـاء، و ما كان ذلك إلا لحسن تذوقه لأدبــهم واتّســاع ثقافته اللّغوية والأدبيّـة، ومن ذلك أنّ الطليعة المرواني مدح عبد المؤمن بن عليّ فلمّـا أتمّ القصيدة قال عبد المؤمن: "بمثل هذا يمدح الخـلفاء" وهذا يدلّ على الملكة الشّعريّة التي تمتّع بها الخليفة عبد المؤمن والقدرة على فهم معاني الشعر[4]. و كذلك الخليفة المنصور الموحّـدي يعقوب قد شارك في هذه المجالس وهو حديث السّنّ، وامتلك حسّـا شعريّـا جعله يناقـش الشعراء[5].

1- الحيـاة العلميّة في الأندلس، يوسف العرينيّ ، مطبوعات مكتبة عبد العزيز الرياض، 1416هـ/1995م ص129/134.

2- التّصنيف اللّغوي و الأدبي في عصر المرابطين والموحّدين ، فاتن كوكة ، ص 110.

3- المرجع نفسه، ص 110.

4- ينظر: المعجب ، للمراكشي ، ص315.

5- حضارة الموحّدين ، حمد المنّوني ، ص 95-96

وكان الخليفة إدريـس المأمون بن يعقوب المنصور عالما باللّغـة والأدب متمكّـنا من نقول الشّعـر، برز أسلوبه الأدبيّ في رسـائله وتوقيـعاته[1] . و منهم أيضا الأمير أبو الرّبيع سليمان ابن عبد الله بن عبد المؤمن نبغ في الكتابة والشّعر، فقد جمع كاتبه مُحَمَّد بن عبد ربّه المالقيّ مشاركاته الأدبية في ديوان شعريّ[2] .

ومّـا سبق تبيّـن لنا أنّ أثر الخلفاء الموحّدين في الجانب الأدبيّ قد تجلّى في تشجيعهم النّشاط الثّقافي ومشاركتهم فيه، وعنايتهم بالجانب التّعليمي، وتأسيس المكتبات وتشجيع التّصنيف .

د- أهمّ المراكز والشّعراء في هذه الفـــترة:

1- المراكز الثّقافيّة في عصر الموحّـديـــن:

حين تقلّد الموحّدون الحكم في المغرب وجدوا فيها أرضا خصبة لغرس الكثير من الثّقافات والمعارف فأوْلوْا اهتمامهم بالجانب العلميّ وتبيّن ذلك في تأسيس مدارس ومراكز تعليميّـة اعتنوا فيها بمدرّسيها من علماء وطلاّب علم حتّى يجد الطلبة فيها سؤلهم من جميع النّواحي ولا سيما الجانب العلمي والثّقافي[3] .

أوّلا: المراكز الثّقـافيّـة في الأنـدلس :

إشبيـــليّـة:

اتخذها الموحّـدون قاعدة لهم في الأنـــدلس، إذ ازدهرت في عهدهم أيّـما ازدهـار بل صارت مركزا مهمّـا ومشهورا خاصّـة في الدّراسات اللّـغويّـة والنّـحوية[4] ، فقد وصف المقّري مدى اهتمام الأندلسيّيـن بعلم النّـحو واللّـغة فقال :" ... والنّحو عندهم في نهاية من علو الطّبقة، حتى إنّهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويـه، ولا يزداد مع

1- دولة الإسلام في الأندلس العصر الثّالث عصر المرابطين و الموحّدين في الأندلس ، مُحَمَّد عبد الله عنّان مكتبة الخانجي القـاهرة ، ط2، 1411هـ/1990م ، ج5، ص 646.

2- التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة (92هـ – 897هـ) ، عبد الرحمن علي حجّي دار القلم بيروت ،ط2، 1402هـ/1981م ، ص503/504.

3- المرجع نفسه ، ص498.

4- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عهد المرابطين و الموحدين ، فـــاتن كوكة ، ص36.

هرم الزّمان إلاّ جدّه .. و كلّ عالم في أيّ علم لا يكون متمكّنـا من علم النّحو بحيث لا تخفى عليه الدّقـائـق، فليس عندهم بمستحقّ للتّمييز، ولا سالم من الازدراء.."[1]، فقد تطوّرت هذه الدّراسـات في عصرهم تطوّرا كبيرا حتى صارت وكأنّـها في العصر الأوّل وتجلّى هذا التّطوّر في طريقة التّدريـس، فلم يقتصروا على مذهب أهل الكوفـة في تدريس النّحـــو بل مزجوا بين آراء النّحويّين من البصريّـين والكوفيّـين والبغداديّـــن[2] حتّى قدّموا العديد من الدّراسات النّحويّة التي لم يخل بعضها من مخالفة للنّحو المشرقيّ، فأكثر الذيــن اشتهروا في النّحو واللّغة في هذا العصر تخرّجوا من هذه المدينة ، بل كان النّحاة الآخرون يحتكمون إلى نحاة إشبيليّة في المسائل النحويّة الخلافيـّة[3]. نبغ في هذا المركز العلمـيّ الكبير ثلّة من علماء النّحو واللّغة فوضعوا مصنّفـات لغويّة ونحويّة مفيدة وجليلة نذكر منهم ابن الخروف الإشبيليّ (ت609هـ) وشرح عدّة كتب، ككتاب سيبويه وشرح الجمل للزجّـاجي وله مجموعة من الرّدود النّحويّة و اللّغويّة[4]. و ممّـن برز من علماء إشبيليّة ابن عصفور (ت669هـ) فقد درّس مع شيخه أبي عليّ الشّلوبين، وصنّف كتبا مفيدة كشرح المقدّمـة الجزوليّة لليزدكنتيّ، وشرح ديوان المتنبيّ وغيرها[5]. وأبو بكر مُحمَّد بن أحمد ابن خشرم العبسيّ فقد كان إماما في العربيّة وأستـاذا مبرّزا فيها وغيرهم كثير ممّن برز في هذه البلدة خدموا اللّغة والنّـحو خدمة كبيرة[6].

وممّـن تخرّجوا من مدرسـة إشبيليّة وصاروا لغويّيـن كبارًا، ابن مضاء القرطبيّ (ت592هـ) حيث رحل من قرطبة متّجها نحو إشبيليّـة لدراسة النّحو على ابن الرّمّـــاك

1- المرجع نفسه، ص36.

2- الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين ، يوسف العريني ، ص 287-288.

3- المرجع السّابق، ص36.

4- وفيـــات الأعيـان ، ابن خلكان ، ج3 ، ص335.

5- بغية الوعـاة في طبقات اللّغويين والنّحاة ، جلال الدّين السّيوطي ، تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريّة بيروت لبنان ، دت ، ج2، ص210.

6- الذّيل و التّكملة ، المراكشي، تحقيق : إحسـان عبّاس، دار الثقافة بيروت لبنان ، دت ، ج5، القسم الثّاني ص623-624.

والتمكّن من كتاب سيبويه، وأخذ عنه وعن غيره كثيرا من الدّراسات اللّغويّة والنّحويّة والأدبيّة، وصنّف كتبا مهمّة "كالمشرق في النّحو"،" والردّ على النّحاة" [1].

أمّا عن الجانب الأدبي في إشبيليّة فقد ازدهر هو كذلك ممّا جعلها مركزا ثقافيًّا أدبيّا حافلا بالشّعراء والأدباء مستقبلا جميع أصحاب الآثار الأدبيّة برحابة صدر، وعن ذلك تحدّث الشقندي واصفا إشبيلية فقال :"وأمّا ما فيها من الشّعراء والوشّاحين والزّجّالين فما لو قسموا على برّ العدوة ضاق بهم والكل ينالون خير رؤسائها، وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلاّ وقصدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس"[2].

إنّ إشبيليّة كانت روضة أزهرت فيها براعم الشّعر والنّثر ومن أولئك الذين برعوا فيها أبو القاسم أحمد ابن محمّد البلوي الإشبيلي (ت632 ه)، وكان يكتب النّثر وهو من ولاة الموحدين في الأندلس في أوّل أمره، ثمّ رثى مدن الأندلس أيّام الاحتلال الإسبانيّ[3]. فإشبيلية صارت مزدهرة بالحلقات الأدبية فكان طلاب العلم يقصدونها من كلّ فجّ[4] لينهلوا من معينها ما يروي الغليل ويشفي العليل، و ليستقوا من مشاربها الفوائد الأدبيّة واللغويّة. و قد حرص علماء إشبيليّة على تدريس "أدب الكاتب" لابن قتيبة و "الكامل" للمبرّد، و"النّوادر" لأبي علي القالي و "البيان والتّبيين" للجاحظ و"المقامات" للحريري وأشعار أهمّ الشّعراء وفحولهم في الجاهليّة وصدر الإسلام[5].

وفي هذه البيئة الغنيّة بالأدباء والشّعراء وجّه المدرّسون اهتمامهم كذلك بعلم العروض كونه يخدم الشّعراء والنقّاد، فالشّعراء يدرسونه من أجل نظم شعر موزون مقفّى، والنّقاد يدرسونه من أجل ما يعرض عليهم من شعر من قبل تلامذتهم وممّن برز في

1- بغية الوعاة في طبقات اللّغويين و النّحاة ، جلال الدين السّيوطي ، ج1، ص323.

2- فضائل الأندلس وأهلها ، ابن حزم وابن سعيد الشقندي ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديدة مصر 1968م، ج1 ، ص52.

3- تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ، ج5، ص679-681.

4- في الأدب الأندلسي ، جودت الرّكابي، دار المعارف، مصر ، دت ، ص57.

5- الحياة العلمية في الأندلس، يوسف العريني،ص296-297.

هذا العلم أبو العبّاس أحمد بن طلحة الإشبيليّ (ت620هـ) وصنّف في هذا العلم تصنيفا مفيدا[1].

ب - قرطبة :

اشتهرت مكانة قرطبة العلمية، فكانت مركز علم وثقافة تركت بصمات واضحة في سجلّها اللّغويّ والأدبي فجعلها عبد المؤمن بن عليّ مركزا للحكم فترة من الزمن ثمّ أعيد إلى إشبيليّة[2]، فقرطبة التي كانت عاصمة المرابطين الأندلسيّين ومركز العلوم والثّقافة والأدب، احتفظت بهذا الوضع في عصر الموحّدين وظلّت هي كذلك المركز الثقافي الذي درس فيه كبار الأدباء واللّغويين ودرّسوا فيه، فالشّاطبي (ت547هـ) الأديب الشّاعر رحل إلى قرطبة وسمع من أبي الحسين بن السرّاج وأبو جعفر الحميري المؤدّب (ت610هـ) أدرك جماعة من كبار العلماء في قرطبة وأخذ عنهم القرآن والحديث والآداب، كما تصدّر للإقـراء والتّدريس، فدرّس الطّلاب ديوان المتنبّي وديوان الحماسة لأبي تمّام، و وصل فيه إلى مقطّعة ابن زيابة التّيمي[3].

إنّ حلق العلم التي وجدت في قرطبة وحرص المدرّسين على تقديم الفوائد المتنوّعة لطلّابهم عكست صورة النّشاط الثّقافي الموجود فيها، ممّا جعل طلاّب العلم يتوافدون ويقبلون على مشايخها وعلمائها ويؤكّدون بأنّ قرطبة مركز ثقافيّ نشيط فأبو مُحَمَّد القرطبي (ت611هـ) مثلا شرح كتبا عديدة منها: "الإيضاح" للفارسيّ عرّج على أهمّ المسائل العروضيّة، وناقش طلاّبه في موضوع الدّرس، واهتمّ بالجانب التطبيقيّ اهتماما كبيرا ، وما ذلك إلّا لأجل إفهام الطّلبة الدرس فهما عميقا، وصنّف لطلاّبه كتابا في العروض، الأوّل مختصرا لأجل المبتدئين، والثّاني مطوّلا للمتقدّمين[4].

1- المرجع نفسه، ص304- 305 .

2- التّاريخ الأندلسي ، عبد الرحمن حجّي ، ص498.

3- التّصنيف اللّغوي و الأدبي في عصر الموحدين و المرابطين ، فاتن كوكة ، ص 39- 40.

4- الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين ، ص305.

ج - بلنسيّـة :

برزت بلنسيّة بروزا واضحا في الميدان العلمي والثقافيّ، خاصّـة في الجانب النّحوي والأدبيّ[1] "فجذبت العديد من طلاّب العلم للالتحاق بحلقات علمائها و الدّراسة عليهم فمثلا الأستاذ أبو الحسن المعروف بابن سعد الخير الأنصاري البلنسيّ (ت581هـ) تصدّر لتدريس اللّغة والنّحو والأدب في بلنسيّـة طول عمره وصنّـف كتبا مفيدة منها : "الحلل في شرح الجـمـل" للـزجّاجي و"القرط المذيّـل على الكامل المبرّد"، وأبو العبّاس الشريشي (ت619هـ) تصدّر للتّدريس في بلده شريش وفي بلنسيّـة أيضًـا، فأقرأ اللّغة والنّــحو والعروض والأدب، ووضع مصنّفات جليلة مفيدة كشرح "الإيضاح" للفارسيّ وشروح "مقامات الحريريّ" فذاع صيت هذه الشروح ذيوعا جعل الأدباء وطلبة العلم يقبلون عليه، وقد قيل أنّه أجاز سبعمائة نسخة منها"[2]. و طار صيت هذه المدينة في الأدب و الشّعر مشرقا ومغربا فكان نتاجهم الأدبي و الشّعري مصدرا لتألّق بلنسيّة الثقافيّ، فمن شعرائها: ابن الأبّار القضاعي البلنسيّ (658هـ)، والرّصافي البلنسيّ (ت572هـ).[3]

د - مـالقة :

ومن المدن الأندلسية التي حفلت بالأنشطة الثّقافيّـة وظهرت فيها حلق علم وأدب ونبغ فيها علماء في اللّغة و الأدب مدينة مالقة، فقد قصدها طلبة العلم كثيرا بغية التّحصيل العلميّ، و علماؤها أبدعوا في وضع مصنّفات جليلة مفيدة وقصـائد شعريّة ونصوص نثريّـة ومن هؤلاء : أبــو عبد الله محمّد بن معمّر اللغـويّ والمعروف بابن أخت غانم، وهو عالم جليل متفنّن في علوم شتّـى ومن أهمّ تـآليفه : "شرح كتاب النّيات" لأبي حنيفة الدينوري في ستّـين مجلّدا[4]. و ظهرت مراسلات كانت تجري بين طلبتها وطلبة سبتة فنظم أبو

1- التّصنيف اللّغوي و الأدبي في عصر الموحّدين و المرابطين ، فاتن كوكة ، ص 40 .

2- المرجع نفسه ، ص 40-41.

3- المرجع نفسه، ص41.

4- المغرب في حليّ المغرب، ابن سعيد المغربي ، تحقيق وتعليق: شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت ج1، ص 433.

القاسم مُحَمَّد بن هاشم المالقي(ت613هـ) قصيدة مدح فيها طلاّب سبتة ووصفهم بالبراعة في العلم والمعرفـة[1] .

هـ - غرناطة :

ومن المدن الأندلسيّـة التي لقيت فيها علوم اللّغة العربيّة وآدابها رواجا كبيرا غرناطة وقد ذكر الشّقندي غناها بالأدباء والشّعراء واللّغويين كحفصة الرّكونية شاعرة غرناطة (ت586هـ) وابن غالب الغرناطي مُحَمَّد بن أيّـوب المتوفّى في أوائل القرن السّابع الهجري ويعدّ كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدّين ابن الخطيب مثالا واضحا للأوضاع الثّقافية في غرناطة[2]،" فإنّ مؤلـّف هذا الكتاب تكلّـم عن واقع غرناطة العلمي، وتكلّـم عن أعلام الفكر والأدب وترجم لهم، وذكر أخبارهم ومصنّفاتهم، وهذا دليل على أهمّيّة هذا المركز الثّقافي، وتبوّئها مركزا مميّزا في الأنـدلس" [3].

ما ذكرناه من مدن علميّـة ومراكز ثقافيّـة هو على سبيل التّمثيل وإلاّ فتوجـد مراكز أخرى هي بمثابة المراكز التي ذكرناها ومنها: مرسيّة ودانية و غيرها. و إنّ ممّـا ساعد على ازدهـار هذه المدن علميّـا فكانت مراكز علم وثقافة، هو رعاية الخلفاء الموحّدين للعلم والعلماء، وتشجيعهم على وضع المصنّفات، وإكرامهم لهم وتقريبهم إليهم، أضف إلى ذلك التّواصل علمي الذي كان بين العلماء.

ثانيا: المراكز الثّقافية في المغرب :

إنّ الدّولة الموحّديّة هي دولة مترامية الأطراف فاقت دولة المرابطين فلذلك ظهرت فيها مراكز ثقافية وبرزت مدارس علميّـة بلغت شهرتها ما لم تبلغه في عهد المرابطين، فكما ظهرت مدارس الأنـدلس واشتهرت، برزت كذلك مدارس ومراكز أخرى في المغرب نذكـــر منهـا :

1- حضارة الموحّدين ، مُحَمَّد المنّوني ، ص 29.

2- التّصنيف اللّغوي و الأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين ، فاتن كوكة ، ص42 - 43.

3- المرجع نفسه، ص43.

قيروان :

فمدينة القيروان هي مدينة عريقة، واقعة في تونس، كانت مركزا مرموقا "فقد برزت منذ الفتح إلى أن خربتها أعراب بني هلال فكانت دار العلم بالمغرب، وإليها ينسب أكابر علمائـه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، وقد ألّف العلماء في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائـه ومن كان به من الزهّـاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتبا مشهورة"[1] فلمّا عبث أعراب بني هلال فيها تفرق أهلها في كلّ مكان فمنهم من ذهب إلى مصر، ومنهم من قصد صقليّة والأنـدلس، وآخرون ذهبوا إلى فاس بالمغرب الأقصى[2].

فمدينة القيروان لها تاريخ علميّ وثقافيّ عريــق، فمذ أن أسّســها عقبة بن نافع سنة 51 هـ، أمر ببناء جامع ليكون قبلة لطلبة العلم و العلماء، فظلّ هذا المسجد مركزا علميّا إلى سنة (555هـ)[3]، فسار الولاة من بعد عقبة بن نافع على خطاه في بناء وتأسيس معاهد العلم والثّقافـة، كابن الحباب عبد الله الذي أمر ببناء جامع الزّيتونة سنة (114هـ) فصار هو كذلك قبلة طلاب العلم والمعرفة ،ثمّ انتقل التعليم الرسميّ إليه سنة (449هـ) وفي أوّل القرن السّابع الهجري، على عهد زكريّـاء الأوّل الملك الحفصيّ نال مكانة علميّـة مرموقة ومميّـزة، وأصبح معهد إفريقيّـة العلميّ، فجلب إليه أساتذة وعلماء من كلّ فــجّ[4] " كعبد الحميد بن أبي الدّنيـا وآل الصّقلي الأطبّـاء وابن العصفور الأندلسيّ النحويّ، وابن سعيد وابن الآبار الكاتبين المؤرّخيـن، وحازم القرطاجنّي، وابن أبي الحسين الأديبين والبطرفي و ابن القصّـار الفقيهين، و أسّس فيها مكتبة غنيّة بأصناف الكتب".[5] أمّا مناهج التّعليم في هذا المركز فقد اعتمدت على العلوم الدّينيّة والأدبيّـة واللغويّـة والعلوم العقليّـة كالمنطق[6].

1- المعجب ، المراكشي ، ص 255.

2- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين ، فاتن كوكة ، ص43- 44 .

3- الأدب المغربي ، مُحَمَّد بن تاويت الصادق العفيفي ، ص 65.

4- ينظر: مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، عثمان الكعّاك ، جامعة الدّول العربيّة مصر ، دت ، 1985م، ص101-105.

5- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين ، فاتن كوكة ، ص 44.

6- ينظر: الأدب المغربي ، مُحَمَّد بن تاويت و الصّادق العفيفي ، ص65-71.

ب - تلمســان :

ومن المدن التي ازدهرت ثقافيّا وعلميّا تلمسان، فصارت مركزا يأتيه طلّاب العلم والمعرفة منذ أن تأسّس في هذه المدينة جامعٌ على الحدود بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى على يد : موسى بن نصير وكان ذلك سنة (89 ه) و ظلّ هذا المسجد يقوم بدوره التّثقيفي التّعليمي طيلة قرون عديدة وأزمنـة مديدة فزاحمت تلمسان مدنا كبرى في العالم الإسلامي كقرطبة والقـاهرة وبغداد، وما كانت تقلّ شـأنًـا عن غيرها، بل نافستهـا لتكون مركزا علميّا وثقافيّا فينهل منه طلبة العلم والمعرفة، بل كانت تلمســان دائما موصولة بالأنـدلس في جميع عصورها إلى أن سقطت الأنـدلس وهاجر بعض أهلها إلى الجزائــر واستقرّوا بتلمســان فشاركوا هم في هذه النّهضة العلميّة المتميّــزة التي كانت في هذه المدينة[1] .

د - فـــاس :

وأهمّ المراكز الثّقافية التي برزت في المغرب مدينة فاس، التي أسّسها إدريس ابن عبد الله لتكون عاصمة لدولته، وفي عهد المرابطين صارت منــــارة علم وثقافة وظلّت في عهد الموحّـدين منبع العلوم والفنون الذي نهل منه العديد من طلّاب العلم والمعرفة، ولعلّ أبرز أثر تاريخيّ ثقافيّ فيها يظهر في جامع القرويّيــن الذي أسّستـه أمّ البنين القيروانيّة، وهي ابنة المهاجر التونسي محمّد بن عبد الله الفهريّ القيرواني فأصبحت الآداب والعلوم تدرّس في جامع القرويّين، فاستمال إلى جامعة يؤمّـها العلماء والأدبــــاء من كلّ مكـان طيلة قرون متتاليّـة[2] .

لقد كانت لجامع القرويّين يد بيضاء في التقدّم اللّغويّ والأدبي والدّيني، فهو النّــواة الأولى للدّراسات في فاس ، فاجتمع فيه ثلّة من أشهر علماء المغرب[3]: كأحـمد بن عبد الصّمد بن أبي عبيدة الأنصاريّ الخزرجيّ القرطبيّ (ت582هـ) فقد استوطن فاس ودرّس

1- المرجع نفسه، ص 72-73.

2- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين ، فاتن كوكة ، ص 45-46.

3- مراكز الثّقافة في المغرب، عثمان الكعّـاك، ص61-64.

فيها علوم الحديث واللّغة، وأبي الحجّـاج يوسف بن عبد الصّمد بن يوسف الفاسيّ الذي أقرأ في جامع القرويّين حتّى وفاته سنة (614ه) إذ احتضنت فاس أعلام اللغة والنّـحو والأدب والعلوم المختلفة فاجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة[1]،حتّى كانت هذه المدينة العلميّـة موئلا للشعراء والأدبـاء، فقد فتح خليفة الموحدين عبد المؤمن بن عليّ بابه لثلة من الشّعراء المجيدين الذين برزوا منهم : مُحَمَّد بن حبوس الفاسي (570ه) وهو صاحب ديوان شعر كبير وطريقة شعريّة تشبه طريقة ابن هانئ الأنـدلسي[2].

ه - مرّاكـــش :

لقد كانت مرّاكش إحدى المراكز الثّقافية في المغرب قصدها علماء الأندلس وطلّاب العلم لتّحصيل العلمي والدّراسة أو التّدريس ونشر العلوم، فازدهرت في عصر الموحّـدين ازدهارا كبيرا، فذاع صيتها حتّى أصبحت تضاهي بعلمائها حواضر العالم الإسلامي الثّقافيّـة كبغداد، وقد أطلق عليها بغداد المغرب[3]، فبرز فيها أعلام خدموا العلم والثّقافة منهم : أبو عبد الله محمّد بن عيسى بن محمّـد بن أصبغ المعروف بابن المناصف المتوفّى سنة (620ه) فقد كان من قضاة مرّاكش فقيها حافظا للّغات، ونظم بمراكش أرجوزة لغويّـة ألفيّـة سمّـاها:"المذهبة في نظم الصّفـات من الحليّ والشّيات"[4].

ومن الأعلام الذين تصدّروا للتّدريس فيها أيضا: عبد الله بن عمر أو عمرو بن هشام الحضرمي الإشبيليّ (ت550ه)[5]، و أبو بكر مُحَمَّد بن عبد الله بن حيمون العبدري القرطبي (ت567ه) و تصدّر فيها لإقراء النّحو واللّغة واستفـاد منه جمّ كبير من طلبة

1- المعجب ، المرّاكـشي ، ص366.

2- الحضارة الاسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين ، حسن علي حسن، ص 448.

3- حضارة الموحّدين ، مُحَمَّد المنّوني ، ص 14.

4- الإعلام بمن حلّ مراكش و أغمات من الأعلام ، عباس بن إبراهيم السملالي ، مراجعة : عبد الوهّاب بن منصور المطبعة الملكيّة الرّباط ، ط2 ، 1998/1419، ج4 ، 181-182.

5- البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة ، مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق: مُحَمَّد المصري، دار سعد الدين دمشق ، 1421ه/2000م، ص 176-177.

العلم[1] ،ووُجد في مراكش مجمّع علميّ يسمّى بيت الطلبة كان العلماء يغدون إليه فيتدارسون العلم و يدرسونه[2] .

إنّ كتاب "الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام" لهو دليل واضح على أهمية هذه المدينة ، إذ هو كتاب ضخم يقع في عدّة مجلّدات، فقد جمع المؤلّـف فيه عددا كبيرا من أسماء الأعلام الذين برزوا في العلم والمعرفـــة ممّن دخلوا إلى مرّاكش ودرّسوا فيها، فضلا عن العلماء الذين هم من أبناء المدينة وبرزوا وعلّموا ودرّسوا فالحقيقة أنّـها مركز علميّ مميّـز[3] .

و-سبتة:

"هي آخر مدن المغرب دخولا في طاعة الموحّـدين فبعدما قتل تاشفين بن عليّ آخر سلاطين دولة المرابطين لم يجد أهل سبتة خيارا أمامهم إلاّ مبايعة عبد المؤمن بن عليّ وتقديم الولاء له فانتدبوا قاضيهم الشّهير عياض لأداء هذه المهمّـة فاجتمع به في مدينة سلا ومنذ ذلك الحين ازداد النّشاط العلمي و الثّقافي في مدينة سبتة "[4].

بدأ النّشاط العلميّ والثقافيّ في سبتة يتّضح أكثر بعد هذه المبايعة خاصّة الجانب اللّغوي والأدبي وكان ذلك منذ القرن الخـامس الهجري، فقد صارت مركزا مشهورا في الدراسات العربيّة و الفقهيّـة والطّبيّة، واستقبلت عددا كبيرا من طلبة العلم والمعرفة من أهل الأندلس الذين كان لهم دور كبير، فقد وفد من أهلها أدباء و لغويّـون كُثُر ساهموا في نشاطـها، من أبرزهم : أبو الحسن عبيد الله بن أحمـد بن أبي الربيع الإشبيليّ (ت688هـ)[5] .

1- الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، حسن علي حسن ، ص 447.

2- النبوغ المغربي ، عبد الله كنّون ، ص 138.

3- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عصر المرابطين والموحّدين ، فاتن كوكة ، ص 49.

4- المرجع نفســـه، ص49.

5- التّاريخ المغربي لمدينة سبتة ، إدريس أحمد خليفة ، المطبعة الأمنية المغرب، 1408هـ/1999م ص147-148.

ومن أبناء سبتة علماء مبرّزون منهم: عمر بن عبد المجيد الأزدي المعروف بابن الرّندي (ت616هـ) فقد درّس القرءان الكريم والنّحو واللغة و الآداب، وحين توفّي أبو القاسم السهيلي دعاه أهل مالقة للتّدريس فيهـا[1]، وبرز أيضا :" مُحَمَّد بن أحمد بن هشام اللّخمي الإشبيليّ مولدا والسبتي موطنا (ت558هـ) فقد درس طويلا في سبتة علوم اللّغة والنّحو وقدّم العديد من الشّروح اللّغوية والأدبيّة والتّعليقات والمصنّفات اللّغوية المفيدة"[2]. وممّـا زاد في نشاط هذه المدينة إقبال العلماء بتشجيع من الملوك والحكّام على عقد المناظرات اللّغوية والأدبية[3]، فمن ذلك المناظرة التي جرت بين النّحوي الشّهير أبي الحسن بن أبي الربيع و مالك بن المرحّل حول استعمال "ماذا" وغيرها[4].

إنّ الحركة العلمية في هذه المدينة كانت مثمرة وفي ازدياد وتسارع مستمرّ وتقدّم واضح فنشوء المراسلات بين طلبتها وطلبة مالقة زاد من هذه الحركة العلمية حتّى ظهرت مدارس كمدرسة الشيخ أبي الحسن الشّـاري[5]، واشتغال العلماء في الأبحاث النّحوية واللّغوية ووضع التّعليقات والانتقادات والشّروح وتدريس الطّلاب والاهتمام بالمراسلات كلّها أمور دفعت أهل العلم إلى عدّ مدينة سبتة ضمن مصافّ المدن المتقدّمة ثقافيا [6].

ز- سلا :

هي مدينة اشتهرت بطابعها العلميّ والثّقافي وكان لها الأثر البالغ في هذه الحركة العلميّة حتّى أنّه بني فيها الجامع الأعظم أيّام المنصور الموحدي وهو جامع ضخم ضاهى جامع

1- الدّراسات اللّغوية في الأندلس منذ مطلع القرن السّادس الهجري حتّى منتصف القرن السّابع الهجري، رضا عبد الجليل الطيّار ، 1401هـ/1980م، ص38.

2- بغية الوعـاة ، السّيوطي ، ج1، ص48-49.

3- الدّراسات في تاريخ مدينة سبتة ، أمين الطيبي، جمعيّة الدعوة الاسلاميّة العالميّة ، ط1،1989م،ص 55-56.

4- حضارة الموحّدين ، مُحَمَّد المنّـوني ، ص29.

5- النّبوغ المغربي ، عبد الله كنون ، ص 138.

6- التّصنيف اللّغوي الأدبي في عصر المرابطين والموحّدين ، فاتن كوكة ، ص51.

القرويّين في فاس تنوّعت فيه العلوم فكان معهدا علميّا يتلقّى فيه الطلبة علوم الدّين واللّغة العربيّة [1].

ح- طنجـة:

كانت مركزا علميّا اشتهر بالدّراسات اللّغوية والنّحويّة وكان طلبتها وعلماؤها يراسلون علماء اشبيليّة فيوجّهون لهم الأسئلة المتنوّعة وفي تخصّصات متعدّدة[2].

وبعد هذا العرض نخلص إلى أن المغرب والأندلس برزت فيهما مراكز علميّة ومعرفيّة عديدة، واستطاع حكّام الموحّدين أن يولوها العناية البالغة حتى صارت منارة علم يقصدها العلماء وطلاّب العلم من كلّ فج، بغية نشر العلم وتحصيله وبذلك استطاع أهل المغرب أن يبرزوا مراكزهم ويجعلوا منها محاضر لنشر العلم و المعرفة.

1- النّبوغ المغربي، ص 138.

2- حضارة الموحّدين ، مُحَمَّد المنّوني ، ص 29-30.

الباب الأوّل:

مضامين شعر المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين

الفصل الأوّل:

مضامين شعر المغرب الإسلامي خلال القرن الثّامن الهجري

1-المدح

2-الوصف

3-الزّهد و التّصوّف

4-الشّعر الوجداني

إنّ أغراض الشّعر هي تلك القوالب التي استقرّ الشّعر منذ نشأته على طابعها وهي الشّكل الذي ارتضاه الشّعراء للتّعبير عن أفكارهم ومشاعرهم إلاّ أنّها انقسمت إلى مقاصد عديدة، فإذا كان قصد الشّاعر وغرضه الاعتزاز بنفسه أو قبيلته فشعره الفخر، وإذا قصد الشّاعر التّعبير عن الإعجاب بشخص ما في كرمه أو شجاعته أو غير ذلك فشعره المدح و ظهرت أغراض أخرى منها :الرّثاء والوصف والهجاء والحماسة وكذلك الغزل و النّسيب ونجد أيضا الزّهد والحكمة والوعظ والإرشاد وغير ذلك.

هذه الأغراض أوّل ما ظهرت في المشرق، ولمّا فُتِح المغرب وانتشرت العربيّة بين أهله بدأت تظهر اللّبنات الأولى للشّعر حتّى قام هذا الأخير على قدم وساق وبرز فيه شعراء نظموا شعرا على الأغراض التي ذكرناها آنفا ومنها:

1- المدح:

إنّ المدح لا يكون إلاّ لشخص معجب به وهذا الغرض استعمل في فترات عديدة منها القرن الثّامن الهجري و الذي نظم فيه ثلّة من الشّعراء وبرزوا فيه بروزا كبيرا خاصّة في المدح النّبوي.

أ- المدح النّبوي:

المدح النّبويّ كان غالبا ما يقال في مناسبة مولد النّبيّ ﷺ ولهذا سمّي بشعر المولديّات، وممّن قال في هذا الغرض أبو الحجّاج يوسف بن موسى بن سليمان الجذامي المنتشاقري الأندلسيّ[1] فقد قال مسدّسة؛ أي قد جعل الشّطر السّادس من قصيدته "فعليه الصّلاة والتّسليم"[2]، وهي قصيدة مرتّبة على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الرّويّ فإنّه على حرف الميم، وكذا آخر الشّطر الذي قبله فإنّه ميم أيضا،وهذا نصّه بحروف ما عدا حرف الواو فإنّني لم أجده ."[3] قال فيها أبــو الحجّـاج[4]

1- حسنة من حسنات الدهر، تحفة من تحف السّر و الجهر و جالب أفكار تجل عن المهر، شيخ دمث الخلائق متمسّك من الفضل بأقوى العلائق، كاف بالأدب الرّائق. ينظر: الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ، 1983م، ص 120/119.

2- نفح الطيب،أحمد المقري التّلمساني،حقّقه: إحسان عبّاس، دار صادر ،بيروت لبنان،دط،دت، ج7، ص513/512.

3- 4- المصدر نفسه، ج7، ص513.

حَلَّ فِي طَـيْبَةَ رَسُولٌ كَرِيمٌ   فَعَلَيْـهِ الـصَّلَاةُ وَ الـتَّسْـلِيـمُ   (الخفيف تامّ)

صَفْوَةُ الخَلْقِ خَـاتَمُ الأَنْبِيـاءِ   مُرْشِدُ النَّاسِ لِلطَّرِيقِ السَّوَاءِ

افتتح الشّاعر قصيدته ببهجته وفرحته لهجرة النّبي عليه الصّلاة والسّلام إلى طيبة المدينة، فوصفه بأنّه رسول كريم، ثمّ أتبع ذلك بالصّلاة والسّلام عليه، و أنّه من صفوة الخلق وأحسنهم فهو خاتم النّبيّين ولا نبيّ بعده، و مرشد النّاس إلى الهدى والطّريق المستقيم، إلى أن قال :

....

وَالعِـمَادُ الـمَلاَذُ* فِي الـلَّأْوَاءِ*   وَ شَـفِـيعُ العُصَاةِ يَوْمَ الجَزَاءِ

يَــوْمَ يَـبْدُو لَدَيْهِ جَـاهٌ عَظِـيمُ   فَـعَـلَيْهِ الـصَّـلاَةُ وَالتَّـسْلِيـمُ

أَذْهَبَ الغَيَّ* نُـورُهُ والغَيَاهِـبْ*   فَأَضَـاءَتْ مَشَـارِقٌ وَمَغَـارِبْ

وَغَدَا الـحَقُّ غَالِــبًا لِلأَكَـاذِبْ   وَ بَدَتْ مِنْهُ لِلأَنَــامِ عَجَائِبْ

صِـــدْقُ أَقْــوَالِهِ بِهَـا مَعْلُـومُ   فَـعَلَيْـهِ الصَّـلاَةُ وَالتَّـسْلِيـمُ

يقصد الشّاعر بقوله هنا أنّ الرسول عليه الصّلاة والسّلام هو الملجأ والعماد والشّفيع للعصاة يوم القيامة يوم يشتدّ الحساب، وأنّ رسالته أذهبت ظلمات الباطل والضّلال فكانت نورا أشرقت بها المشارق والمغارب، وأنّ قوله صدق وعدل لا ريب فيه، ثمّ قال[1] :

البَرَاهِينُ صِـدْقُهُ مُعْجِــزَاتُ   حَيْثُمَا حَلَّ حَلَّـتْ البَرَكَـاتُ

وَ سَـمَتْ أَرْبُعٌ بِـهِ وَ جِـهَـاتُ   فَبِهِ قَـدْ تَعَرَّفَتْ عَـرَفَـاتُ

* الملاذُ: الحصن ،"لسان العرب"، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، دت ج3، ص508، حرف الذال، فصل اللام، مادة (ل و ذ).

* اللأواء: الشّدة و الضرّ، المصدر نفسه، ج15، ص267، حرف الواو و الياء من المعتل، مادة (ل و ي).

* الغي: الضلال و الخيبة أيضا،"مختار الصحاح"، مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م ص203، حرف الغين، مادة (غ و ى).

* الغياهب: جمع غيهب، و هو شدّة سواد الليل و الجمل و نحوه، يقال جمل غيهب: مظلم السواد، المصدر السابق، ج1 ص653، حرف الباء، فصل الغين المعجمة، مادة (غ ه ب).

1- نفح الطّيب، ج7، ص513.

وَ بِهِ تَاهَ زَمْزَمُ والحَطِيمُ* فَعَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالتّسلِيمُ

لَمْ يَزَلْ هَادِيًا صَدُوقُ الحَدِيثِ وَوَفِيًّا بِالعَهْدِ غَيْرِ نَكُوثِ*

و مُجِيبًا لِدَعْوَةِ المُسْتَغِيثِ وَكَرِيمًا نَدَاهُ فَوْقَ الغُيُوثِ

وَيَدَاهُ بِالجُودِ جَوْدٌ سَجُومْ* فَعَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالتَّسلِيمْ

فالشّاعر يذكر صدق نبوّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام بالمعجزات وحيثما حلّ جاء الخير والبركات، فانتشر دينه في كلّ البقاع وعرفت به عرفات التي يحجّ فيها النّاس وبه اختال وافتخر وعلا زمزم والحطيم، فهو الهادي الصّدوق ووافي العهد غير مخلف له ومجيب دعوة المستغيث إذا استغيث به، وهو كريم في العطاء لا يبخل على أحد، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وقال أيضا(1):

كُلُّ دِينٍ بِدِينِهِ مَنْسُوخُ* فَسِوَى مَا قَضَى بِهِ مَفْسُوخُ*

لِهُدَاهُ بِكُلِّ قَلْبٍ رُسُوخُ فَالوَرَى مَادِحٌ لَهُ ومُصِيخُ*

كُلُّهُمْ فِي هَوَى النَّبِيِّ يَهِيمُ فَعَلَيْهِ الصَّلاَةُ والتَّسْلِيمُ

* الحطيم: ما بين ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود و مقام إبراهيم و زمزم و الحجر،"المعجم الكبير"، مجمع اللّغة العربيّة مصر، ط1، 1421ه/2000م، ج5، ص456، حرف الحاء، مادة (ح ط م).

* النّكوث: النّكث من نكث العهد، و الحبل ينكثه و ينكّثه: نقضه فانتكث،"القاموس المحيط"، مجد الدين محمّد ابن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق بإشراف: محمّد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط8 1426ه/2005م، ص177، حرف الثّاء، فصل النّون، مادة (ن ك ث).

* سجوم: من سجم الدّمع سجوما: قطر دمعها و سال قليلا أو كثيرا، المصدر نفسه، ص 1119، حرف الميم فصل السّين مادة (س ج م).

1- نفح الطيب، ج 7، ص514.

* منسوخ: نسخ الشيء بالشيء: ينسخه نسخا، و انتسخه: أزاله، و الشيخ ينسخ نسخا: أي يزيله و يكون مكانه،"المحكم والمحيط الأعظم"، ابن سيده (ت458ه)، تحقيق مجموعة من المحقّقين، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ط2 1424ه/2003م، ج5، ص52، حرف الخاء، مادة (ن س خ).

* مفسوخ : انفسخ: نقضه فانتقض، المصدر نفسه، ج5، ص54، حرف الخاء مادة (ف س خ).

* مصيخ : من أصاخ إصاخة: إستمع، المصدر نفسه، ج5، ص150، حرف الخاء، مادة (ص ي خ).

الشّاعر تحدّث عن الدّين الذي بعث به النّبي عليه الصلاة والسّلام فهو ناسخ لكلّ الأديـان التي قبله، وما قضى به الهدى لكلّ قلب، يكون به الرّسوخ في الحقّ والثّبات عليه، فكلّ الذين ءامنوا به يمدحونه، وكلٌّ هائم بحبّه فعليه ألف صلاة وتسليم، إلى أن قال في خاتمة قصيدته:

حُسْنُهُ كَالصَّبَاحِ بَلْ هُوَ أَحْلَى ... وَ نَدَى كَفِّهِ مِنَ الشَّهْدِ أَحْلَى
وَ اِعْتِلاَ قَدْرِهِ مِنَ السَّبْعِ أَعْـلَى ... مَدْحُهُ فِي الكِتَـابِ مَازَالَ يُتْلَى
فَـلَهُ الفَخْـرُ وَالثَّنَـــاءُ العَظِـيمُ ... فَعَلَـــيْهِ الـصَّـلاَةُ وَالتَّسْـلِـيمُ
خَـصَّـهُ اللّهُ مِــنْ رَسُـــولٍ نَبِيّ ... فِي جَمِـيعِ الـوَرَى بِقَـدْرٍ عَـلِيّ
وَحَبَـاهُ* مِـــنْهُ بِنُـــورٍ بَهِـــيّ ... فَهَدَى الخَلْقَ لِلصِّرَاط السَّوِيّ
وَصِرَاطُ الهُدَى سَـوِيٌّ قَــوِيمُ ... فَعَلَـــيْهِ الـصَّـلاَةُ وَالتَّسْـلِـيمُ(1)

في هذا المقطع ذكر الشّاعر فيه أهمّ صفات النّبي الكريم ﷺ ومدحه بها وذكر بعض معجزاته وأخلاقه وما حباه الله به من صفات حميدة وأخلاق رفيعة وما خصّه به من علوّ شأنه عند العالمين فهو النبيّ خاتم النبيّين والمرسلين ﷺ .

ولابن زمرك أبي عبد الله(2) قصيدة وهي موشّحة زهديّة مولديّة تضمّنت مدح المصطفى عليه الصّلاة والسّلام وهي آخر موشّحاته، قال فيها(3) : (بحر السّريع التّام)

لَوْ تَرْجِـعُ الأَيَّـامُ بَعْـدَ الذَّهَابِ ... لَمْ تَقْدَحِ الأَشْوَاقُ ذِكْرَى حَبِيب
وَكُلُّ مَنْ نَـامَ بِلَيْـلِ الشَّـبَابِ ... يُوقِظُهُ الدَّهْـرُ بِصُبْحِ الـمَشِيـبِ

---

* حباه: و هي من الحباء: العطاء، المصدر نفسه، ج1، ص 179، باب الحاء، مادة (ح ب و).

1- نفح الطّيب : ج7 ،ص517.

2- أبو عبد الله مُحَمَّد بن يوسف بن مُحَمَّد الصريحي الفريضي، المعروف بابن زمرك، ولد في 14 من شوال سنة 733ھ في غرناطة، ونشأ فيها وتلقى العلم على ثلة من علمائها، منهم: أستاذه على الحصر لسان الدين ابن الخطيب، أخذ عليه في فنون الأدب و هو ولي نعمته في الترقي في مراتب الدّولة، توفي مقتولا سنة 796ھ، ينظر:"تاريخ الأدب العربي"، عمر فروخ، ج6، ص 571/569 .

3- أزهار الرّياض في أخبار عياض، شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري، ضبطه وحقّقه وعلّق عليه : مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبعة دار لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، دط 1359ھ/1940م، ج2 ص206/205.

يَارَاكِبَ العَجْـــزِ أَلاَ نَهْضَةٌ قَدْ ضَيَّقَ الدَّهْرُ* عَلَيْكَ المَجَالْ

لاَ تَحْسِبَنْ أَنَّ الصِّبَا رَوْضَةٌ تَنَامُ فِيهَا تَحْتَ فَيْءِ* الظِّلاَلْ

فَالعَيْشُ نَوْمٌ وَالـرَّدَى* يَقْظَةٌ وَ المَـرْءُ مَا بَيْنَهُـــمَا كَالخَيَالْ

يفتتح الشّاعر موشّحته بتذكير الذي بلغ به العمر عتيّا، أنّ الأيّام لو رجعت به إلى ما كانت عليه في الشّباب لبقي شوق الحبيب كما كان، فلا تنم في شبابك ولا تغفل حتّى يوقظك المشيب، ولا تعجز وانهض قبل فوات الأوان، فالإنسان بين حياة وموت والأيّـــام تمضي و كأنّها خيـــال.

إلى أن قال[1] في مدح المصطفى عليه الصّلاة والسّلام :

هَلْ يُحْمَلُ الـزَّادُ لِدَارِ الكَـرِيمْ وَ المُصْطَفَى الهَادِي شَفِيعٌ مُطَاعْ

....

فَجَاهُهُ ذُخْرُ الفَقِيرِ العَـــدِيمْ وَحُبُّـــهُ زَادِي وَنِعْمَ المَتَـاعْ

وَاللهُ سَمّـــاهُ الـرَّؤُوف الرَّحِيمْ فَجَارُهُ المَكْفُـولُ مَا إِنْ يُضَاعْ

عَسَى شَفِيعُ النَّاسِ يَوْمَ الحِسَابْ وَمَلْجَأُ الخَلْقِ لِرَفْعِ الكُـرُوبْ

يَلْحَـــقُنِي مِـنْهُ قَبُـــولٌ مُجابْ يَشْفَعُ لِي فِي مُوبِقَاتِ الذُّنُـوبْ

....

نَادَيْتُ لَوْ يَسْمَحُ لِي بِالجَـوَابْ شَهْرُ رَبِيعٍ عَلى رَبِيعِ القُلُوبِ

أَطْلَعْتَ لِلهُدَى بِغَـيْرِ اِحْتِجَـابْ شَمْسًا وَلَكِنْ مَالَهَا مِنْ غُرُوبْ

---

* دهر: الدّال و الهاء و الراء أصل واحد، و هو الغلبة و القهر، و سمي الدّهر دهرا لأنه يأتي على كل شيء و يغلبه "معجم مقاييس اللغة "، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر، طبع بإذن خاص من رئيس المجمع العلمي العربي الإسلامي: محمّد الداية، دط، 1399هـ/1979م، ج2 ص305، كتاب الدال، مادة (د هـ ر).

* فيء: من (فأ) الفاء و الهمزة مع معتل بينهما، كلمة تدل على الرجوع، يقال: فاء الفيء، إذا رجع الظل من جانب المغرب إلى جانب المشرق، و كل رجوع فيء، قال تعالى:﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي ترجع، المصدر السابق، ج4 ص435، كتاب الفاء، مادة (ف ا ء).

* الردى: الهلاك، لسان العرب، ج14، ص315، حرف الواو و الياء من المعتل، مادة (ر د ى).

1- أزهار الرّياض: ج2، ص206 .

الشّاعر في هذه الأبيات يبيّن عظمة هذا النّبي الكريم يوم القيامة وأنّه شفيع في أهل المعاصي والذّنوب والموبقات، وفي آخر القصيدة يمدحه بربيع القلوب أي بهجتهم بما جاء به من هدي يضيء للأمّة الطّريق كالشّمس التي لا تغيب.

ولابن جابر الوادي الآشي الضّرير[1] بديعيّة مشهورة وهي المعروفة ببديعيّة العميان وقصيدة فيها التّورية بسور القرءان ومدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم وهي من غرر القصائد[2] " وكثير من النّاس ينسبها للقاضي الشّهير عالم المغرب أبي الفضل عياض[3] وكنت أنا في أوّل الاشتغال ممّن يعتقد صحّة النّسبة، حتّى توقّفت على شرح البديعيّة الموصوفة لرفيقه أبي جعفر فإذا هي منسوبة للنّاظم ابن جابر"[4] وفاتحتها : (بحر البسيط التّام)

فِي كُلِّ فَاتِحَـةٍ لِلْقَـــوْلِ مُعْتَـبَرَهْ حَقُّ الثَّنَاءِ عَلَى المَبْعُـــوثِ بِالبَقَرَهْ

فِي آلِ عِـمْرَانَ قِدْمًا شَـاعَ مَبْعَثُهُ رِجَالُهُـمْ وَلِلنِّسَاءِ اِسْتَوْثَقُـوا خَـبَرَهْ

مَنْ مَدَّ لِلنَّـاسِ مِنْ نُعْـمَاهُ مَـائِـدَةً عَمَّتْ فَلَيْسَتْ عَلَى الأَنْعَامِ مُقْتَصِرَهْ*

فهو بهذه الطّريقة رحمه الله يذكر سور القرءان في نظمه ورتّبها كما جاءت في المصحف العثماني ويتبع كلّ سورة بمدح المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، إلى أن قال :

لَـهُ تَـكَاثُـرُ آيَـاتٍ قَـدْ اِشْـتَـهَـرَتْ فِي كُلِّ عَصْـرٍ فَـوَيْلٌ لِلَّذِي كَفَرَهْ

1- شمس الدين أبو عبد الله مُحَمّد بن علي بن جابر الهواري الأندلسي المري الضرير، ولد في ألمرية سنة 698ه، قرأ القرآن على مُحَمّد بن أبي العيش و الحديث على مُحَمّد الزواوي، و الفقه على مُحَمّد بن سعيد الرندي، ثم رحل إلى مصر و سمع من أبي حيان الغرناطي، و هو أديب بارع في اللغة و النحو و العروض و البلاغة، و شاعر مكثر له مقطعات حسان توفي سنة 760ه، ينظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج6، ص530/ 532.

2- ينظر: نفح الطّيب، ج7، ص323.

3- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن عياض اليحصبي، أصل أهله من الأندلس ثم انتقلوا إلى المغرب، و أخيرا استقروا في سبتة ولد سنة 476ه، درس في قرطبة، تولى القضاء، كان محدثا فقيها، عالما باللغة و النحو و بأيام العرب و أنسابهم و أدبهم، و خطيبا مترسلا بليغا و شاعرا مكثرا حسن الشّعر رقيقا، توفي في مراكش سنة 544ه،ينظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج5، ص290/291 .

4- المرجع السّابق، ج7، ص323/324.

*مقتصره: من فعل اقتصر على الأمر: لم يجاوزه إلى غيره و اكتفى بالشيء القصير منه،"معجم متن اللغة"، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، 1377ه/1958م، ج4، ص577، مادة (ق ص ر).

أَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ تَصْدِيقًا لَهُ حُبِسَتْ عَلَى قُرَيْشٍ وَجَاءَ الــرُّوحُ إِذْ أَمَرَهْ
أَرَيْتَ أَنَّ إِلَـــهَ العَــرْشِ كَـرَّمَــهُ بِكَوْثَرٍ مُرْسَـلٍ فِي حَـوْضِـهِ نَهَرَهْ
وَالكَافِرُونَ إِذَا جَاءَ الوَرَى طُـرِدُوا عَنْ حَوْضِهِ فَلَقَدْ تَبَّتْ* يَدَا الكَفَرَهْ
إِخْلاَصُ أَمْدَاحِهِ شُغْلِي فَكَمْ فَلَـقٍ لِلصُّبْحِ أَسْمَعْتُ فِيهِ النَّاسَ مُفْتَخَرَهْ[1]

هنا يتكلّم الشّاعر عن آيات القرءان التي نزلت على المصطفى عليه الصّلاة والسّلام واشتهرت بين النّاس في كلّ عصر ومصر، وعن بعض المكارم التي خصّه الله بها صلّى الله عليه وسلّم كنهر الكوثر الذي لا يشرب منه إلاّ من اتبّع سنّته صلّى الله عليه وسلّم ويُطرَد ولا يشرب منه من كفر به أو خالفه.

ب - مدح أصحابه وأزواجه ﷺ :

أَزْكَى صَلاَتِي عَلَى الهَـــادِي وَعِتْرَتِهِ* وَصَحْبِهِ وَخُصُوصًا مِنْهُمُ العَـشَرَهْ
صِدِّيقُهُـمْ عُـمَـرُ الفَـارُوقُ أَحْزَمُهُـمْ* عُـثْـمَـانُ ثُمَّ عَلِيٌّ مُهْلِكُ الكَفَـرَهْ
سَعْدٌ سَعِيدٌ عُبَيْدٌ طَلْحَـةٌ وَ أَبُــو عُبَيْدَةٍ وَابْنُ عَوْفٍ عَاشِرُ العَشَرَهْ
وَحَمْـــزَةٌ ثُمَّ عَبَّـــاسٌ وَ آلُهُـــمَا وَجَعْفَــرٌ وعَقِيلٌ سَـــادَةٌ خـيرهْ
أُولَئِكَ النَّـاسُ آلُ المُصْطَـفَى وَكَفَـى وَصَحْبِهِ المُقْتَـدُونَ السَّـادَةُ الـبَرَرَهْ
وَفِي خَـدِيجَـةَ وَالزَّهْــرَا وَمَـا وَلَـدَتْ أَزْكَى مَدِيحِي سَأُهْدِي دَائِمًا دُرَرَهْ
عَنْ كُلِّ أَزْوَاجِهِ أَرْضَى وَ أُوثِـرُ مَـنْ أَضْحَتْ بَرَاءَتُهَـا فِي الذِّكْرِ مُنْتَشِرَهْ
أَقْسَمْتُ مَازِلْتُ أُهْدِيهِمْ شَـذَا مَدَحِي كَالرَّوْضِ يَنْـثُرُ فِي أَكْمَامِـهِ* زَهَـرَهْ[1]

* تبّت يده: خسرت،"معجم متن اللغة"، ج1، ص384، حرف التّاء، مادّة (ت ب ب).
1- نفح الطّيب،ج7، ص 325.
* عترته: العترة بالكسر: نسل الرجل و رهطه و عشيرته الأدنون ممن مضى و غبر، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، دار الفكر، ط3، دت، ج3 ص147، مادة (ع ت ر).
* أحزمهم: رجل حازم بين الحزم و الحزامة، إذا كان محكما غير منتكث في تصرفه،"جمهرة اللغة "، ابن دريد أبو بكر محمّد ابن الحسن الأزدي البصري، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد، دار صادر، 1345ھ، ج2، ص149، حرف الحاء، مادة (ح ز م).

في هذه الأبيات يذكر الشّاعر أصحابه ويَعُدّهم عشرة وهم المبشّرون بالجنّة ثمّ يذكر حمزة وغيره رضي الله عنهم وأرضاهم ويمدح الزّهراء وابنيها رضي الله عنهم وأمّهاتهم ويذكر براءة عائشة ممّا اتُّهمت به رضي الله عنها وأنّ هذه البراءة ذُكِرت في القرءان المعظّم ومازال النّاس يتلونها إلى قيام السّاعة.

ج- مدح الملوك والسّلاطين :

ومن المدح الذي قيل في ذلك العصر مدح الملوك والسّلاطين، فقد مدح عبد المهيمن الحضرميّ ذا الوزارتين ابن الحكيم الرّندي[2]، حيث قال: (بحر الطّويل)

وَعَاذِلَةٍ* بَاتَتْ تَلُومُ عَلَى السَّرَى* و تُكْثِرُ مِنْ تَعْذَالِهَا وَ تُطِيلُ

ذَرِينِي أَسْعَى لِلَّتِي تُكْسِبُ العُلاَ سَنَاءً* وَ تُبْقِي الذِّكْرَ وَهْوَ جَمِيلُ

فَإِمَّا تَرَيْنِي مِنْ مُمَارَسَةِ الهَوَى نَحِيلاً فَحدُّ المَشْرِفِيِّ نَحِيلُ

وَلَوْلاَ اِغْتِرَابُ المَرْءِ فِي طَلَبِ العُلاَ لَمَا كَانَ نَحْوَ المَجْدِ مِنْهُ وُصُولُ[3]

---

* أكمامه: من الكمامة و هي وعاء الطلع و غطاء النور، جمعها أكمة و أكمام و كمام، ينظر: المصدر نفسه، ج4، ص82 باب الكاف، مادة (ك م م).

1- نفح الطيب، ج7، ص326.

2- ذو الوزارتين أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى الحكيم، ولد سنة 660ھ في رندة و بها نشأ و أخذ قراءة القرآن بالقراءات السّبع والعربية عن أبي الحسن علي بن يوسف العبدري السّفاح النّحوي ثم رحل إلى المشرق سنة 683ھ فزار مصر ثم حجّ سنة 684ھ، كان ابن الحكيم عالي الهمّة كريم النّفس، جميل الأخلاق، و كان عالما ذا عناية برواية الحديث، و أديبا خطيبا و كاتبا بليغا بنقد الشعر، و له نظم كثير و نثره أعلى رتبة من شعره، توفي سنة 708ھ مقتولا، (نفح الطيب، ج2، ص625/624)،(تاريخ الأدب العربي، ج6، ص366/365).

* عاذلة: عذل يعذل عذلا، و هو اللّوم، و العذال الرّجال و العذل النساء، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم تصنيف: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب و تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان 1419ھ/1999م، ج3، ص122، باب العين، مادة (ع ذ ل).

* السّرى: سير اللّيل، المعجم المفصّل في تفسير غريب الحديث، إعداد: محمّد التّونجي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 1422ھ/2002م، ص172، باب السّين، مادة (س ر ي).

* سناء: المساناة: الملاينة في المطالبة، ويقال: فلان السني: لحسبه، وقد سنا يسنو سنوا وسناء، ممدود، المصدر نفسه، ج2، ص286، باب السين، مادة (س ن ا).

3- تاريخ الأدب العربي ،عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط1983،1م، ج6،ص448/447.

لقد استهلّ الشّاعر قصيدته بالعاذلة التي باتت تلوم في اللّيل و تكثر و تطيل في لومها فقيل لها: إنّ السّرى يكسب العلا ، وإذا رأيتني لا أكثر الهوى فإنّ السّيف المشرفي الذي صنع في مشرف- منطقة في الشّام أي سوريّة- حدّه مخيل وضعيف كضعفي في الهوى فإنّي لا أكثر منه، حتّى قال: فإنّ الاغتراب والمشي بالسّرى هو الذي يوصل إلى العلا وهو طريق للوصول إلى المجد، وكما قيل : "من طلب العلا سهر اللّيـالي "، ثمّ قال :

وَلَـوْلاَ نَـوَالُ* ابْنِ الحَكِـيمِ مُحَمَّدٍ لَأَصْبَحَ رَبْعُ* المَجْدِ وَهْوَ مَحِيلُ*
وَزِيرٌ سَمَا فَوْقَ السِّمَاكِ* جَلاَلَةً وَ لَيْسَ لَـهُ إِلاَّ النُّجَـومَ قَبِيـلُ[1]

ثمّ تطرّق الشّاعر إلى مدح ابن الحكيم مُحَمَّد وذكر مآثره عليه فقال: لولا عطاءه لضاع ربع المجد وصار خربا، فإنّ ابن الحكيم محمّدا علا شأنه وارتفع صيته بين النّـاس والعالمين فهو على الخير مقبل وعن الشّرّ مدبر، ليس له إلاّ السعي في الخيرات ومساعدة الأهل والأقرباء والفقراء والبعد عن المنكرات، حتّى قـال :

مَن القَوْمُ أَمَّا فِي النَّدِيّ* فَإِنَّـــهُمْ هِضَابٌ وَأَمَّا فِي النَّـدَى فَسُيُولُ
وَأَبْلَجَ* وَقَّـــادِ الجَـبِينِ كَأَنَّـمَـا عَلَى وَجْنَتَيْهِ للنُّضّـــارِ مَسِـيلُ*

---

* نوال: قال الكسائي: لقد تنول علينا فلان بشيء يسير: أي أعطانا شيئا يسيرا، التكملة و الذيل و الصلة لما فات صاحب "القاموس من اللّغة"، مُحَمَّد مرتضى الحسيني الزّبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، مراجعة: عبد السّلام هارون الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1408هـ/1988م، ج6، ص306 حرف اللام، مادة (ن و ل).

* ربع: جمعها ربوع بالضم: الأحياء، المصدر نفسه، ج4، ص331، حر ف العين، مادة (ر ب ع)،و هو المكان المسكون.

* المحيل: أحال عليه الحول: أي حال و دار محيلة: غاب عنها أهلها منذ حول، و كذلك دار محيلة إذ أتت عليها أحوال "لسان العرب"، ج11، ص184، حرف اللام، فصل الحاء، مادة (ح و ل).

* السماك: نجم معروف، المصدر نفسه، ج10، ص444، حرف الكاف، فصل السين، مادة (س م ك).

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص448.

* الندي: المجلس ما داموا مجتمعين فيه، فإذا تفرقوا عنه فليس بندي، المصدر نفسه ، ج15، ص316/317 حرف الواو والياء من المعتل، فصل النّون، مادّة (ن د ي).

* أبلج: الأبلج الأبيض الحسن الواسع الوجه، يكون في الطول و القصر، المصدر نفسه، ج2، ص215، حرف الجيم فصل الباء، مادة (ب ل ج).

* مسيل: مسيل الماء و هي مياه الأمطار إذا سالت، المصدر نفسه، ج11، ص351،فصل السين، مادة (س ي ل).

تَهِـــيمُ*بِـهِ العَلْيَـاءُ حَتَّى كَأَنَّـهَا بُثَيْنَتُهُ فِي الحُـبِّ وَ هْـوَ جَمِـيـلُ[1]

إنّ القوم إذا اجتمعوا عند ابن الحكيم فإنّهم كثير كظهور الهضاب ومع ذلك لا يبخل عليهم لأنّه كثير العطاء يحبّه النّـــاس لكرمه وعطائه وتواضعه، فهو عليّ بين قومه يحبّونه كحبّ جميل لبثينة، ثمّ قال :

سَرَى ذِكْرُهُ فِي الخَافِقَيْنَ*فَأَصْبَحَتْ إِلَيهِ قُلُـوبُ العَالَـمِينَ تَـمِيلُ

فَلَيْتَ إِلَى لُقْيَـاكَ نَاصِيَـةُ*الـفَـلاَ* بِأَيْدِي رِكَابٍ سَيْرُهُنَّ ذَمِيـلُ*[2]

فالشّاعر يمدح ابن الحكيم وأنّ ذكره طار بين العالمين شرقا وغربا، فلقد عُرف بين النّاس بكرمه وعطائه وجوده،هذا ما جعل لقياه صعبة لكثرة قاصديه ومحبّيه وطالبيه،إلى أن قـال:

وَقَدْ كُنْتُ ذَا نَفْسٍ عَزُوفٍ*وَ هِمَّةٍ عَلَيْهَا لِأَحْدَاثِ الزَّمَـانِ ذُحُولُ*

وَتَـأْبَى لِيَ الأَيَّـــامُ إِلاَّ إِدَالَـــةً فَصَوْنَكَ لِي إِنَّ الزَّمَانَ مُدِيـــلُ*

يختم الشّاعر قصيدته هذه بقول عن نفسه أنّه كان لا يحبّ زخرف الدّنيـا ويقابل متاعها وما يحدث له فيها بالعزوف عنها، ويستعطف ممدوحه ليغدق عليه ويكفيه حوادث الدّهر.

---

* تهيم: هام في الأمر يهيم إذا تحير فيه، أيضا الذّاهب على وجهه عشقا، المصدر نفسه، ج12، ص626، مادة (ه ي م).

1- تاريخ الأدب العربي ، فروخ، ج6،ص448.

* الخافقين: الخافق: الأفق و هما خافقان: أفق المشرق و أفق المغرب،"المعجم الوجيز"، إبراهيم مدكور، مجمع اللّغة العربيّة مصر، 1400ه/1980م، ص205، حرف الخاء، مادة (خ ف ق).

* ناصية: أخذ فلان بناصية الأمر: تمكن منه، المصدر نفسه، ص620، حرف النون، مادة (ن ا ص ى).

* الفلا: الفلاة: الأرض الواسعة المقفرة، جمعها فلا و فلوات، المصدر نفسه، ص481، حرف الفاء، مادة (ف ل و).

* ذميل: سار سيرا لينا، فهو ذامل، المصدر نفسه، ص246، حرف الذال، مادة (ذ ا ل).

2- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص448.

* عزوف: تعزف عزفا و عزوفا، زهدت فيه و انصرفت عنه،"قطر المحيط، بطرس البستاني"، طبع في بيروت 1869م، ج2، ص1354، باب العين، مادة (ع ز ف).

* ذحول: الذحل الثأر أو طلب مكافأة بجناية، جذيت عليك أو غداوة، المصدر نفسه ، ج1، ص680، باب الذال، مادة (ذ ح ل).

* إدالة: دالت الأيّام تدول مثل دارت الأيام تدور وزنا و معنى،"معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير" رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الأفاق العربية، القاهرة،1423ه/2002م، ص95، كتاب الدال، مادّة (د و ل).

2- الوصف:

إنّ المفهوم العامّ للوصف يتّسع اتّساعا كبيرا ليشمل كلّ عابر قد يتخلّل قصيدة ما وإن كانت في غير هذا الغرض ولهذا قال ابن رشيق المسيلي:" أنّ الشّعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف"[1]، وقد نظر النقّاد إلى الموضوعات التي اتّسعت اتّساعا كبيرا فسمّوا وصف النّاس الأحياء مدحا وهجاء، وسمّوا وصف الأموات رثاء، وسمّوا وصف النّساء خاصة غزلا، ثمّ أنّهم قسّموا الكلام في المرأة قسمين، فما كان منه في وصف أعضائها الظاهرة من حسن وجهها وجمال قدّها ولون شعرها واتّساع عينيها أبقوا له اسم الغزل، وما كان يتناول الشكوى من فراقها والتشوّق إلى لقاءها وإظهار الحبّ لها سمّوه نسيبا ..."[2]، وهذا ما يجعل الوصف بحقّ أن يكون رائدا في هذه الأغراض والأصلَ فيها.

وقبل الخوض في عرض بعض المقاطع وشرحها نعرّج قليلا على تحديد مفهوم الوصف والذي هو" تصوير الأشياء وإبرازها في شكل فنّي جذّاب، وذكر ما تقع عليه عينيك أو يستحضره ذهنك من أحوال الأشياء وهيئاتها من جمال أو قبح على حدّ سواء، وهو بذلك ينقسم إلى نوعين خيالي وحسّي[3] وأبلغه ما قلب السّمع بصرا "[4].

أ. وصف الجمادات:

ومن الوصف الذي نظم في تلك الحقبة ما قاله ابن رشيد السّبتي[5] :(البحر البسيط)

أُنْظُرْ إِلَى البَدْرِ قَدْ مُدَّتْ أَشِعَّتُهُ   عَلَى خَضَارَةَ* حَتَّى ابْيَـضَّ أَزْرَقُـهُ

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، حققه وفصله وعلق حواشيه: مُحَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ج2، ص294.

2- الأدب في العصر الزّياني الثاني (749هـ/952هـ) أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه في الأدب المغربي القديم، نورية ابن عدي، إشراف: مُحَّد مرتاض، 1431هـ/2010م، ص209.

3- المرجع نفسه، ص212/211.

4- المصدر السّابق، ج2، ص295.

5- مُحَّد بن عمر بن مُحَّد بن إدريس بن عبد الله بن سعيد بن مسعود بن حسن بن مُحَّد الفهري، من أهل سبتة يكنى أبا عبد الله و يعرف بابن رشيد، و كأنه تصغير رشد، خطيب محدث مشهور. ينظر: أزهار الرّياض في أخبار عياض المقري، ج2، ص348

* خضارة: مجردة من اللام: علم للبحر، ممنوع من الصرف للعلمية و التأنيث، البستان، عبد الله البستاني اللّبناني، مطبعة الأمير كافية، بيروت، 1927م، ج1، ص295، باب الخاء، مادة (خ ض ر).

وَالرِّيحُ قَدْ صَنَعَتْ دِرْعًا مَسَامِرُهَا   حَبَـابُ* مَاءٍ يَرُوقُ العَيْنَ رَوْنَقُـــهُ (1)

الشّاعر يصف لنا البدر إذا بسطت أشعّته على سطح البحر وأنّه أبيضّ فما بقي أزرقا بل صار أبيضا بأشعّة البدر، وكذلك الرّيح إذا هبّت على البحر تصنع مسامير وهي تلك الأمواج الصّغيرة إذا ظهرت في البحر فسمّاها الشّاعر حُبابا، والصّحيح كما قال عمر فروخ صاحب تاريخ الأدب العربي(2) أنّها تسمّى تعاريج ولا تسمّى حَبَابًـا.

ب- وصف الطّبيعة:

ولابن الفخارالجذامي النّحوي(3)أبيات في وصف الطّبيعة حيث قال فيها:(البحر الكامل)

أُنْظُــرْ إِلَى وَرْدِ الرِّيَـاضِ كَأَنَّهُ   دِيبَـاجُ* وَشْيٍ فِي بَنَـانِ زَبَرْجَـدِ*

قَـدْ فَتَحَتْهُ نَضَـارَةٌ فَبَدا لَـــهُ   فِي القَلْبِ رَوْنَقُ صُفْـرَةٍ كَالعَسْجَدِ*

حَكَتِ الجَوَانِبُ خَدَّ حِبٍّ* نَاعِمٍ   وَالقَلْبُ يَحْكِي خَدَّ* صَبٍّ* مُكْمَـدِ* (4)

---

* حباب: هي نفاخاته التي تطفو عليه، ويقال لمعظم الماء حباب أيضا، لسان العرب، ج1، ص295، مادة (ح ب ب).

1- أزهار الرياض، ج2، ص353.

2- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص386.

3- أبو بكر مُحَّد بن علي بن مُحَّد البيري الإلبيري النحوي الجذامي المالقي الشريشي، ولد في أركش سنة 630ه، بها نشأ و قد تطوف في بلدان كثيرة، و تلقى العلم عن رجالها إلى استوطن مالقة و ظل يقريء فيها إلى وفاته سنة 723ه، كان عالما بالقراءات و النحو و الأدب. ينظر: تاريخ الأدب العربي، ج6، ص400/399.

* الديباج: أعجمي معرب و قد تكلمت به العرب، وأصل الديباج بالفارسية (دبوياف) أي نساجة الجن، والدبج النقش "المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم"، أبو منصور موهوب بن أحمد بن مُحَّد الجواليقي، تحقيق: أحمد مُحَّد شاكر ط3، دار الكتب المصرية القاهرة، 1955م، ص143/140، باب الدال.

* زبرجد: بوزن السفرجل جوهر معروف، مختار الصحاح، الرازي، ص113، باب الزاي، مادّة (ز ب ر ج د).

* العسجد: الذهب،"مختار الصّحاح"، أبو بكر الرازي، ص181، باب العين، مادة (ع س ج د).

* حب: أحببته و هو الحبيب إلي،"أساس البلاغة"، الزمخشري، ج1، ص148، باب الحاء، مادة (ح ب ب).

* خدّ: الخدة بالضم: الحفرة،"لسان العرب"، ج3، حرف الدال، فصل الخاء، مادة (خ د د).

* صبا: صبب إليه صبابة، فأنا صب أي عاشق و مشتاق، المصدر السابق، ج1، ص518، مادة (ص ب ب).

* مكمّد: أخذ خرقة وسخة دسمة فسخنها ثم وضعها على عضو به وجع،"أساس البلاغة " ج2، ص319، مادة (ك م د).

4- الكتيبة الثّامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ط1983م، دت، ص71.

يصف الشّاعر في هذه الأبيات رياض ورد فيقول كأنّها مزخرفة منقوشة، عند رؤيتها لتفتُّحِهَا، فبدت لمن شاهدها كأنّها ذهب من شدّة اصفرارها ولمعانها، فالصّورة في هذه الرّياض توحي إلى انشراح الصّدر، وإدخال المحبّة والبهجة في قلب من رآها، كالقلب الذي يحكي قصّة محبّ لصاحبه فيدخل السّرور والبهجة والفرح لصاحبه وكأنّها تشبيه ضمنيّ ضُمّن في صورة الرّياض المبهجة بصورة المحبّ المفرحة .

كما أنّ ابن خاتمة الأنصاريّ[1] وصف الرّبيع فقـال : (الكامل التّام).

أَهْــلاً بِأَيَّــامِ الرَّبِـيعِ وَطِيبِهَا   أُنْسِ الخَلِيـعِ*وَنُـزْهَـةِ المُتَبَتِّـلِ*

زَمَنٌ أَرَقُّ مِنَ الـوِدَادِ*شَـمَـائِلاً*   وَأَلَـذُّ مِنْ عَصْرِ الشَّبَــابِ الأَوَّلِ

أَعْجِبْ بِـهِ مِـنْ مِهْرَجَـانٍ قَـائِمٍ   بَـيْنَ البَسِيطَةِ*وَالحَيَـا*المُتَهَـلِّلِ*

فَالطَّيْرُ تَشْـدُوا وَالغَـدِيرُ مُصَفِّـقٌ   وَ القُضْبُ* تَرْقُصُ وَالأَزَاهِرُ تَنْجَلِي

1- أبو جعفر أحمد بن علي بن مُحَّد بن علي بن خاتمة الأنصاري، مؤرخ و أديب و شاعر، ولد و توفي بألمرية من شرقي الأندلس، من آثاره ديوان شعر،(ينظر: معجم المؤلفين و تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مكتبة المتن دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، دت، ج2، ص19).

* الخليع: الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه و قد تبرؤوا منه و من جنايته،" لسان العرب"، ج8، ص77، حرف العين، فصل الخاء، مادة (خ ل ع).

* المتبتّل: التبتل الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى، و كذلك التبتيل، المصدر نفسه، ج11، ص42، حرف اللام، فصل الباء، مادة (ب ت ل).

* الوداد: هو وديد فلان أي يحبه،"مقاييس اللغة "، ص75، كتاب الواو، باب الواو و ما معها من المضاعف و المطابق مادة (و د) .

* الشمائل: الشمال: الطبع و الجمع: شمائل و الشمال الخلق أيضا،"لسان العرب"، ج11، ص365، حرف اللام، فصل الشين، مادة (ش م ل).

* البسيطة: البساط و البسيطة: الأرض العريضة الواسعة، المصدر نفسه، ج7، ص259، حرف الطاء، فصل الباء مادة (ب س ط).

* الحيا: قال اللحياني: الحيا مقصور، المطر، المصدر نفسه، ج14، ص215، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الحاء مادة (ح ي ا).

* المتهلّل: انهل المطر انهلالا، سال بشدة، المصدر بنفسه، ج11، ص801، حرف اللام، فصل الهاء، مادة (ه ل ل).

* القضب: القضيب: الغصن، و القضيب: كل نبت من الأغصان يقضب و الجمع قُضُبٌ،"لسان العرب"، ج1، ص687 حرف الباء، فصل القاف، مادة (ق ض ب).

فَاعْطِفْ عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ وَحَيِّهِ وَأُنْظُرْ إِلَى حُسْــنِ الرَّبِيــعِ المُقْبِلِ

وَأَجِلْ لِحَاظَكَ فِي صِفَاحِ*كِتَابِهِ حَتَّى تُبَــيِّنَ وَاضِـحًا مِـنْ مُشْكِلِ

مَا فَتَحَ الزَّهْــــرُ الجَنِيُّ*ثُغُــورَهُ إِلاَّ لِيَرْشُفَ طِيبَ ذَاكَ السَّلْسَـلِ*[1]

الشّاعر في هذه الأبيات يستهل قصيدته ترحيبا بفصل الرّبيع لما فيه من طيب العيش وجمال الطبيعة وروعتها وزرقة السّماء، ورياض الأزهار وأريجها ، فطبيعة الاندلس في أيّام الرّبيع تكون خلاّبة، فهو زمن فيه من المودّة والخُلق الرّفيع الكثير إذ يوحي إلى الرّومانسيات وإلى الرّقة في القول والفعل فإيحاءات الرّبيع ومعانيه كثيرة لمن تدبّرها، فإذا نظرت في هذا الفصل وتجلّت لك طبيعته وأزهاره التي تملأ ما بين السّماء والأرض ألوانها وروائحها الزّكية؛ و نَغَمُ المهرجان الذي تحدثه العصافير تنشد وتصفّر وتزقزق والغدير يصفق والقُضُب ترقص على الأغصان وتخرج أوراقها وتتفتّح أزهارها، فنعمّا فصل الرّبيع هو، فيه من المعاني والأسرار لو غاص في أعماقها الإنسان وتأمّل معانيها لوجدها توحي إلى معنى الحياة ما يوحي إلى الحيويّة والهمّة والفرح والسّرور والابتهاج و إعادة الحياة من جديد .

وللثّغري مُحَمَّد بن يوسف القيسي الأندلسيّ[2] لامية يقول فيها: (كامل التّام)

قُمْ مُجْتَلٍ*زَمَـنَ الرَّبِيعِ المُقْبِلِ تـر مَـا يَسُرُّ المُجْتَنِي*وَ المُجْـتَلِي

---

* صفاح: صفحتا الورق: وجهاه اللّذين يكذبان، المصدر نفسه، ص513، حرف الحاء، فصل الصاد، مادة (ص ف ح).

* الجني: الثمر المجتنى ما دام طريا، المصدر نفسه، ج14، ص156، حرف الواو و الياء من المعتل، مادة (ج ن ي).

* السّلسل: الماء العذب، و قيل هو البارد أيضا، المصدر نفسه، ج11، ص343 حرف اللام، مادة (س ل س ل).

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص494.

2- مُحَمَّد بن يوسف القيسي التلمساني، المعروف بالثغري، من أشهر شعراء تلمسان، ترجم له ابن أبي مريم، فقال: أخذ عن الشريف و غيره و حلاه المقري في أزهار الرياض، بقوله: الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر،(تاريخ الجزائر العام عبد الرحمن بن مُحَمَّد الجيلالي، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، مرازقة و أبو داود و شركاؤهما، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1385هـ/1965م، ج2، ص215). توفي في أواخر القرن الثامن، نحو سنة 780هـ الموافق 1378م في الأغلب، (كتاب تاريخ الأدب العربي، ج6، ص537).

* مجتل: إجتلاها زوجها أي نظر إليها و تجليت الشيء: نظرت إليه،"لسان العرب"، ج14، ص155، حرف الواو والياء من المعتل، فصل الجيم، مادة (ج ل ا).

* المجتنى: جنى الثمرة و نحوها تجناها كل ذلك، تناولها من شجرتها، المصدر نفسه، ج14، ص155، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الجيم، مادة (ج ن ي).

وَانْشَقْ نَسِيمَ الرَّوْضِ مَطْلُولاً* وَمَا أَهْدَاكَ منْ عَرْفٍ* وَ عُرْفٍ* فَاقْبَلِ

وَأنْظُرْ إِلَى زَهْرِ الـرِّيَاضِ كَأَنَّهُ دُرَرٌ عَلَى لَبَّاتِ* رَبَّـاتِ* الحُـلِي[1]

فالشّاعر يفتتح قصيدته بأمر يدعو فيه صاحبه ومدعوّه باكتشاف ما في الرّبيع من خير، فهو يحثّ صاحبه إلى التمعن في هذا الفصل ثمّ يعدّد محاسنه و أنّه يُسَرُّ من يريد جني ثمار فاكهته وخضرواته، ويُبهج الناظر إلى رياضه، وينعش مستنشق هوائه ، فهو يُهدي الطّيب ويجود بخيراته وعطائه على كلّ النّاس، أزهاره كأنّها درر في أعناق النّساء اللّاتي تلبسن الحليّ وتخزّنّه.

ولأبي عبد الله الظريف التّونسي[2] أبيات يصف فيها روضة فقال : (من البسيط)

وَرُبَّ رَوْضَةِ أُنْسٍ قَدْ مَرَرْتُ بِهَا مُخْضَرَّةٍ ذات أَشْجَـارٍ وَأَغْصَانِ

قُطُوفُهَا تُنْعِشُ الأَرْوَاحَ دَانِيَةٌ بِجَنَّةٍ ذَاتِ رَوْحٍ* ذَاتِ رَيْحَـانِ*

تَخَلَّلَ المَـاءُ فِي أَنْهَارِهَا فَغَدَتْ تَزْهُو* بِوَرْدٍ ونَسْـرِينٍ وَ نُعْمَانِ*[3]

---

*مطلولا: طلت الأرض أصابها الطل، نديت فهي مطلولة،المصدر نفسه، ج11، ص405، حرف اللام،مادة (ط ل ل).

* عرف: الريح الطيبة كانت أو خبيثة، المصدر نفسه، ج9، ص240، حرف الفاء، فصل العين، مادة (ع ر ف).

* العُرف: العرف و المعروف: الجود، المصدر نفسه، ج9، ص239، حرف الفاء، فصل العين، مادة (ع ر ف).

* لبات: هو موضع القلادة من الصدر من كل شيء، المصدر السابق، ج1، ص733، حرف الباء، فصل التاء، مادة (ل ب ب).

* ربات: رب كل شيء مالكه و مستحقه، المصدر نفسه، ج1، ص399، حرف الباء، فصل الراء، مادة (ر ب ب).

1- بغية الرّوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبو زكريا يحيى بن الحسين ابن خلدون، مطبعة بيير فونطا الشّرقية الجزائر،1321ه/1903م، م1، ص13.

2- نشأ في تونس و طلب العلم و الأدب فيها، فبرع و كان وحيد عصره، أشتهر بالفضل و كان متبعا للسّنة و كان شاعرا مفلّقا، توفي يوم الخميس الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة 787ه، و دفن بالجبل المبارك من مرسى قرطاجنة،(ينظر: عنوان الأريب عمن نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب: مُحَّد النيفر، تذييل و استدراك: ابن المؤلف علي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996م، ج1، ص331).

* روح: الراحة: الرحمة و نسيم الريح، المصدر نفسه، ج2، ص406، باب الراء، مادة (ر و ح).

* الريحان: نبت طيب الرائحة أو كل نبت كذلك، المصدر نفسه، ج2، ص407، باب الراء، مادة (ر و ح).

* تزهو: الزهو: المنظر الحسن و النبات الناضر، "ترتيب القاموس المحيط"، ج2 ص488، باب الزاي، مادة (ز ه و).

* نعمان: شقائق النعمان نبات أحمر يشبه الدّم، "لسان العرب"،ج10،ص588، حرف الميم،فصل النون،مادّة (ن ع م)

3- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص561 .

يصف الشّاعر روضة مرّ بها وهي خضراء ذات أشجار وأنهار، ثمارها سهلة المأخذ والمنال؛ دانية، كأنها جنّة روح وريحان؛ هواءها نسيم منعش وطيّب، فيها راحة وطمأنينة تزهو بورد أبيض اللّون وآخر برّيّ أحمر، منظرها يبهج ويريح النّـاظر.

1- وصف طبيعة تلمسان :

وللثّغريّ كذلك أبيات يصف فيها مدينة تلمسان فقال: (كامل تامّ)

تَاهَتْ تِلِمْسَــانُ بِدَوْلَتِهِ عَلَى   كُلِّ البِلاَدِ بِحُسْنِ مَنْظَرِهَا الجَـلِي
رَاقَتْ مَحَاسِنُهَا وَرَقَّ نَسِيمُهَا   فَحَلاَ بِهَا شِعْرِي وَطَابَ تَغَزُّلِي
عَرِّجْ بِمُنْعَرِجَاتِ بَابِ جِيَادِهَا   وَافْتَحْ بِهِ بَابَ الرَّجَـاءِ المُقْفَـلِ[1]

الشّاعر في هذه الأبيات يتباهى بمدينة تلمسان؛ منظرها الواضح الجليّ البهي لكلّ من رآها، ونسيمها المنعش لكلّ من استنشقه، لأجل هذا وغيره، نظم الشّاعر فيها مقطعا فطاب تغزّله بها، وذكر أحد أبوابها المشهورة وهي : باب الجيَاد ، ثمّ وجّه نصحه لمن ضاق به أمر أن يقصد أهل هذا الباب فإنّهم كرماء يجودون للمحتاج وستجد فيهم الخير الكثير ويُذهب الله بهم الغمّ والهمّ والحزن، وهو بهذه الأبيات يصف ربيع تلمسان الزّاهر وأهلها.

2- وصف طبيعة فـــاس :

"ولأبي المكارم منديل[2] ابن آجروم الشّهير صاحب المقدّمة الآجروميّة قصيدة في هذا المنحى وافقت قصيدة الثّغري في البحر وبعض المطلع فلا ندري أيّهما نسج على منوال الآخر إذ هما متعاصران، إلاّ أنّ ذاك قالها في تلمسان، وهذا في مدينة فاس"[3]، حيث قال وهو يصف ربيعها : (خفيف تامّ)

أَيُّـهَا العَـارِفُونَ قَـدْرَ الصَّبُوحِ*   جَـدِّدُوا أُنْسَـنَا بِبَـابِ الفُتُــوحِ
جَـدِّدُوا ثُمَّ أُنْسَـــنَا ثُمَّ جِـدُّوا   يَسْرَحُ الطَّرْفُ فِي مَجَالٍ فَسِيحِ

1- بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، م1، ص14.

2- أبو المكارم منديل، مُحَمَّد بن داود الصنهاجي، ابن النحوي المشهور ابن آجروم، تلقى العلم على أثير الدين أبي حيان و الشيخ الخطيب أبي عبد الله القطان، و قاضي الجماعة في تونس أبي عبد الله المنستيري، توفي سنة 741هـ، كان رحمه الله مقرئا للقرآن و لغويا و نحويا و فقيها، و كان يقرئ مقامات الحريري، (تاريخ الأدب العربي، ج6، ص496).

3- نفح الطيب، ج7، ص123،124.

* الصّبوح: كل ما أُكل أو شرب غدوة،"لسان العرب"، ج2، ص503، حرف الحاء، فصل الصاد، مادة (ص ب ح).

حَيْثُ شَابَتْ مَفَارِقُ* اللَّوْزِ نُورًا   وَ تَسَاقَطْـنَ كَاللُّجَـيْنِ* الصَّـرِيحِ
وَبَدَا مِنْـهُ كُلُّ مَـا اِحْمَـرَّ يَحْكِي   شَفَقًا* مَزَّقَــتْهُ أَيْـدِي الرِّيــحِ
وَكَأَنَّ الَّـذِي تَسَــاقَطَ مِــنْهُ   نُقَطُ لَحْــنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُــوحِ* (1)

الشّاعر استهلّ قصيدته بنداء العارفين بقدر الصّبوح يخاطبهم ويقول لهم استأنسوا بباب الفتوح وجدّدوا أنسكم فيه؛ إذ هو باب من أبواب فاس، كما أنّ باب الجياد في كلام الثغرى من أبواب تلمســان، وبعد هذا الافتتاح يجدّد الدّعوة مرّة أخرى إلى الأنس ويقول: جِدّوا بالفسحة وستبصرون بطرفكم وأعينكم أمورا كثيرة تبهجكم وتسرّكم في هذا المكان الواسع الفسيح، وقد ظهرت فيه أزهار اللّوز البيضاء التي تنير المكان، وهي في آخر أيّـامها تتساقط كأنّها فضّـة تزيّـن الأرض الواسعة، وبدا من هذه الأشجار ثمرة اللّوز فنضجت حتّى صارت محمرّة فلمّا هبّت عليه الرّيح تساقط أرضا حتّى بدا وكأنّه دم مسفوح عليها ومُهْرَق إلى أن قال وهو يصف نهرًا :

ثُمَّ حُطُّوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْـرٍ   كَلَّ* فِي وَصْفِهِ لِسَـانُ الـمَدِيحِ
فَوْقَ حَافَاتِهِ حَدَائِقُ خُضْرٌ   لَيْسَ عَنْهَا لِعَاشِـقٍ مِنْ نُزُوحِ*
وَكَأَنَّ الطُّيُورَ فِيهَا قِيَـــانٌ*   هَتَفَتْ* بَـيْنَ أَعْجَمٍ وَ فَصِيحِ
وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قُبَّةِ الجَــوْ   زِ هَلُمُّــوا إِلَى مَكَـانٍ مَلِيـحِ (2)

* مفارق: مفارق الطريق و مفرقه: متشعبه الذي يتشعب منه آخر، و قولهم للمفرق مفارق كأنهم جعلوا كل موضع منه مفرقا فجمعوه على ذلك، المصدر نفسه، ج10، ص301، حرف القاف، فصل الفاء، مادة (ف ر ق).
* اللجين: الفضة،"كتاب العين مرتبا على حروف المعجم"، ج4، ص72، حرف اللام، مادة (ل ج ن).
* شفقا: رحمة و رقة و خوفا من حلول المكروه به. "أساس البلاغة"، ج1، ص498، باب الشين، مادة (ش ف ق).
* مسفوح: سفح الدم أراقه،"القاموس المحيط"، ص224، حرف السين، مادة (س ف ح).
1- نفح الطيب، ج7، ص124/123.
* كلّ: كلّ بعيره: أعياه، المصدر نفسه، ص1054، حرف الكاف، مادة (ك ل ل).
* نزوح: نزحا و نزوحا: بَعُدَ، المصدر نفسه، ص244، حرف النون، مادة (ن ز ح).
* قيان: قان القين: الحديد يقينه: سواه، المصدر نفسه، ص1226، حرف القاف، مادة (ق ي ن).
* هتفت: الحمامة تهتف: صاتت و به هُتافا بالضّم صاح، المصدر نفسه، ص861، حرف الهاء، مادة (هـ ت ف).
2- نفح الطيب، ج7، ص124.

الشّاعر في هذه الأبيات ينبّه النّاس ويدعوهم إلى وضع رحـالهم بجانب نهر يجري تعبت ألسنة المادحين من وصفه لجماله؛ في حافاته حدائق خضر، النّاظر إليه لا يملّ ولا يكلّ طيوره تهتف وتزغرد زغاريد يعرف السّامعون بعضها ويجهلون البعض الآخر كأنّها تدعوهم إلى مكان يقع فيه شجر الجوز ليستظلّوا بظلّه ويأكلوا من ثمره، فهو مكان جميل يليق بالزّائر لكي يستريح ويفرح ويبتهج .

ج- وصف فتى سرّاج :

وقال ابن الفخار الجذامي يوما يصف فتى سرّاج وسيم يرقم جلدا : (وافر تامّ)

وَرُبَّ مُعَـذِّرٍ* فِي الحُـــبِّ دَاعٍ   يَرُوقُ بَهَاءُ مَـنْظَـرِهِ البَهِيجِ

وَشَى* فِي وَجْنَتَيْهِ* الحُسْـنُ وَشْـيًا   كَوَشْيِ يَدَيْهِ فِي أُدُمِ* السُّرُوجِ[1] .

فالشّاعر في هذه الأبيات يعتذر بغير عذر فهو المعذر لحبّ فتى رآه فأعجبه منظره إذ كانت له وجنتان وكأنّهما مزخرفتان منقوشتان كالسّرْج الذي كان بين يديه وهو يجمّله ويزخرفه، فشبّه الشّاعر جمال وجنتي الفتى بجمال السّرج المزخرف .

د- وصف الخمر :

لأبي حيّان الغرناطي أبيات من موشّحة يصف فيها الخمر والظّاهر أنّ ذلك كان في الفترة الأخيرة لدولة بني الأحمر، حيث كثر الفجور والمجون وإلى الدّنيا كان الرّكـــون، حتّى تسلّط الأعداء من كلّ جـانب، قال فيها : (البسيط المجزوء).

إِنْ كَانَ لَيْلٌ دَاجْ*   وَخَانَنَا الإِصْبَاحْ   فَنُورُهَا الوَهَّـاجْ   يُغْنِي عَنِ المِصْبَاحْ

---

* معذر: غير محق فالمعنى المقصرون بغير عذر،"مختار القاموس"، مرتب على طريقة الصحاح و المصباح المنير، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، دت، ص412، حرف العين، مادة (ع ذ ر).

* وشى: (الثوب) وشيا و وشية: حسنه، وشاه نمنمه و نقشه و حسنه، لسان العرب، ج15، ص392، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الواو، مادة (و ش ي).

* الوجنة: ما ارتفع من الخدين للشدق و المحجر، المصدر نفسه، ج13، ص443 ، فصل الواو، مادة (و ج ن).

* أدم: الأدمة: الموافقة، و الأدم: الألفة و الاتفاق، المصدر نفسه، ج12، ص8، حرف الميم، فصل الهمزة، مادة (أ د م).

1- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ص71.

* داج: الدجة: شدّة الظلمة، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم،ج2، ص7،باب الدال، مادة (د ج ج).

سُـلاَفَةٌ* تَبْـــدُو كَالكَوْكَبِ الأَزْهَــرْ

مِـزَاجُهَا شَـهْـدٌ* وَرِيحُـــهَا عَنْـــبَرْ

يَا حَبَّذَا الــوِرْدُ مِـنْـهُ وَإِنْ أَسْـكَرْ

قَلْبِي بِهَا قَدْ هَـاجْ فَمَا يَــرَانِي صَاحْ عَنْ ذَلِكَ المنهَاجْ عَنَّ هَـوًى يَا صَاحْ

وَبِي رَشَـا* أَهْيَفْ* قَـدْ لَجَّ فِي بُعْدِي

بَدْرٌ فَلاَ يَخْسَفْ مِنْـهُ سَنَا الجَـــدِّ

بِلَحْظَـةِ المُرْهَفْ* يَسْطُو عَلَى الأُسْـدِ

كَسَطْوَةِ الحَجَّاجْ* فِي النَّاسِ وَالسَّفَّاحْ* فَمَا تَرَى مِنْ نَـاجْ مِنْ لَحْظَةِ الشَّنَاحْ(1)

تنسب هذه الأبيات إلى الشّاعر في وصف الخمر إذ يقول : إن كان اللّيل شديد الظّلمة ولم يطلع الصّبح في وقته و أوانه، فضوء الخمر أي نشوته ستضيئ لنا و هو يغني عن المصباح فهي ككوكب الزّهراء، حلوة في ذوقها عنبرة في ريحها كأنّها ورد، تفتن القلب وقد هاج بها وطمع في شربها وإن أسكرته، وكذا حبّي في غزال نحيل القدّ أصرّ على الهروب والابتعاد، وهو كالبدر في عيني فلا يخسف ويختفي؛ بل وقعت في سطوته بلحظ

---

* سلافة: كل شيء خلاصته و السلافة من الخمر أفضلها يتحلب من غير عصر و لا مرث، المصدر نفسه، ج2 ص266/265، باب السين، مادة (س ل ف).

* شهد: الشَهد و الشُهد: العسل،"قطر المحيط"، ج1، ص1085، باب الشين، مادة (ش ه د).

* الرشا: ولد الظبي كما جاء في مثلث قطرب حيث قال: و ولد الظبي يسمى بالرّشا، منظومة في شرح مثلثات قطرب الشيخ عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، تحقيق: د وليد عبد الله المنيس، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1428هـ/2007م، ص43/42، المثلث الرابع و الثلاثون.

* أهيف: الهيف جمع أهيف وهيفاء وهو الضامر البطن، لسان العرب، ج9،ص352،حرف الفاء، (ه ي ف).

* رهف: الرّهف مصدر الشّيء الرّهيف و هو اللّطيف الرّقيق، و أرهفت سيفي أي رققته فهو مرهف، المصدر نفسه ج9، ص128، حرف الفاء، فصل الراء، مادة (ر ه ف).

* الحجّاج بن يوسف الثّقفي، كان واليا على أهل العراق في عهد الدولة الأمويّة سنة 75هـ، كان معروفا بقسوته و شهامته، (ينظر: البداية و النّهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط8، 1410هـ/1990م، ج9، ص7.

* السّفاح: أبو العباس السفاح الخليفة العباسي الأوّل، قتل خلقا كثيرا من الأمويّين بقسوة و غدر.

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص429.

عينه الفاتك الفاتن الفاتر، كما وقع غيري في قبضة الحجّاج بن يوسف الثّقفي والمنصور السفّاح العبّاسي فلم ينج منهما إلا من شاء الله له النّجاة، فالغزال لا شكّ أنّه لجماله وبهائه فتن الشّاعر به ووقع أسيرا في حبّه فقُيّد وغُلب ولم يفلت منه ، كما لم يَغْلب من وقع في قبضة الحجّاج أو المنصور السّفاح ولم يفلت .

ه- وصف الانتصارات عند المسلمين :

إنّ الوصف في هذه الفترة لم يكن مقتصرا على الطّبيعة والمدن والخمر فحسب بل تعدّى ذلك إلى وصف الانتصارات عند المسلمين و المعارك، كان هذا في بلاد الأندلس خاصّة والذين سعوا منذ البداية إلى استعادة بلاد أجدادهم من أيدي النّصارى، فأعدّوا لهم ما استطاعوا من القوّة لدحض عدوّهم، وفي هذا قال الشّعراء قصائد يصفون فيها هذه المعارك، وانتصارات المسلمين على أعدائهم النّصارى ليُعلوا بها الهمم والمعنويّات، فتعود أراضي المسلمين إليهم والإرث إلى مواليه [(1)].

ومن وصف الانتصارات ما قاله ابن زمرك يشيد بشجاعة المقاتل الأندلسيّ وبراعته أثناء المعارك والبطولات التي يقوم بها أثناء القتال، ومن أولئك المحاربين الذين برعوا في القتال الأميران سعد ونصر فقال فيهما [(2)] :(كامل تامّ)

يا آلَ نَصْرٍ أَنْتُمُ سُرُجُ الهُدَى ... فِي كُلِّ خَطْبٍ قَدْ تَهَجَّمَ مُظْلِمِ
الفَاتِحُونَ لِكُلِّ صَعْبٍ مُقْفَلِ ... وَ الفَارِجُونَ لِكُلِّ خَطْبٍ مُبْهَمِ
الباسِمُونَ إِذَا الكُمَاةُ عَوَابِسٌ ... وَالمُقْدِمُونَ عَلَى السَّوَادِ الأَعْظَمِ
أَبْنَاءُ أَنْصَارِ النَّبِيّ وَ حِزْبِهِ ... وَ ذَوِي السَّوَابِقِ وَ الجِوارِ الأَعْصمِ

فالشّاعر في هذه الأبيات ربط بطولات آل نصر بأمجاد الصّحابة الكرام الذين نصروا هذا الدّين ووقفوا مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في السرّاء والضرّاء، فوصفهم الشّاعر بأنّهم أنصارالنّبي ﷺ بحكم أنّ الأندلس أرض المسلمين ولابدّ من مجابهة الأعداء وردعهم عن بغيهم

1- ينظر: شعر الحروب و الفتن في الأندلس (عصر بني الأحمر)، رانية أحمد إبراهيم أبو لبدة، إشراف وائل أبو صالح 2007م، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين، ص87.

2- ديوان ابن زمرك الأندلسي، مُحَمَّد بن يوسف القريحي، حققه: مُحَمَّد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي لبنان،1997م ص 485.

ثـــمّ قـــــال :

سَلْ عَنْهُمُ أُحُـــــدًا وبَدْرًا تُلْفِهِـمْ أَهْلَ الغَنَاءِ بِهِ وأَهْلَ المَغْــــــنَمِ
أَقسمْتُ بِالحَرَمِ الأَمِينِ وَمَـــــكَّةٍ وَ الرُّكْنِ وَالبَيْتِ العَتيقِ وَ زَمْـزَمِ
لَوْلاَ مَآثِرُهـُـمْ وَفَضْلُ عُلاَهُــــــمُ مَا كَـــانَ يُعْزَى الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ
مَاذَا عَسَـى أُثْنِي وَقَدْ أَثْنَـتْ عَلَى عَلْيَائِهِمْ آيُ الكِـتَابِ المُــحْكَـــمِ[1]

فالشّاعر هنا يبيّن لنا مدى عمق الإيمان عند آل نصر، وقدرتهم على إخوانهم المسلمين فهذه الأبيات تصوّر لنا آل نصر حين شبّههم بالمسلمين الذين ناصروا الرّسول عليه الصّلاة والسّلام يوم أحـد، فأراد الشّاعر أن يطهّر الأندلس من أنجاس النّصارى فذكر الضّدّ وهي البقاع المقدّسـة؛ الحرم المدني ومكّة المكرّمة والرّكن اليماني والبيت العتيق؛ الكعبة وزمزم الذي هو أطهر ماء على وجه المعمورة وهو بهذا يريد من آل نصر أن يحققوا هذا الأمل والرّجاء بجهادهم ضدّ عـــــدوّهم.

وللسان الدّين ابن الخطيب أبيات يصف فيها انتصارا حقّقه يوسف بن اسماعيل بن نصر على الرّوم قرب ديارهم، فقال : (الطّويل)

هُوَ النَّصْرُ بَادٍ وَلِلعُيُونِ صَبَـاحُـهْ فَمَا عُذْرُ صَـدْرٍ لَيْسَ يَبْدُو اِنْشِرَاحُهْ
حَدِيثٌ تَهَادَاهُ الرَّكَائِبُ فِي السُّرَى وَتَجْلَّى عَلَى رَاحِ المَـسَـــرَّةِ رَاحُـهُ
وَآيَةُ بُشْرَى هَزَّ مِعْطَـفَـهُ الهُـدَى لَهَا وَتَبَـدَّى* لِلــزَّمَـانِ اِرْتِيَـــاحُــهْ
وَأَصْبَحَ دِينُ اللّهِ قَـدْ عَـزَّ جَارُهُ بِمَوْقِعِهِ وَالكُفْــرُ هِيضَ* جَنَـاحُـهْ[2]

فالشّاعر يظهر في هذه أبيات مسرّته بالنّصر وفرحته به فهو يريد أن يظهره للآخرين ويقول لهم إنّ نصرنا على الأعداء ظاهر كانجلاء الصّباح فهو لا يحتاج إلى دليل وبرهان وإيضاح وبيان، هـو كالبشرى انتشر خبره بين النّاس فسجّل التّاريخ هذا الانتصار وخلّده

1- ديوان ابن زمرك الأندلسي، ص485.

* تَبَدَّى: ظهر، "لسان العرب"، ج14، ص65، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الباء، مادة (ب د ا).

* هيض: هاض الشّيء هيضا، كسره، المصدر نفسه، ج7، ص249، حرف الضاد، فصل الهاء، مادة (ه ي ض).

2- ديوان لسان الدّين بن الخطيب السّلماني، صنعه وحقّقه وقدّم له : محمّد مفتاح، دار الثّقافة للنّشر، 1989،1409، ج1 ،ص219.

في سجلّ انتصارات الإسلام، كما سجّل انتصارات بدر وأحد و غيرها من الغزوات والحروب التي خاضها الصّحابة ضدّ الكفـار وبهذا أصبح دين الله في الأندلس عزيزا كريما وانكسر معسكر الكفّار وضعف .

و- وصف الهزائـــم التي حلّت بالمسلمين :

إذا كان الشّعراء الأندلسيّون وصفوا الانتصارات، فلم يخل شعرهم من وصف الهزائم خاصّة في أيام الأنـــدلس الأخيرة فقد كثرت وهبّ الشّعراء ينظمون القصائد لإحياء سنّة النّصر ودعوة النّاس إلى الجهـاد، فصاروا يصفون الهزائم حتّى يعرف النّاس خطرها فيتحركوا من كلّ فجّ لنصرة إخـــوانهم الأندلسيّين عسى الله أن يأتي بأمر من عنده، فيفرح المسلمون يومئذ بنصر الله، فهذا كما يسمّيه العلماء جهـاد العلم و القلم، ومن الذين نظموا في هذا الوصف من هذا القرن لسان الدّين ابن الخطيب فقـال :(الطّويل)

فَقُومُوا بِرَسْمِ الحَقِّ فيها فَقَدْ عَفَـــا   وَ هُبُّوا لِنَصْرِ الدِّينِ فِيهَا فَقَدْ أَشْفَى

وَهَـا نَحْـنُ قَـــدْ لُذْنَا بِعِـــزِّ حِمَاكُمُ   وَ نَسْأَلْ مِنَ اللهِ الإِدَالَـةِ*وَاللُّطْفَـا[1]

إنّ الشّاعر قد استخدم فعلين هما: (قوموا وهبّوا) وهي دلالة واضحة وجليّة على انكسار شوكة المسلمين في الأندلس فبان ضعفهم، وظهرت نفسيته من خلال البيت الأوّل فهي نفسية متألّمة لما يحصل للمسلمين في بلاد الأندلس من ذلّ وضعف والحقيقة أنّه يستنفرهم و يرجو من الله النصر على الأعـداء واللّطف .

وقال لسان الدّين أيضا ردّا على رسالة أبي الرّبيع بعد موقعة طريف[2]:(كامل تامّ)

لاَ كَانَ يَوْمُكِ يَا طَرِيفُ فطَالَمَـــا   أَطْلَعَتِ لِلْآمَـــالِ بَرْقًا خُلَّبَـــا*

وَرَمَيْتِ دِيـــنَ اللّهِ منكِ بِـفَـادِحٍ   عَـمَّ البَسِيطَةَ مَشْرِقًا أَوْ مَغْـــرِبَا

---

* الإدالة: الغلبة، يقال أديل لنا على أعدائنا أي نصرنا عليهم، المصدر نفسه، ج11،ص252، حرف اللاّم مادة (د و ل).

1- ديوان لسان الدين ابن الخطيب،ج2 ،ص679.

2- وقعت هذه المعركة في الأندلس ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من عام 741هـ، انهزم فيها المسلمون، ينظر "التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة"، عبد الرحمن علي حجي، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2 1402هـ/1981م، ص547/546).

*خلّبا: المخلب الكثير الوشي من الثّياب أي كثير الألوان،لسان العرب،ج1،ص366/365، حرف الباء مادة (خ ل ب).

وَخَصَــصْتِنِي بِالرُّزْءِ*وَالثّكْلِ*الَّذِي أَوْهَى القُوَى مِـنِّي وَهَـدَّ الـمَنْـكِبَا

لاَ حُسْـــــنَ لِلدُّنْيَا لَدَيَّ وَلاَ أَرَى فِي العَيْشِ بَعْدَ أَبِي وَصِنْوِي*مَـأْرَبَا[1]

إنّ هذه الأبيات التي نظمها الشّاعر تدلّ على قلقه وتحسّره إزاء ما وقع في معركة طريف، فالشّاعر استعمل ألفاظا تدلّ على الإحباط مثل: (الرّزء الثكل، خلّبا) فمصيبة الهزيمة كانت عظيمة هدّت أوصال جميع القوى حتّى أصيب الشّاعر بهذا الهـدّ فضلا عن كونها شاملة قضت على الحنيفية في هذه الأرض، وعلى أمل المرء في المستقبل.

فما نلاحظه في هذه الأبيات التي كانت أنموذجــا على وصف الانتصارات والهزائم أنّ الشّعراء وصفوا لنا ما حدث في هذه المعارك ،فشجّعوا ومدحوا من كان سببا في النّصر وأحيوا الهمم، وبالغوا في ذلك كي يوصلوا رسالاتهم إلى الملوك والسّلاطين حتّى لا تكون الهزائم أكثر وأكبر، فجاهدوا بأقلامهم ليدفعوا صولة العدوّ الجائر إذ أنّ هذا النّوع من الوصف برز جليّا في الأنـدلس وبعض دول المغرب كدولة الزّيانيّيــن وغيرها.

3- الزّهد والتّصوّف:

إنّ مما لا شكّ فيه أنّ الخطاب الشّعري الزّهدي يصطبغ بصبغة دينية لاتّسامه بطابع التأثّر والتّبصّر في أثناء العودة إلى الله تعالى والرّكون إليه والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها والزّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه[2].

وممّا لا ريب فيه، أنّ شعراء المغرب عموما لم يستغنوا بالجهد التّنظيري في مجال الزّهـد والتّصوّف، بل وظّفوا ذلك في المجال الأدبي، فعبّروا عن تجربتهم الدّينيّة والأخلاقيّة مستفيدين من تجارب السّـابقين من أهل المشرق، وقد اكتسى طابعا فطريـا يكمن بسرّه

* الرّزء: المصيبة بفقد الأعزة و هو من الانتقاص، المصدر السّابق، ج1،ص86، حرف الهمزة، مادة (رزأ).

* الثّكل: فقدان الحبيب، المصدر نفسه، ج11، ص88، حرف اللام، فصل الثاء، مادة (ث ك ل).

* صنوي: الصنو الأخ الشقيق و العم و الابن، قال أبو عبيد: معناه أن أصلهما واحد،"لسان العرب"، ج14، ص470 حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الصاد، مادة (ص ن و).

1- ديوان لسان الدين ابن الخطيب،ج1 ص107 .

2- ينظر: مقدّمة ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد، حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار البلخي، دمشق، 1425هـ/2004م، ج2، ص225.

بادئ ذي بدء في مدى استعدادهم الفطري وتقبلهم الذّاتي لهذا الفنّ[1]،إذ سارت رسالتهم في هذه الحياة، فهو خلاصة عمر حافل بالتّقلبات مليء بالممارسات الصّحيحة والخاطئة جميعا، ولا يرى بجانبه إلاّ نفسا لوّامة تحثّه على الإنـابة إلى الخالق العليم الخبير[2].

وممّن نظم في الزّهـد والانصراف عن الدّنيا أبو جعفر ابن الزّبيـــر فقال[3]:(السّريع التّام)

مَـــالِي وَلِلتَّـــسْآلِ لاَ أُمَّ لِي إِنْ سَلْتُ مَنْ يُعْزَلُ أَوْ مَنْ يَلِي ؟

حَسْبِي ذُنُوبِي أَثْقَلَتْ كَاهِلِي* مَـا إِنْ أَرَى غَمَّـــاءَهَا* تَنْـجَلِي*[4]

"يتساءل الشّاعر ويتعجّب فيقول : لا أمّ لي وهو تعبير يستعمل للذمّ والسبّ قد يستعمل في المدح على سبيل التعجّب وفي الأصل الوالدة، و هي أيضا الشّـــأن والأمر والقصد، لا أمّ لي هنا ، ثكلتني أمّي، يدعو على نفسه بالموت أو لا شأن لي بمثل هذا الأمر؟"[5]، إن سَلْت أي سألْت عمّن يعزل عن الحكم أو يتولّاه ؟ ويكون له ؟ وفي البيت الثاني يتواضع العالم ويشكي ذنوبه التي أثقلت كاهله فهو يرجو المغفرة من الله حتّى تنفرج عنه هذه الكربة وتنجلي، وهذا ديدن الزهّـــاد والصّالحين.

1- التّجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، مُحَمَّد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر، 2009م، ص10.

2- الخطاب الشّعري عند فقهاء المغرب العربي، مُحَمَّد مرتاض،دار الأوطان، الجزائر،ط2009،1م،ص44.

3- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن الحسن عاصم بن كعب الجياني، ولد سنة 627هـ، في أسرة غنية معروفة في جيان، ثم انتقل إلى فاس سنة 645هـ، و درس فيها و تصدر لإقراء كتاب الله و الفقه و العربية في جيان، ثم في مالقة، توفي رحمه الله في غرناطة في الثامن من ربيع الأول سنة 708هـ، الموافق لـ 1308/08/27م. ينظر: "تاريخ الأدب العربي"، ج6، ص359/358 .

* الكاهل: من الإنسان ما بين كتفيه،" لسان العرب"، ج11، ص602، حرف اللام، فصل الكاف، مادة (ك ه ل).

* غماؤها: الغم و الغمة: الكرب، المصدر نفسه، ج12، ص441، حرف الميم، فصل الغين، مادة (غ م م).

* تنجلي: انجلى عنه الهم: انكشف، المصدر نفسه، ج14، ص152، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الجيم، مادة (ج ل ا).

4- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص360 .

5- المصدر نفسه، ج6، ص360 .

ومن الذين نظموا أيضا في الزّهد والتّصوّف أبو جعفر ابن زيّان الكلاعيّ[1] فقال:(الكامل)

دَعْنِي عَلَى حُكْمِ الهَـوَى أَتَـضَـرَّعُ* فَعَسَى يَلِينُ* لِيَ الحَبِيبُ* وَيَخْشَعُ
إِنِّي وَجَدْتُ أَخَا التَضَـرُّعِ فَائِـــزًا بِمُرَادِهِ وَمِنَ الدُّعَـــا مَا يُسْـمَـعُ
وَاهًـا* وَمَـا شَيْءٌ بِـأَنْـفَعَ لِلْفَـتَــى مِنْ أَنْ يَذِلَّ عَسَى التَّذَلُّـلُ يَنْـفَـعُ
فَأْمْـحُ اِسْمَ نَفْسِـكَ طَالِبًا إِثْبَـــاتَهُ وَ اِقْـنَعْ بِـتَفْرِيقٍ لَعَـلَّـكَ تَـجْمَعُ
وَاِخْضَعْ فَمِنْ أَدَبِ المُحِبِّ خُضُوعُـهُ وَ لَرُبَّـمَا نَـالَ المُـنَى مَنْ يَخْضَعُ[2]

الشّاعر يقول أنّ نفسي تبغي الإله وترجو رحمته وتتضرّع له عسى أن يستجيب ويقبل توبتي وأوبتي، ومن يتضرّع للإله ويدعوه فسيفوز بما يريده ويرجوه، إذ التّذلّل للخالق ينفع صاحبه وهو من أنفع العبادات والقربات فاجعل نفسك ذليلة أمام الإله الواحد الأحد وتضرّع له عسى أن تدخل جنّته وتفوز برؤيته، فالخضوع والخشوع لله الواحد الأحـد سبيل إلى رضوانه ونيل جنـانه.

ومن الذين نظموا في الزّهد والتّصوّف نجد مُحَمَّد بن أحمد بن جزّي[3] ، فقال[4]:(الطويل)

أَيَا مَنْ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ تَعَفُّفَـا وَ فِي النَّفْسِ مِنْ شَوْقِي إِلَيْهِ لَهِيبُ (غرام)

1- أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي الكلاعي المعروف بابن الزيات، من أهل بلش مالقة، كان صوفيا يعرب لفظه إذا تكلم، خطيب عصره، إذا نطق سحبان، له عدة تصانيف، كان يتدفق بالشّعر تدفّق البحر، توفي ببلش سنة 728ه. ينظر:" الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة "، ص34 .

* أتضرع: تضرع تذلّل و تخشّع، لسان العرب، ج8، ص221، حرف العين، فصل الضاد، مادة(ض ر ع).

* يلين: لا تليق في هذا المقام، فالواجب تعظيم الله عز و جل و إجلاله.

* الحبيب: هنا هو الله تعالى في المدرك الصّوفي، و يمكن أن تعني عندهم الرّسول صلى الله عليه و سلم.

* واها: الآهة: التحزن، وأصل الهمزة واو وترجم ابن كثير واه، المصدر نفسه،ج13، ص476، حرف الهاء، فصل الهمزة مادة (أ ه ه).

2- المصدر السّابق، ص36.

3- أبو القاسم مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي الأندلسي، ولد في التّاسع من ربيع الآخر من سنة 693ه، الموافق لـ 1264/03/10م بغرناطة وكان خطيب المسجد الأعظم، كانت وفاته يوم الاثنين شهيدا في وقعة طريف(معركة نهر سالادو) و هو يحرض الناس على جهاد المعتدين الإسبان في سابع جمادى الأولى سنة 741ه (ينظر:"الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة"، ابن حجر العسقلاني، ج3، ص356،"تاريخ الأدب العربي" ج6، ص470/469).

4- نفح الطيب،ج5، ص517.

أَلاَ إِنَّمَا صَبْرِي كَصَبْرٍ* وإِنَّمَا عَلَى النَّفْسِ مِنْ تَقْوَى الإِلَهِ رَقِيبُ (لجام)

في هذه الأبيات يخاطب الشّاعر نفسه التي كفّها تعفّفا وتدينا على فعل الحرام وإن كان فيها ما يدعو إليه وبشدّة ولكن صبره عليه واقع في نفسه وبمرارة، وما كان ذلك إلاّ خوفا من الله وتقوى له فهو العليم الرّقيب.

وللطّويجن الساحلي[1] أبيات في التّصوف حيث قال فيها : (طويل)

دَعِ العَيْنَ تُذْرِي* الدَّمْعَ فِي طَلَلِ الرَّبْعِ* فَلَيْسَ حَرَامًا أَنْ أُرِيقَ بِهِ دَمْعِي

وَحَدِّثْ عَنْ القَوْمِ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ أَحَلُّوا بِنَجْدٍ أَمْ أَقَامُوا عَلَى سَلْعِ*

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ فَازَ طَرْفِي بِنَظْرَةٍ إِلَيْهِمْ فَحَسْبِي أَنْ يَفُوزَ بِهِمْ سَمْعِي[2]

فالشّاعر يستهل قصيدته وهو حزين يريد أن يذرف دموعه على الأيّام التي مضت والقوم الذين عهدهم لا يدري أنزلوا نجدا أم أقاموا بسلع، فهو لم يرهم مذ مدّة طويلة ولو للحظة، فحسبه أن يسمع صوتهم ولو لمرّة؛ وهو بهذا يشتاق إلى لقاء الأحبّة والصّالحين والزهّاد من أمثاله يوم العرض الأكبر في جنّات وعيون تجري من تحتها الأنهار ،فالشّاعر كنّى ببعض العبارات وأراد المعنى البعيد.

ومن الذين قالوا في الوعظ والتّذكرة والاعتبار والابتهال أبو بكر ابن شيرين[3]:(كامل)

---

* صَبِرٍ: قال أبو عبيدة في كتاب اللبن: الممقّر و المصبّر: الشّديد الحموضة إلى المرارة، قال أبو حاتم: اشتقّا من الصّبر و المقر، و هما مرّان،"لسان العرب"،ج4،ص443،حرف الرّاء، فصل الصاد، مادة: (ص ب ر).

1- أبو إسحاق إبراهيم بن مُحمّد الساحلي الأنصاري نسبة إلى جده لأمه، المشهور بالطويجن من أهل غرناطة، نشأ فيها و تعلم العلم فيها ثم أصبح موثقا كاتبا عدلا، كان كثير الرحلة، خاصة إلى السودان، أدركته المنية في 27 جمادى الآخرة 747هـ، الموافق 1346/10/16م، كان رحمه الله ناظما و ناثرا قديرا (ينظر: نفح الطيب ج2، ص194).

* تذري: أذرت العين الدمع أي صبته،"لسان العرب"، ج14، ص284، حرف الواو و الياء من المعتل، مادّة (ذ ر ا).

* الربع: الدّار و المنزل بعينها، المصدر نفسه، ج8، ص102، حرف العين، فصل الراء، مادة (ر ب ع).

* سلع: نبات و قيل شجر مرّ، المصدر نفسه، ج8، ص161، حرف العين، فصل السين، مادة (س ل ع).

2- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ص237.

3- مُحمّد بن أحمد بن مُحمّد بن أحمد الجذامي المعروف بابن شيرين، ولد بمدينة سبتة، التي انتقل إليها أبوه بعد سقوط إشبيلية. تولى الكتابة السلطانية في غرناطة ثم تولى منصب القضاء بكثير من الجهات بالأندلس. كان يقول الشعر. توفي في اليوم الثالث من شعبان عام 747هـ، (ينظر: أوصاف النّاس في التّواريخ والصلات، تليها الزواجر والعظات

ظَعَنَ* الصِّبَا* وَ مِنَ الـمُـحَالِ قُفُولُهُ* إِنْ كُنْتَ بَـــاكِيَهُ فَتِـلْكَ طُلُولُهُ*

....

مَا كَانَ مَـاضِي العَيْـشِ إِلاَّ خَطْــرَةً* خَطَرَتْ وَ وَقْتٌ قَدْ تَـتَابَعَ جِيلُهُ

ضَيَّعْتَ فِي طَلَبِ الفُضُــولِ بُكُـورَهُ لَكِـــنْ نَدِمْتَ وَقَدْ أَتَاكَ أَصِيلُهُ*

دَعْ عَنْكَ تَذْكَـارَ الصِّبَـا إِنَّ الصِّبَا رَسْـــمٌ يَهِيجُ لَكَ الغَرَامَ مَحِيلُهُ*

يَا مَفْرِقًا* نَـــزَلَ المَشِيبُ بِـهِ اتَّـئِـدْ* فَالــحُرُّ لاَ يُـؤْذَى لَـــدَيْهِ نَزِيلُهُ*

....

أَنَا ذَلِكَ العَبْدُ الظَّلُــومُ لِنَــفْسِـهِ زَلَّـــتْ بِـــهِ قَـدَمٌ وَأَنْتَ مُقِيلُهُ[1]

فالشّاعــر في هذه الأبيات يستهلّ قصيدته ويستفتحها بالكلام عن الشّباب و أنّه قد رحل ولا يرجع، ومن أراد أن يبكي عليه فآثاره باقية فهو يشبّه الجسم بعد أن يفـارقه الشّباب كالطّلل، فالعيش في أيّام الشّباب وغيره مضى وكأنّه خطرة خطرت ببال الإنسان لسرعة انقضائه ومضيّه، وزمن مضى جيله وأتى جيل جديد يعيش هذه المرحلة، وهكذا الدّنيا أيّام تذهب ولا تعود ،فإن ضيّعت الشّباب في القيل والقال وفضول الأعمال ممّا لا

لسان الدين ابن الخطيب السّلماني(713هـ-776هـ) تحقيق مُحَّد كمال شبانة، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التّراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتّحدة،ص37).

* ظعن: ذهب و سار، "لسان العرب"، ج13، ص270، حرف النون، فصل الظاء، مادة (ظ ع ن).

* الصبا: يقال رأيته في صبه أي في صغره،المصدر نفسه، ج14،ص450، حرف الواو والياء من المعتل مادة (ص ب ا).

* قفوله: القفول: الرجوع من السفر، المصدر نفسه،ج11،ص560،حرف اللام، فصل القاف، مادة(ق ف ل).

* طلوله: الطلل: ما شخص من آثار الديار، المصدر نفسه،ج11، ص406، حرف اللام، فصل الطاء، مادة (ط ل ل).

* خطرة: يخطر خطورا، إذا وقع ذلك في بالك و وهمك، المصدر نفسه، حرف الراء، فصل الخاء، مادة (خ ط ر).

* أصيله: الأصيل: العشي،المصدر نفسه، ج11، ص16، حرف اللام، فصل الهمزة، مادة (أ ص ل).

* محيلة: دار محيلة إذا أتت عليها أحوال، المصدر نفسه، ج11، ص184، حرف اللام، فصل الحاء، مادة (ح و ل).

* مفرق: وسط الرأس و هو الذي يفرق فيه الشعر، المصدر نفسه، ج10، ص301، حرف القاف، فصل الفاء، مادة (ف ر ق).

* اتئد: التؤدة: التّأني و التّمهل و الرّزانة، المصدر نفسه، ج3، ص433، حرف الدال، فصل الواو، مادة (و أ د).

* نزيله: النزيل الضيف، المصدر نفسه، ج11، ص658، حرف اللام، فصل النون، مادة (ن ز ل).

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص437/438.

ينفع بل يضرّ، فقد فقدت مرحلة مهمّة من العمر، ثمّ تجيئ الشّيخوخة فلا تضيّعها حتّى لا تفوتك التّوبة فتندم على كلّ الذّنوب التي اقترفتها في حياتك، ولا تشتغل بما قد فات فتضيّع ما هو آت، فإنّ الشّيب لا محالة نازل بك فهو يذكّر العبد بدنوّ أجله وأنّه قد اقترب .

وفي آخر القصيدة يدعو الشّاعر ربّه كي يُقِيل عثرته وزلّته وأنّه عبد ظلوم لنفسه فيستغفر ربّه، وهذا لا شكّ ديدن الصّالحين الأوّابين إلى الله العائدين إليه ففي القصيدة وعظ يرشد به الشّاعر نفسه وغيره وأنّ الدّنيا ستفوت وتمضي ولا يغرنّك طيب العيش فيها فدوام الحال من المحال.

ولابن الجيّاب الغرناطي أيضا أبيات يعظ فيها الناس حتّى لا يخدعوا بالدّهر وهو الزّمن، فيقول : (الطّويل)

أَرَى الدَّهْرَ فِي أَطْوَارِهِ مُتَقَلِّبًا فَلاَ تَـأْمَنَّ الدَّهْرَ يَـوْمًا فَتُخْدَعَـا

فَمَا هُوَ إِلاَّ مِثْلَ مَا قَالَ قَائِلٌ مِـكَرٍ* مِـفَرٍّ* مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًـا[1]

الشّاعر يتكلّم عن الدّهر وهو يتقلّب؛ اليوم خيرٌ وغدا ضدّه ،فهو يخدع صاحبه إذا ائتمنه؛ يمضي بسرعة كسرعة الحصان الذي يكرّ ويفرّ فتنتقل مراحل الإنسان وعمره من طفولته إلى يفوعه ثمّ شبابه وكهولته ثمّ تمضي به إلى الشّيخوخة فأرذل العمر ثمّ ينقضي الدّهر فيمضي الإنسان إلى قبره ثمّ حساب وجزاء.

ولمحمّد بن يوسف الثّغري في الشّيب وحال الدّنيا أبيات، حيث قال:(البسيط التّام)

أَقْصِرْ فَـإِنَّ نَذِيـرَ الشَّيْبِ وَافَـانِي وَأَنْكَرَتْنِي الغَـوَانِي* بَعْدَ عِرْفَـانِي

وَقَـدْ تَمَـادَيْتُ فِي غَيٍّ بِـلاَ رَشَـدٍ وَالنَّفْسُ تَأْمُـرُنِي وَالشَّيْبُ يَنْهَانِي

---

* المكرّ: الهاجم، لسان العرب ، ج6،ص441.

* المفرّ: فرّ يفرّ فرارا: هرب ، المصدر نفسه ، ج5، ص50، حرف الراء، فصل الفاء، مادة (ف ر ر). هذا الشّطر من معلقة امريء القيس و تمتّه : كجلمود صخر حطّ السّيل من عل.

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص441.

* الغواني: الشّواب اللواتي يعجبن الرّجال و يعجبهنّ الشّباب، "لسان العرب"، ج15، ص138، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الغين، مادة (غ ن ا).

فَقُلْتُ لِلنَّفْسِ إِذَ طَالَتْ بِطَالَتُهَا مَهْلاً أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تَخْشَى أَلَمْ يَانِ
كَمْ مِنْ خُطًا فِي الخَطَايَا قَدْ خَطَوْتَ وَلَمْ تُرَاقِبِ اللهَ فِي سِرٍّ وَ إِعْلاَنِ
فَلاَ تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا فَيَا نَدَامَةَ مَنْ يَغْتَرُّ بِالفَانِي[1]

يبتدئ الشّاعر هذه الأبيات فيأمر المخاطب بأن ينتهي عن المعاصي والشّهوات التي حرّمها الله سبحانه وتعالى، فإنّ الشّيب قد ظهر في رأسي وبدأت الحسناوات تهرب مني لأنّي أصبحت كهلا، فإنّي قد تماديت في اللّهو والمعاصي بلا رشد ولاعقل راجح يرشدني إلى الصواب و طريق الحقّ وصراط مستقيم، إنّ النّفس أمّـارة بالسّوء، والشّيب ينهاني عن سوئي وغيّي فهو ينذرني بتقدّم العمر والسنّ، فاعتبر منّي وخاطب نفسك عن كسلها وبطالتها في الخير، فقد يجيئك النّذير كما جاءني فمهلا مهلا عن فعل المنكر والباطل فإنّك إن ضيّعت كثيرا من الوقت وفاتك زمن طويل، فلم تراقب الله عزّ وجلّ لا في سرّ ولا في علن فلا تغترّ بالدّنيا فإنّها فانية وتب إلى المولى فويل لمن يغترّ بالفاني الزّائل، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[الرّحمن:26-27].

ولأبي بكر أحمد بن محمّد جزّي قصيدة نظمها[2] يعظ فيها قائلا: (الطّويل)

أَقُولُ لِعَزْمِي أَوْ لِصَالِحِ أَعْمَالِي أَلاَ عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي
أَمَّا وَاعِظِي شَيْبٌ سَمَا فَوْقَ لِمَّتِي* سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ
أَنَارَ بِهِ لَيْلُ الشَّبَابِ كَأَنَّهُ مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ* لِقُفَّالِ
نَهَانِيَ عَنْ غَيٍّ* وقَالَ مَنِيُّهَا أَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ* وَ النَّاسَ أَحْوَالِي[3]

1- تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ج2، ص216/215.
2- و من البديع الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امريء القيس بن حجر الكندي، نفح الطيب، ج5، ص517.
*لمتي: اللمة: شعر الرأس وفي الصحاح: ما يجاور شحمة الأذن،"لسان العرب"،ج12،ص551،فصل اللام،مادة(ل م م).
* تشبّ الشّباب: الفتاء و الحداثة، المصدر نفسه، ج1، ص480، حرف الباء، فصل الشين، مادة (ش ب ب).
* الغي: الضلال و الخيبة، المصدر نفسه، ج15، ص140، حرف الواو والياء من المعتل، فصل الغين، مادة (غ و ى).
* سمار: سمر يسمر سمرا و سمورا: لم ينم، و هو سامر و هم سمار، و السمر و المسامرة: الحديث بالليل، المصدر نفسه ج4، ص377/376، حرف الراء، فصل السين، مادة (س م ر).
3- نفح الطيب، ج5، ص518.

في هذه الأبيات يصرّح النّاظم أن ليس لديه عزيمة ولا أعمال صالحة، و قد ظهر في رأسه شيب كفقاقيع الماء التي تظهر مرّة بعد مرّة، وهذا الشّيب قد أنار على الشّباب طريقه ليعود إلى رشده فلا يضيّعها في متاهات الشّهوات والمعاصي وقد نهاه عن هذه الغوايات والظّلمات ليعود إلى نور الحقّ والهدى ويدع الظّلمات والباطل، فكأنّ الشّيب قد أنذره بقرب الأجل لكي يبتعد عن الملذّات المحــرّمة ويعود إلى الله ويتوب إلى أن قـــال :

أَلاَ إِنَّهَـا الدُّنْـــيَا إِذَا مَـا اِعْـتَبَرْتَهَـا ... دِيَارٌ لِسَلْمَى عَافِـيَاتٌ* بِـذِي خَـالِ*

فَأَيْنَ الَّـذِينَ اِسْـتَأْثَرُوا قَبْلَـــنَا بِهَـا ... لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلاَ صَالِ*

ذُهِلْتُ بِهَا غَيًّا فَكَيْفَ الخَلاَصُ مِنْ ... لَعُـــوبٍ* تُنَسِّينِي إِذَا قُمْتُ سِرْبَالِي*

وَ قَـدْ عَلِمَتْ مِنِّي مَـــوَاعِدَ تَوْبَتِي ... بِأَنَّ الفَتَى يَهْـذِي* وَلَيْـسَ بِفَعَّـــالِ

وَمُـــذْ وَثِـقَـتْ نَفْـسِي بِحُبِّ مُحَمَّدٍ ... هَصَرْتُ* بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ* مَيَّالِ

وَأَصْبَحَ شَيْطَانُ الغِـوَايَةِ خَـاسِئًـا* ... عَلَيْهِ قَتَامٌ سَـيِّءُ الظَنِّ وَالبَـــالِ*[1]

---

* عافيات: العافية أن يعافيه الله من سقم و بلية، و هي الصحة، ضد المرض،"لسان العرب"، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل العين، مادة (ع ف ا).

* خال: خلا المكان إذا لم يكن فيه أحد و لا شيء فيه فهو خال، المصدر نفسه، ج14، ص237، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الخاء، مادة (خ ل ا).

* صال: سطا، المصدر نفسه، ج11، ص387، حرف اللام، فصل الصاد، مادة (ص و ل).

* لعوب: جارية لعوب، حسنة الدل،سميت لعوبا لكثرة لعبها،المصدر نفسه،ج1،ص740، حرف الباء مادة (ل ع ب).

* سربالي: السربال: القميص و الدرع، و قيل كل ما يلبس فهو سربال،المصدر نفسه،ج11،ص33 مادة (س ر ب ل).

* يهذي: تكلم بكلام غير معقول في مرض أو غيره، المصدر نفسه، ج15، ص360، حرف الواو و الياء من المعتل فصل الهاء، مادة (هـ ذ ي).

* هصرت: عطف الشيء الرطب كالغصن، أماله،"لسان العرب"، ج5،ص264،حرف الراء، مادة(هـ ص ر).

* شماريخ: الشمروخ: غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ، خرج في سنته رخصا، المصدر نفسه، ج3 ص31، حرف الخاء، فصل الشين، مادة (ش م ر خ).

* خاسئا: الخاسيء المطرود، المصدر نفسه، ج1، ص65، حرف الهمزة، فصل الخاء، مادة (خ س أ).

* البال: الحال و الشأن، المصدر نفسه، ج11، ص74، حرف اللام، فصل الباء، مادة (ب و ل).

1- نفح الطيب، ج5، ص518.

إنّ الشّاعر في هذه الأبيات ينبّه الذي يريد أن يجعل الدّنيا دار بقاء فيلهو فيها ويزهو كأنّها دار سلمى دار بقاء لا زوال فيها، فالشّاعر استفهم عليه منكرا هذا الأمر والفهم فقال له: أين الذين استأثروا بهذه الدّنيا؟ هل هم باقون؟ أم انقضى أمرهم وصاروا إلى القبور؟ تركوا الدّنيا فما بقي لهم حديث ولا صلاة ولا ذكر، ثمّ قال : ذهلت بهذه الدّنيا وأغرتني ملذّاتها وشهواتها، فكيف أتخلّص ممّا أتلفته، نساء لعوب تنسيني هموم الدّنيا، وقد علمت أنّ توبتي سوف تأتي فما هي إلاّ أيّام الشّباب يهذي فيها ولا يعي ما يفعل، حتّى تمضي، ثمّ يأتي أوان التّوبة والأوبة إلى الباري جلّ جلاله، ومعرفة طريق نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ،فمنذ أن عرفته عليه الصّلاة والسّلام أُولعت بحبّه ومال قلبي إلى سنّته وأصبح شيطان الغواية خاسئا صاغرا فمن اقتفى طريقه ضلّ حاله وضاع باله.

4-الشّعر الوجداني :

أ- النّسيب و الغزل :

إنّ المجتمع المغربي عموما في هذه الفترة كان أساسه الفكري مبنيّ على الاتّجاه الدّيني ومع ذلك لم يقف هذا الأخير على حاجة الشّعراء بمختلف اتجاهاتهم إلى التّعبير عن خوالج النّفس وشرح أحوالها، فعلى الرّغم من الحضور المحدود للقصيدة النّسيبيّة أو الغزليّة إلاّ أنّها استطاعت أن تجد لها مكانا بين مختلف الأغراض الشعريّة الأخرى[1].

وإذا أردنا أن نعرّف النّسيب فهو :"ذكر خلق النّساء وأخلاقهنّ وتصرّف أحوال الهوى به معهنّ، أمّا الغزل فهو التّصابي والاستهتار بمودّات النساء ويقال في الإنسان إنّه غَزِلٌ إذا كان مستشكلا بالصّورة التي تليق بالنّساء وتجانس موافقتهنّ لحاجته بالوجه الذي يجذبهنّ إلى أن يملن إليه"[2].

وممّن نظم في النسيب ابن القوبع التونسيّ[3]، حيث قال:(طويل)

1- الأدب في العصر الزياني الثاني (749هـ/952هـ)، ص243.

2- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، 1302هـ، ص43/42./ العمدة : ابن رشيق القيرواني، ج2، ص117.

3- مُحَمَّد بن مُحَمَّد التونسي المعروف بابن القوبع، ولي الدين أبو عبد الله، أديب ناظم ناثر، توفي سنة 738هـ ذكر ابن حجر أنه ولد سنة 664هـ، قرأ ببلده ثم سافر إلى دمشق و سمع من أعلامها. (درة الحجال في أسماء الرجال، أبو العباس مُحَمَّد

جَوًى* يَتَلَظَّى* فِي الفُؤَادِ اِسْتِعَارُهُ وَ دَمْعٍ هَتُونٍ* لاَ يُكَفُّ اِنْهِـمَارُهُ*
وُلُوْعًا بمـن حـازَ الجمَـالَ بِأَسْرِهِ فَحَازَ الفُـؤَادَ المُسْتَهَامَ* إِسَـارُهُ
غَزَالٌ لَهُ صَدْرِي كَنَـاسٌ* وَ مَرْتَعٌ وَمِنْ حُبِّ قَلْبِي شِيحُهُ* وَعَرَارُهُ*[1]

يستهلّ الشّاعر مقطوعته بشكوى من حبّ وعشق لغزال كان يحرق قلبه فاشتدّ حزنه ومرضه لأجله، كان كثير التّذكّر له والبكاء عليه فجماله أسر قلبه وجعل له صدره مسكنا ومرتعا، و بهجة قلبه شيحه وعراره يتغدّى منه فاستعمل الشّاعر هذه الكنايات على شدّة شوقه وحبّه لهذا الغزال إلى أن قـال:

كَتَمْتُ الهَوَى لَكِنْ بِدَمْعِي وَزَفْرَتِي* وَ سُقْمِي تَسَـاوَى سِرُّهُ وَجِهَـارُهُ
أَرَاحَةَ نَفْسِي كَيْفَ صِرْتِ عَـذَابَهَا وَ جَنَّةَ قَلْبِي كَيْفَ مِنْكَ اِسْتِعَارُهُ[2]

المكناسي، تحقيق: محمّد الأحمدي أبو النور، الناشر المكتبة العتيقة، دار التراث القاهرة، 1391هـ/1971م، ج2 ص300/302.

* جوى: الجوى الحرقة و شدة الوجد من العشق أو الحزن،"لسان العرب"، ج14، ص157، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الجيم، مادة (ج و ا).

* يتلظّى: كأنه يلتهب، كالنّار من اللّظى، المصدر نفسه، ج15، ص249، حرف الواو و الياء من المعتل فصل اللاّم مادة (ل ظ ي).

* هتون: مطر هتون: هطول، المصدر نفسه، ج13، ص430، حرف النون، فصل الهاء، مادة (ه ت ن).

* انهماره: الهمر: الصب، انهمر سال، المصدر نفسه، ج5، ص266، حرف الراء، فصل الهاء، مادة (ه م ر).

* المستهام: الهائم و رجل هائم و هيوم: متحير،"القاموس المحيط"، ص1172، حرف الهاء، مادة (ه ا م).

* كناس: مولج الوحش من الظباء و البقر تسكن فيه من الحر، لسان العرب، ج6، ص198، حرف السين، فصل الكاف، مادة (ك ن س).

* شيحه: الشيح نبات سهلي يتخذ من بعضه مكانس و له رائحة طيبة و طعم مر، المصدر نفسه، ج2، ص502، حرف الحاء، فصل الشين، مادة (ش ي ح).

* عراره: العرار: بهار البر، و هو نبت طيب الريح، المصدر نفسه، ج4، ص560، حرف الراء، فصل العين، مادة (ع ر ر).

1- تاريخ الأدب العربي، ج6، ص416.

* زفرتي: الزفير أن يملأ الرجل صدره غمّا و هو يزفر به، و الزّفرة التّنفس، المصدر السّابق، ج4، ص324، مادة (ز ف ر).

2- المصدر السّابق، ج6، ص417.

فالشّاعر في هذين البيتين يقرّ بكتم حبّه للغزال، ولكن نحولة جسمه هي التي أبدت حقيقة أمره، وأنّه كان راحة نفسه وصار اليوم عذابها لفرقته وبعده عنه،فهو جنّة قلبه وصار اليوم ناره الموقـــدة، وهذه موازنة استعملها الشّاعر.

ولابن عمر المليكشي[1] أبيات نظمها في النّسيب فقال :(طويل)

رِضًى نِلْتُ مَا تَرْضَيْنَ مِنْ كُلِّ مَا يَهْوَى   فَلاَ تُوقِفِينِي مَوْقِفَ الذُّلِّ وَالشَّكْوَى

وَصَفْـحًا عَنِ الجَـانِي الـمُسِيءُ لِنَفْسِـهِ   كَفَاهُ الَّذِي يَلْقَـاهُ مِـنْ شِـدَّةِ البَلْـوَى

بِمَـا بَيْنَـــــنَا مِنْ خُلْـــوَةٍ مَعْنَــوِيَّةٍ   أَرَقُّ مِنَ النَّجْوَى وَأَحْلَى مِنَ السَّلْوَى*

قِـفِي أَتَشَـكَّى لَوْعَـةَ البَـيْنِ سَـــاعَةً   وَلاَ يَكُ هَـذَا آخِـرَ العَهْـدِ بِالنَّجْـوَى

قِفِي سَاعَةً فِي عَرْصَـةِ*الـدَّارِ وَ انْظُرِي   إِلَى عَاشِقٍ مَا يَسْتَفِيقُ مِنَ البَلْـوَى

....

خُلِقْتُ وَلِي قَلْبٌ جَلِيدٌ عَـــنِ النَّوَى   وَ لَكِنْ عَلَى فَقْـدِ الأَحِبَّـةِ لاَ يَقْـوَى[2]

فالشّاعر في هذه المقطوعة يتغنّى بمحبوبته التي غابت عنه فترة من الزّمن فاشتاق إليها اشتياقا كبيرا، اشتياق عاشق فكأنّه من شدّة بعده عنها ذلّ وصار يشتكي أمره إلى نفسه لا غير، وكأنّه كذلك صار يجني على نفسه من شدّة هذا الحبّ ومن شدّة البعد عن محبوبته فهذه بلوى ابتلي بها فلا بدّ أن يجد لنفسه مخرجا يقيه من هذا العذاب؛إلى أن قال لها: قفي في عرصة الدّار وانظري إلى من يحبّك، عسى أن تكون تلك النّظرة شفاء لما في قلبه، فهو رهيف الإحساس لا يقدر على فراق الأحبّة .

1- أبو عبد الله مُحَمَّد بن عمر بن علي بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن عمر المليكشي البجائي ثم التونسي الجزائري، شاعر أديب أخذ عن علماء مدينة الجزائر ثم رحل إلى المشرق و أخذ العلم هناك، توفي بتونس سنة(740هـ)(ينظر: معجم أعلام الجزائر عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثّقافية، بيروت، لبنان،ط2 1400هـ/1980م،ص318/317).

* السّلوى: طائر، و عند العرب العسل، لسان العرب، ج14، ص395، حرف الواو و الياء من المعتل فصل السين، مادّة : (س ل ا).

* عرصة: عرصة الدّار: وسطها و قيل هو ما لا بناء فيه، المصدر نفسه، ج7، ص52، حرف الصاد، فصل العين، مادة (ع ر ص).

2- نفح الطّيب، ج6، ص240 .

و قد كتب الشّعراء في هذه الفترة مقاطع في هذا الغرض لا يسعنا المقام لذكرها وإنّما هذه إشارات وما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه.

ب- الرّثـــــــاء :

إنّ الرّثاء غرض قديم ظهر بظهور الشّعر وليس بينه وبين المدح فرق، إلاّ أنّه يُخلط به شيء يدلّ على أنّ المقصود به ميّت مثل: "كان أو عرضا به كيت وكيت، وما يشاكل هذا ليُعلم أنّه ميّت[1]"، إذن يكون ظاهر التّفجع ومخلوطا بالتلهّف والأسف والاستعظام[2].

فقد يرثي الشّاعر ملكا أو سلطانا أو رجلا عظيما عرف بشهامته وبجوده وبصبره وغير ذلك، وقد يرثي الشّاعر مدينة وهذا الرّثاء يسمّى رثاء المدن، وظهر جليّا أيّام سقوط الأندلس، لمّا بدأت تتهاوى مدنها على أيدي غزاة النّصارى، إلاّ أنّ هذا لم يكن في القرن الثّامن بل سبقه ولحقه؛ أي كان ذلك في القرن السّابع والتّاسع لمّا قضوا على دولة بني الأحمر بغرناطة، أمّا عن رثاء الأشخاص عند شعراء المغرب فلم يختلف عن أهل المشرق في شيء، بل سار على نحوهم ونهجهم، ومن الذين رثوا في هذا القرن نجد عند ابن رشيد السّبتي[3] أبياتا رثى فيها ابنًا له، فقال:(الطّويل)

فَإِنْ أَلْتَفِتْ فَالشَّخْصُ للعَينِ مَـاثلٌ   وَ إِنْ أَسْتَمِعْ فَالصَّوتُ لِلأُذْنِ طَارِقُ

وَإِنْ أَدْعُ شَـخْصًا بِإِسْـمِهِ لِضَـرُورَةٍ   فَإِنَّ اِسْمَهُ المَحْبُوبُ لِلنُّطْـقِ سَـابِقُ

وَإِنْ تَقْرَعِ الأَبْوَابَ رَاحَـةُ قـــارِعٍ   يَطِـرْ عِنْـدَهَا قَلْبٌ لِذِكْـرِهِ خَـافِقُ[4]

1- العمدة، ابن رشيق القيرواني، ج2، ص147.

2- المصدر نفسه، ج2، ص147.

3- محبّ الدّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عروة بن عمر بن مُحَمَّد بن إدريس بن عبد الله بن سعيد بن مسعود ابن الحسن ابن مُحَمَّد الفهري من أهل سبتة، يعرف بابن رشيد ولد في سبتة عام 657هـ، بدأ دراسة الحديث والنّحو بها ثم انتقل إلى فاس فتابع الدّراسة فيها، والتقى أبا عبد الله الحكيم الرّندي وهو متّجه إلى الحجّ وهناك التقى عددا كبيرا من شيوخ المشرق والمغرب، طاف بالمشرق ثلاث سنوات والتقى علماءها عنهم تولى في غرناطة الخطبة والإمامة في جامعها الأعظم، توفي سنة 721هـ في فاس.(تاريخ الأدب العربي ج6، ص383).

4- المرجع نفسه، ج6، ص383.

فالشاعر في هذه الأبيات يتألّم لفراق ابنه ويحقّ له ذلك كيف لا وقد قال كيفما ألتفت النّظر أتخيّل صورة ابني وأنّه واقف أمام عيني، وكلّ صوت أسمعه يتخيّل لي أنّه صوت ابني، وإذا احتجت أن أنادي أحدا ما باسمه، يسبق إلى لساني اسم ابني الميّت، وإن قرع أحـد في الباب أتذكّر قرعه فيطير قلبي فرحا ولكن سرعان ما يصير حزنا عندما أتذكّر أنّه ميّت، ثمّ قـال:

رَأَتْكَ الـــمَنَايَا سَابِقًا فَأَغَرْتَهَا   فَـجِدَّ طِلاَبًا إِنَّهُنَّ لَوَاحِـــقُ
لَئِنْ سَلَبَتْ مِنِّي نَفِيسَ ذَخَـائِرِي   فَإِنِّي بِمَذْخُورِ الأُجُــورِ لَوَاثِقُ
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي إِنَّنِي لَكَ سَـابِـقٌ   فَقَدْ صَارَ عِلْمِي أَنَّنِي بِكَ لاَحِقُ
غَرِيـبَيْنِ كُنَّا فَـرَّقَ الدَّهْـرُ بَيْنَنَا   بِأَبْرَحِ مَا يَلْقَى الغَرِيبُ المُفَـارِقُ[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات يكمل الرّثـاء على ابنه فقال: كان يسارع في أمور دنياه ويطمح للمعالي ولكن الموت هاجمه وأغار عليه لانقضاء أجله، وقد سلبت أعزّ ما أملك و لكن سأصبر حتّى أنال الأجر يوم القيامة، فإنّي سأدّخرك اليوم حتى أنال بهذا الصبر رضى الله وأجره ورحمته وكريم عطائه وجنّته، مع أنّي كنت أظنّ الموت سيغار عليّ قبلك، والآن صار علمي ويقيني أنّك سابق و سألحق بك إلى الدّار الآخرة.

وفي البيت الأخير يصرّح الشّاعر أنّه لا يملك إلاّ ولده في هذه الدّنيا وكأنّهما غريبين فيها، فرّق الموت بينهما فاشتدّت الغربة عليه كأشدّ ما يكون.

ولأحمد بن شعيب الجزنّائي[2] أبيات يرثي فيها جارية له روميّة اسمها صُبْحًا فقـال:(كامل)

يَا صَـــاحَبَ القَـبْرِ الَّذِي أَعْلاَمُـهُ   دَرَسَتْ* وَلِكَنَّ حُبُّـهُ لَمْ يَـدْرُسِ
مَا اليَأْسُ مِنْكَ عَلَى التَّصَبُّرِ حَامِلِي   أَيْـــأَسْـتَنِي فَكَأَنَّنِــي لَـمْ أَيْـأَسِ

1- تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص383.

2- الكاتب الشّاعر أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الفاسي، من حفظة الشّعر ونقدته، وممّن جمعوا بين ملكة الشّعر والنّثر بالإضافة إلى جودة الخط، عمل كاتبا في ديوان الإنشاء لدى السلطان أبي الحسن المريني، واشتهر عنه مع ذلك معرفته بالطب و الكيمياء و علم النبات، توفي بتونس عام 749هـ/1449م (ينظر:" أوصاف النّاس في التّواريخ والصّلات، يليها الزّواجر والعظات"، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق و دراسة: مُحَمَّد كمال شبانة، ص106).

* درست: امحت، "لسان العرب"، ج6، ص79، حرف السين، فصل الدال، مادة (د ر س).

لَـمَّا ذَهَبْتَ بِكُلِّ حُسْـنٍ أَصْبَحَتْ   نَفْسِي تُعَانِي شَجْوَ* كُلِّ الأَنْـفُـسِ

يَا صُبْـحُ أَيّامِي لَيَـــالٍ كُلُّهَـــا   لاَ تَنْجَلِي عَنْ صُبْحِـكِ المُتَنَفِّسِ*[1]

فالشّاعر يذكر قبر جاريته التي أحبّها وأنّه مهما اختفى ولم يبق ظاهرا إلّا أنّ حبها لم يختف ولم ينس، فحبّه لها لم ييأس منه، قد ذهبت بكلّ ما هو حسن حتّى صارت نفسه تعاني الحزن والهمّ من كلّ الأنفس، فلا أريدك إلاّ أنت يا صبح، فالأيّام واللّيالي كلّها لا ينجلي الصّبح فيها و كأنّ الظلام بات يغشاه بعد موتهـا.

ج- الشّكوى و الحنين :

إنّ ممّا يعانيه الإنسان في غربته الحنين إلى وطنه و أولاده و أحبّته و من له صلة به وأساس هذا الغربة و الاغتراب أو التّغريب[2]؛ فكلّ من رحل لطلب علم أو تجارة أو خرج ليقاتل عدوّا بعيدا عن وطنه فهو في غربة و اغتراب، أمّا من أُخرج نفيا أو سجن فهو في تغريب وكلّ منهم يعيش حنينا إلى أحبّائه، ويشكو بُعْدَهُم. وهذا ما جعل كثيرا من الشّعراء في المغرب عموما وفي القرن الثّامن خصوصا إلى قول ونظم قصائد يشتكون فبعدهم عن الحبيب و يحنّون إليه ومن أولئك : البلفيقي[3] فله مقطّعات في الشّكوى من كلّ شيء، و من هذه المقطّعات :(بسيط تامّ)

قَالُوا تَغَرَّبْتَ عَنْ أَهْلٍ وَ عَنْ وَطَنٍ   فَقُلْتُ لَمْ يَبْقَ لِي أَهْلٌ وَ لاَ وَطَنُ

مَضَى الأَحِـبَّةُ وَ الأَهْـلُـــونَ كُلُّهُمُ   وَ لَيْسَ بَعْدَهُمْ سُكْنَى وَ لاَ سَكَنُ

---

* الشّجو: الهمّ و الحزن،المصدر نفسه، ج14، ص422، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الشين، مادّة (ش ج ا) .

* التّنفس: الصّبح إذا تنفّس: قيل إذا ارتفع النّهار حتى يصير نهارا بيّنا، المصدر نفسه، ج6، ص238، حرف السّين، فصل النون، مادة (ن ف س).

1- النّبوغ المغربي، ج3، ص885.

2- الغربة و الاغتراب: تقول تغرب و اغترب: بمعنى غريب، و غُرُبٌ و الجمع غرباء و هو الأباعد. والتّغريب النّفي عن البلد. ("مختار الصحاح"، ص197، باب الغين، مادة (غ ر ب)).

3- أبو البركات مُحَمَّد بن أبي بكر مُحَمَّد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي، واحد الفئة و صدر صدور هذه المئة، له في الأدب الدّرجات و الأفواح المتأرّجات، توفي بألمرية سنة 773هـ، و في النّفح سنة 771هـ، (ينظر: الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، ص127/128).

أَفْرَغْتُ حُزْنِي وَ دَمْعِي بَعْدَهُمْ فَأَنَا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لاَ دَمْعٌ وَ لاَ حَزَنُ[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات يتكلّم عن غربته لوطنه قائلا: فقد تركت الأحبّة والأقارب والأهل والأولاد كلهم، ولم يعد بعدهم حبّ ولا سكن، فبَعد فراقهم بكيت وحزنت عليهم أفرغت كلّ دمعي وحزني، حتّى لم يبق دمع و لا حزن، وهو بهذا يقول: لا تحزن على فراق أحد بعد الأحبّة والأهل والأولاد، فهم أهل الحنين والبعد عنهم يولّد ألم المفارقة.

وممّن نظم في شعر الحنين، أبو جعفر الإلبيري، متشوّقا لغرناطة مع أمله في العودة إليها :

ذَابَتْ عَلَى الحَمْرَاءِ حُمْرُ مَدَامِعِي وَ القَلْبُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ ذَائِبُ (كامل تامّ)

طَالَ المَدَى بِي عَنْهُمْ وَ لَرُبَّمَا قَدْ عَادَ مِنْ بَعْدِ الإِطَالَةِ غَائِبُ[2]

فالشّاعر الإلبيري يتحسّر على الأيّام السّعيدة التي قضاها في بلاده غرناطة حيث تساقطت دموعه على قصر الحمراء، و ذاب قلبه من شدة حبه لها، و كان ذلك بسبب الاستدمار الصليبي الغاشم الذي تسلّط عليها، و حارب كل مظاهر الإسلام و العروبة فيها فاضطرّ أهلها إلى مفارقتها مكرهين غير قادرين على الدّفاع عن أراضيهم و أنفسهم.

د- الفخر و الحماسة :

إنّ الفخر غرض ظهر في العصر الجاهلي و هو لا يزال قائما في عصرنا الإسلامي وقد برز في القرن الثّامن، فنظم عدد من الشّعراء قصائد يفتخرون فيها بإسلامهم و عروبتهم و انتمائهم لهذه الأمّة؛ فمن خلاله يبثّون رسائل يحثّون فيها أمّتهم و شعبهم على الجهاد ضدّ الأعداء، فهم يفتخرون و يحمّسون النّاس على ذلك حتّى يحافظوا على دينهم وأمّتهم. فيمدحون أنفسهم وأهليهم وعشيرتهم، ويقبحون عدوّهم و من أراد بهم سوءا، وإذا كان الافتخار هو المدح، إلاّ أن الشّاعر يخصّ به نفسه و قومه، و كلّ ما حسن في المدح حسن في الافتخار، و كل ما قبح فيه قبح في الافتخار[3].

1- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، ص132.

2- دولة الإسلام في الأندلس، محمّد عبد الله عنان، العصر الرّابع، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، 1417ه/1997، ص466.

3- العمدة في نقد الشعر، ج2، ص143.

و للسّلطان أبي الحسن المريني[1] أبيات في هذا الغرض قال فيها : (وافر تامّ)

أُرَضِّي اللَّهَ فِي سِــرٍّ وَ جَهْـــــرِ   وَ أَحْمِي العِرْضَ عَنْ دَنَـسِ*اِرْتِيَابٍ*

وَ أُعْطِي الوَفْرَ مِنْ مَالِي اِخْتِيَارًا   وَ أَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ طُلَى*الرِّقَابِ[2]

فالسّلطان في هذه الأبيات يقول أني أطيع الله في السّرّ و العلن، ولا أعصيه ما استطعت إلى ذلك سبيلا وأحمي الأعراض عن الدين يريدون أن يدنسوها ويهتكوا حرماتها، كما أني أعطي العطايا من مال وغيره، وذلك باختياري دون مطاوعة أحد ولا يكون ذلك إلا لله مخلصا له الدين، وأضرب بالسيوف الرقاب والأعناق وهي كناية عن شجاعته، فالسّلطان يفتخر بطاعته و عطائه ويؤثر ذلك فهو يتحمّس لهذه الأعمال لأنّه كثيرا ما يفعلها و يسعى إليها.

و لمالك بن مرحل[3] أبيات في الحماسة يستنفر المجاهدين لقتال العدوّ بالأندلس قال فيها: (رجز تامّ)

1- ولد السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني سنة (697هـ)، عرف بالأسود لأن أمه كانت حبشية فكان لونه أسمرا، عقدت له البيعة بعد وفاة والده سنة (739هـ)، كان مقاتلا بارعا و قائدا محنّكا استرجع تلمسان بعد حصار دام ثلاث سنوات و غزا أفريقية و لكنه هزم في معركة كبيرة إثر تحالف أهل المنطقة عليه من قبائل العرب. حقق استقرار منطقته أمنيا و اقتصاديا و خلد مدرسته أبو تاشفين في مراكش، و مسجد العبّاد بتلمسان، و المدرسة المصباحية بفاس، توفي سنة 752هـ، دفن بمراكش إلى أن نقله ابنه إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس، (ينظر: فراهة الأنظار في عجائب التّواريخ و الأخبار، محمود مقديش، تحقيق: علي الزّاوي/ مُحَمَّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 1988م، ج1 ص525/530).

* دنس: الوسخ،" لسان العرب"، ج6، ص88، حرف السين، فصل الدال، مادة (د ن س).

* ارتياب: ارتاب فيه أي شك، المصدر نفسه، ج1، ص442، حرف الباء، فصل الراء، مادة (ر ي ب).

* طلى: الطّلاة: هي العنق و الجمع طلى، المصدر نفسه، ج15، ص13، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الطاء مادة (ط ل ي).

2- النّبوغ المغربي، ج3، ص647.

3- مالك بن عبد الرحمن بن فرج بن أزرق، أبو الحكم ابن المرحل، أديب من الشعراء من أهل مالقة، و لد بها و سكن سبتة و ولي القضاء بجهات غرناطة و غيرها، من موالي بني مخزوم مصمودي الأصل، عاش بين سبتة و فاس و توفي بها، كان من الكتاب غلب عليه الشعر حتى نعت بشاعر المغرب، له ديوان و أرجوزة في النحو و غيرها، (الأعلام:

اِسْتَنْصَرَ الـدِّينُ بِكُمْ فَأَقْبِلُـوا   فَإِنَّكُـــمْ إِنْ تُسْلِمُـوهُ يُسْـلَمُ

لاَ تُسْلِمُوا الإِسْلاَمَ يَا إِخْوَانَنَا   وَ أَسْرِجُوا* لِنَصْـــرِهِ وَ أَلْجِمُوا

لاَذَتْ بِكُـمْ أَنْدَلُـسُ نَاشِـدَةً   بِرَحِمِ الـــدِّينِ وَ نِعْـمَ الرَّحِمُ

فَاِسْتَرْحَمَتْكُمْ فَارْحَمُـــوهَا إِنَّهُ   لاَ يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لاَ يَرْحَـمُ(1)

فالشّاعر في هذه الأبيات يحرّض المجاهدين على قتال العدوّ في الأندلس حتى لا يأخذوها من أيدي المسلمين فقال: إنّ الدين ينتصر بكم إن استجبتم لندائه و أخذتم بأسباب النّصر، و إن تخاذلتم عن تلبية النّداء فإنّ الأعداء سيستولون عليها و يندثر الإسلام فيها، فأسرجوا الخيول و ألجموها للنّفير و أعدّوها له، فإنّ الأندلس تناديكم و تناشدكم برحم الدّين، فلنعم الرّحم هو، فارحموها رحمكم الله، فإنه من لا يَرحم لا يُرحم فهي منكم و أنتم منها.

قد كتب أهل المغرب عموما أبياتا كثيرة في الحماسة و الفخر لما شهدته المنطقة من حروب كثيرة و توسّع كبير، تارة من عند الغزاة القشتاليّين للأندلس، و تارة أخرى فيما بين المسلمين، فمثلا يتوسّع المرينيّون على حساب الزّيانيين و الحفصيّين، و تارة أخرى العكس، فهذه الأسباب و تلك هي التي دفعت الشّعراء للنّظم في هذا الغرض.

هـ - الحكمة: و لمالك بن مرحل أبيات في هذا الغرض قال فيها:(طويل)

بِـــأَيِّ دَوَاءٍ أَمْ بِـأَيِّ طَبِيبٍ   يُدَاوَى عِذَارٌ*مِنْ بَيَاضِ مَشِيبِ

بَيَاضٌ كَمَا لاَحَـتْ كَوَاكِبُ سَحْرَةٍ*   تُرِيكَ طُلُـوعًـا مُـوذِنًا بِغُرُوبِ

قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم بيروت لبنا، دط، ج5، ص263، حرف الميم).

* أسرجوا: السّرج: رحل الدّابة أسرجها، وضع عليها السّرج، لسان العرب، ج2، ص297، حرف الجيم، مادّة (س ر ج).

1- النبوغ المغربي، ج3، ص647.

* عذار: عذار الرجل: شعره النّابت في موضع العذار، و العذاران: جانبا اللحية، المصدر السّابق ، ج4، ص550، حرف الرّاء، فصل العين، مادة (ع ذ ر).

* سحرة: آخر الليل قبيل الصبح، لسان العرب، ج4، ص350، حرف الراء، فصل السين، مادة (س ح ر).

بَشِيرًا نَذِيرًا لاَحَ كَالفَجْــرِ صَادِقًا   عَلَى كَاذِبٍ حُلْوِ اللِّسَانِ خَـلُوبِ*[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات يستهل قصيدته بالتّساؤل عن الدّواء أو الطّبيب الذي يداوي بياض الشّيب و الذي يظهر بجانب الأذن حتى لا يستفحل و ينتشر في الشّعر كما تنتشر الكواكب قبيل الفجر، و ينتهي بطلوع الشّمس و غروبها فلكلّ بداية نهاية كالإنسان الذي يكون له بداية ثم علامة نهاية و هي الشّيب الذي يدلّ على قرب الأجل و دنوّه فهو يبشّر المتّقين و ينذر أهل الباطل الذين طال أملهم في هذه الدنيا، حتى صاروا يخدعون النّاس ويكذبون عليهم لينالوا حظّا من الدّنيا قليل، إلى أن قال :

....

بَعِيدٌ مِنَ التَّوْفِيقِ مَنْ بَاتَ سَاهِرًا   رَجَـاءَ بَعِيدٍ لاَ مَخَـافَ قَــرِيبِ

بَطِيءٌ لَعَمْرِي مَنْ سَرَى اللَّيْلَ كُلَّهُ   وَ أَصْبَحَ حَوْلَ الحَيِّ بَعْدَ لُغُوبِ*

بَخِيلٌ لَعَمْرِي مَنْ دَعَـــــاهُ حَبِيبُهُ   هَلُـمَّ إِلَيْنَا وَ هْــوَ غَـيْرُ مُجِيبِ[2]

ففي هذه الأبيات يتكلّم الشّاعر عن الذي بات و هو يفكر في أمر بعيد المنال كالذي يمشي باللّيل مشيا متعبا حتى ينال لقاء صاحب و هو شديد التّعب، فهذا لا ينال مبتغاه ممن يلقاه و يريده، لينال حظه و غرضه فهو كذلك كمن دعاه حبيبه و لم يستجب لدعوته. ففي هذه الأبيات حكمة بالغة لأولي الأبصار و النّهى و لمن تدبرها و وعاها حقّ الوعي.
و قال كذلك في أبيات أخرى:(طويل)

جَـدِيرٌ بِأَنْ يَبْــكِي عَلَى نَفْسِهِ أَسًــى*   فَتًى كُـــلَّمَا تُرْجَى لَهُ تَـوْبَةٌ تُرْجَا*

---

* خلوب: الخلابة المخادعة، المصدر نفسه ، ج1، ص363، حرف الباء، فصل الخاء، مادة (خ ل ب).

1- النبوغ المغربي، ج3، ص766.

* لغوب: التّعب و الإعياء، المصدر، ج1، ص742، حرف الباء، فصل اللام، مادة (ل غ ب).

2- المرجع السّابق، ج3، ص767/766.

* أسى: الحزن، لسان العرب،ج14،ص34،حرف الواو و الياء من المعتل،فصل الهمزة، مادة (أ س ا).

* ترجا: أرجأ الأمر: أخّره، المصدر نفسه، ج14،ص311،حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الراء، مادة (ر ج ا).

جَبَانٌ عَنِ التَّقْوَى جَـرِيءٌ عَـلَى الهَـوَى   قَرِيبٌ مِن المَهْوَى* بعيدٌ مِـنَ المَلْجَا*

جَــرَى فِي مَجَـال اللَّهْوِ مِـلْءَ عَـــنَانَةٍ*   إِلَى الآنَ مَا أَلْقَى لِجامًا وَ لاَ سَـرْجَا

جَنَى مَا جَنَى وَ اِسْتَسْهَلَ الأَمْرُ فِي الصِّبَا   فَـلَمَّا نَهَاهُ الشَّيْبُ عَنْ فِعْـلِهِ لَجّـَا*[1]

فالشّاعر تكلّم في مطلع هذه القصيدة عن الفتى الذي يؤجّل و يؤخّر التّوبة عن نفسه فهو لا يجرؤ عن التّقوى و لكنه جريء في فعل المعاصي و اتّباع الهوى فهو قريب منها بعيد عن التّقوى فهو لم يلق من شَدَّهُ بلجام التقوى حتى يركب الطاعات، ويضع عن نفسه فعل المنكرات، ولكنه و للأسف جنى على نفسه أيّام الصّبا والشّباب، فلمّا جاءه الكبر وظهر منه الشّيب لم يستطع التّوبة والرّجوع وكما قيل: من شبّ على شيء شاب عليه، فالغاية من هذه الحكم أن يعوّد الإنسان نفسه على فعل الخيرات و الطّاعات في الصّغر حتّى يكبر معها و تبقى فيه إلى المات.

فهذا الغرض قال فيه الشّعراء أمورا يتعلّمها الإنسان لمستقبله ويقي به نفسه فهو من قبيل معرفة الخير حتى يفعله ومعرفة الشّر وقاية منه.

و عموما نستطيع أن نقول أن جميع الأغراض التي تناولناها في بحثنا هذا قالها الشّعراء في هذه الفترة بما فيها الحكمة فإنّها ضالّة المؤمن أينما وجدها فهو أحقّ النّاس بها، ولا شكّ أنّها قيلت لظروف وتجارب معينة، فلكلّ مقام مقال.

* المهوى: ما بين الجبلين و نحو ذلك،"لسان العرب"، ج15، ص370، حرف الواو و الياء من المعتل فصل الهاء، مادة (ه و ا).

* الملجأ: المعقل، ألجأت أمري إلى الله، أسندته، المصدر نفسه، ج1، ص152، حرف الهمزة، فصل اللام، مادة (ل ج أ).

* عنانة: سير اللجام الذي تمسك به الدابة، المصدر نفسه، ج13، ص291، حرف النون، فصل العين، مادة (ع ن ن).

* لجا: لج في الأمر تمادى عليه و أبى، المصدر نفسه، ج2، ص353، حرف الجيم، فصل اللام، مادّة (ل ج ج).

1- النّبوغ المغربي، ج3، ص767.

و- الهجاء :

إنّ الهجاء غرض من أغراض الشعر ظهر في الجاهلية و هو ضد المدح، فيذكر الشّاعر عدوّه و خصمه بسوء ويقلّ من شأنه و يضعفه أمام قومه، أو يذكر قبيلته بقبح حتى يقلّ من شأنها، أو "أن تذكر المهجو بسخرية و استهزاء"[1]، و لما جاء الإسلام حرّم هذا النّوع من الهجاء إذا كان موجّها للمسلمين، أما إذا كان لعزّهم فلا بأس به وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع كفّار قريش للحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبيد الله بن معاذ قال : سمعت البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه: " اُهْجُهُمْ - أَوْ هَاجِهِمْ - وَ جِبْرِيلُ مَعَكَ"[2] ومن الهجاء الذي قيل في المغرب الهجاء السّياسي.

ز- الهجاء السياسي:

لقد ظهر الهجاء مجددا في الأندلس في الأيّام الأخيرة من دولة الأندلس، قاله الشعراء في بعض الملوك و السّلاطين، و كان هذا لتصرّفاتهم العشوائيّة في الحكم و إدارة الأمور و التي كانت نتيجتها طمع الأعداء في ملكهم و دولتهم فثارت ثائرة بعض الشّعراء، و من أولئك الذين قالوا في هذا الغرض لسان الدين بن الخطيب قال في مُحَمّد بن إسماعيل بن مُحَمّد الذي انقلب على أخيه الغني بالله في أيّام الدّولة النّصيريّة ظلما و جورا، فاعترض عليه ابن الخطيب قائلا هذه الأبيات :(كامل تامّ)

لَمْ يَدْرِ إِسْمَاعِيلُ مَا طَوَّقَتْهُ   وَ مَنْ مِنْهُ لَـوْ كَانَ مِمَّنْ يَعْـقِـلُ

نِعَـمٌ مُهَـنَّأَةٌ وَ ظِـلٌّ سَجْسَجٍ*   تَنْدَى غَضَـارَتُهُ* وَ مَـاءٌ سَلْسَـلُ

أَغْرَاهُ شَـيْطَانُ الغُرُورِ لِغَايَةٍ   مِنْ دُونِهَا تُنْضِي* الـمَـطِيُّ الـزُّلَّلُ

1- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط5، دت، ج1 ص46.

2- رقم:2657، ج6، ص245.

* سجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد، "لسان العرب"،ج2،ص295،حرف الجيم، فصل السين،مادة (س ج ج).

* غضارته: النّعمة و السّعة في العيش، المصدر نفسه، ج5، ص23، حرف الراء، فصل الغين، مادة (غ ض ر).

* تنضي: خلعه، المصدر نفسه، ج15، ص329، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل النون، مادة (ن ض ا).

يَبْغِي بِهَا دَرَجًا إِلَى نَيْلِ الَّتِي كَـانَتْ قُـــوَى إِدْرَاكِـهِ تَتَحَـبَّلُ

سُـرْعَانَ مَا أَبْدَاهُ ثُمَّ أَعَـادَهُ فِي هَفْوَةِ البَلْوَى وَ بِئْسَ المَـنْزِلُ[1]

الشّاعر استعمل الفعل طوّق الذي يدل على الشّمولية و كأنّه شمل خير الغني بالله أخاه إسماعيل، لم يترك له صغيرة و لا كبيرة إلا و قد أحضرها له لأجل إكرامه و عطفه عليه، و كأن الغني ربط عنق أخيه بالكرم و الجود، و لكن هذا لم يجد معه نفعا، بل ثار عليه و قلب عليه الحكم، ليأخذ مكانه و هذا الذي جعل النّاس من المحكومين يثورون على إسماعيل لأنّهم لم يرضوا بهذا الانقلاب وسرعان ما انقلب السّحر على السّاحر فقتل هذا الأخير و هكذا مصير كل غادر[2] و في هذا يقول ابن الخطيب أبياتا منها :

سُـرْعَانَ مَـــا أَبْدَاهُ ثُمَّ أَعَـادَهُ فِي هَفْوَةِ البَلْوَى وَ بِئْسَ المَـنْزِلُ

وَ سَقَى بِكَأْسِ الحَيْنِ*قَيْسًا بَعْدَهُ وَ اللَّهُ يُمْلِي لِلطُّـــغَاةِ وَ يُمْهِـلُ[3]

الشّاعر في هذه الأبيات يتحدّث عن عاقبة إسماعيل إذ أنّه لم يدم طويلا في الحكم بل نال عقاب غدره و هو الموت، بل تعدى ذلك إلى أخيه قيسٍ، فحكم الله عدل و لا يظلم ربك أحدا، فمن حفر حفرة لأخيه وقع فيها، و من يطمع في نعم غيره و يعمل على تخليصه منها، نال ذلك الجزاء و كما قيل : الجزاء من جنس العمل .

و خلاصة القول أن الهجاء السياسي كان وسيلة الشعراء للدّفاع عن حقوق الشّعوب في تلك الحقبة لبطش بعض الحكام بشعوبهم و تقاعسهم عن حقوقهم، فرفعت راية الشّعراء في قول الحق و ذلك عن طريق نظمهم لأبيات يبدونه فيها، كما تميّز نظمهم هذا بالأصالة و الصّدق حفاظا على مقدّساتهم من بطش النّصارى و عدوانهم، "فكان الشّعراء في المغرب مقلّدين للمشارقة مع اختلاف بسيط بين الفريقين، فأهل الأندلس أكثروا من المقطّعات

1- شعر الحروب و الفتن (عصر بني الأحمر)، ص105/104.

2- المرجع نفسه، ص105.

* الحين: الهلاك و المحنة، لسان العرب، ج13، ص136، حرف النّون، فصل الحاء، مادة (ح ي ن).

3- المرجع السّابق، ص105.

في معظم أهاجيهم و أهل المشرق غلبت عليهم القصائد الطّويلة"[1]، كما أنّ الأغراض تنوّعت في هذه الفترة كما بيّنا ذلك من خلال النّماذج و كان ذلك التّنوّع بحسب الظّروف والأحوال التي مرّت بالمنطقة وكذلك الطّبائع والأخلاق الفاسدة التي انتشرت فيها لهذا أو ذاك هبّ الشّعراء ونظموا قصائد ومقطّعات تصحّح هذا المسار وتقوّمه .

1- شعر الحروب والفتن، ص106.

الفصل الثاني:

مضامين شعر المغرب الإسلامي خلال القرن التّاسع الهجري

1- الشّعر الموضوعي

2- الشّعر الوجداني

إنّ القرن التّاسع الهجري تميّز بأغراض متنوّعة نظم فيها الشّعراء قصائد ومقطّعات و إن كانت قليلة مقارنة بالقرن الثّامن، وكان هذا لأسباب عديدة منها هجرة شعراء الأندلس إلى المشرق، وكذلك الصّراعات السياسية في منطقة المغرب الأقصى و الأدنى والأوسط فكلّ دولة حاولت التّوسع على حساب جارتها، ومع ذلك كلّه فقد برز شعراء نظموا في الشّعر الموضوعي و الوجداني و الدّيني و الذّاتي وهذا بحسب المقام والظّروف والأحوال.

1- الشّعر الموضوعي :

أ- المدح :

و ممّن قال في المدح من أهل هذا القرن ابن جابر الغساني المكناسي[1]، مدح رسول الله ﷺ في قصيدته فقال:(كامل تامّ)

مَدَحَتْكَ آيَاتُ الكِتَابِ فَمَا عَسَى   يُثْنِي عَلَى عَلْيَاكَ نَظْمُ مَدِيحِي
وَ إِذَا كِتَابُ اللَّهِ أَثْنَى مُفْصِحًا   كَانَ القُصُورُ قُصَارَ كُلِّ فَصِيحِ[2]

الشّاعر يبيّن في هذين البيتين أنّ القرآن هو من أول من مدح النبيﷺ و كان ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:4]ثمّ أتبع ذلك بقوله: وأمّا مدحي فما يرفع من قدرك كما رفعك القرآن، فكلّ مدح مهما كان فصيحا وعلا شأنه فهو دون مدح القرآن الكريم.

ب- الوصف :

1- وصف أهل تلمسان :

قال ابن مرزوق الحفيد وهو يصف أهل تلمسان و كان ذلك في رجز له في علم الحديث :(رجز)

وَ مَنْ بِهَا أَهْلُ ذَكَاءٍ وَ فِطَنْ   فِي رَابِعٍ مِنْ الأَقَالِيمِ قَطَنْ*

1- مُحَمَّد بن يحيى بن مُحَمَّد بن جابر الغساني (ت827ه)، من أهل مكناسة له نظم في علم الرؤيا، كان أديبا شهيرا و شاعرا مجيدا، كما كان مصنفا بارعا و عالما بالقراءات، له نزهة الناظر- رجز في التعريف ببلده مكناسة- و له كتاب في رسم القرآن و غيرهما، (ينظر:طتاريخ الأدب العربي"،عمر فروخ، ج6، ص623/624) .

2- نفح الطّيب، ج5، ص167 .

* قطن: القطون: الإقامة،"لسان العرب"، ج13، ص342، حرف النون، فصل القاف، مادة (ق ط ن) .

يَكْفِيكَ أَنَّ الدَّاوُدِيْ[1] بِهَا دُفِنْ مَعْ ضَجِيعِه اِبْنِ غَزْلُونَ الفَطِنْ[2]

فالشّاعر يصف أهل تلمسان بأنّهم أهل ذكاء و فطانة و أنّ المدينة تقع في جهة جميلة وأنّها الإقليم الرّابع الذي مكث فيه الدّاودي العالم المحدّث الذي شرح صحيح البخاري بل كان من السّباقين لشرحه، حتّى أنّه سبق ابن حجر في ذلك، و قد ذكره هذا الأخير في شرحه، واستدلّ به في شرح عدّة أحاديث في كتابه الفتح؛ "فحاز به الفضل على غيره من جميع من تقدّمه أو تأخّر عنه من علماء الإسلام و سمّاه النّصيحة، فإنّه شرح وقع لهذا الكتاب الجليل إذ لم يسبقه غيره مطلقا إلى هذا الفضل"[3]. ودفن الدّاودي في تلمسان و درّس بها علوما كثيرة، أمّا أبو جعفر ابن غزلون التّطيلي الأندلسي هو كذلك شرفت تلمسان بموته وكان قبره بجانب قبر الدّاودي، فهؤلاء أعلام شرّفوا تلمسان ورفعوا من قدرها فعلا صيتها في كل مكان حتّى نالت مكانة علمية مرموقة وصارت عاصمة العلم آنذاك في المغرب الأوسط .

2- وصف الرّبيع :

ولشهاب الدّين بن الخلّوف[4]أبيات يصف فيها الرّبيع وهو يقلّد فيها البحتري فقال:(طويل)

رَأَى البَرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا وَصَافَحَ أَزْهَارَ الرُّبَى فَتَنَسَّمَا[5]

1- أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي من أئمة المالكية المتعين في العلم المجيدين للتأليف، أصله من مسيلة، كان بطرابلس و بها أملى كتابه في شرح الموطأ، ثم انتقل إلى تلمسان، كان فقيها فاضلا عالما متفنّنا مؤلّفا مجيدا، له حظّ من اللّسان والحديث والنّظر، ألف عدّة مؤلّفات منها : الواعي في الفقه، والنّصيحة في شرح البخاري، والإيضاح في الرّد على الفكرية، وكتاب الأصول، وغير ذلك. قال حاتم الطرابلسي: توفي بتلمسان سنة 402هـ. وقبره عند باب العقبة. (ينظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المغرب، ط2، 1403هـ/1983م، ج7، ص103/102).

2- نفح الطيب، ج5، ص433.

3- تاريخ الجزائر العام، ج1، ص306.

4- أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الرحمن الشهاب و يعرف بالخلوف، ولد سنة 829هـ في تونس، أصله من قسنطينة مالكي المذهب، درس في القدس و تعلم على جماعة من العلماء، و لازم النويري في الفقه و العربية و الأصول، و غيرها ثم اتجه إلى القاهرة و أخذ عن علمائها: عن العز بن عبد السلام، ثم رجع إلى بلاد المغرب، توفي سنة 902هـ، (ينظر: "الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع"، للسخّاوي، تحقيق أحمد بن عثمان الصلف، ج2، ص123/122).

5- تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص686.

الشّاعر يصف الرّبيع و يبيّن مكانته وأنّه يبهج النّاظرين بجماله، فالله تعالى جعله فصلا تبتهج فيه المناظر الطبيعيّة، تتفتّح فيه الأزهار وتنتعش جميع المخلوقات، فبعدما كانت الحيوانات والنّباتات مختفية ومتسترة ظهرت وتفتّحت لتسرّ النّاظرين وتبهجهم.

ج- الشّكوى :

1- الشّكوى من الجهّال :

وممّن نظم في الشّكوى من الجهّال في هذه الفترة ابن غازي المكناسي[1] فقال :

طَلَّقْتُ مَكْـــنَـاسَةً ثَـلاَثًا   وَ الشَّرْعُ يَأْبَى الرُّجُوعَ فِيه   (مخلّع البسيط)

لَيْسَتْ بِدَارٍ سِوَى لِقَاضٍ   أَوْ عَـامِلٍ جَـوْرٍ أَوْ سَفِـيهِ   =

أَقَمْتُ بِمَكْنَـاسَـةٍ مُـدَّةً   أُعَـلِّمُ أَبْنَاءَهَا مَا الكَـلاَمْ   (بحر المتقارب)

فَلَـمَّا تَوَهَّـمَهُ بَعْـضُـهُـمْ   عَـلَيَّ بِهِ بَخِلُوا وَ السَّـلاَمْ[2]   =

الشّاعر شكا أهل مكناسة وهو يريد أن يخرج منها ولا يعود إليها أبدا؛ فحكمها عنده حكم المطلّقة ثلاثا، البائنة بينونة كبرى فلا يراجعها أبدا، فهي لا تصلح إلا لقاض جائر أو سفيه همّه جمع المال والغنيمة؛ والسّبب هو أنّ الشّاعر لمّا استقرّ أمره فيها، وبدأ بعض أهلها يتعلّمون عنه قواعد الكلام التي تساعد صاحبها على فهم العلم ومواصلة التّعلم ترفّعوا عنه ظنّا منهم أنّ ساعدهم اشتدّ فيه وهم في الحقيقة كما قال الشّاعر متوهّمون، فأمْسَكوا عن إكرامهم له وتوقيره، وتركوه قائما فاشتدّ غضبه لفعلتهم هذه وجهلهم بمكانته فقرّر الخروج من مكناسة شاكيا إلى الله حالهم، ساخطا عليهم.

2- الشّكوى من الأعداء :

و لأبي عبدالله العربي العقيلي[3] موشّحة في هذا الغرض، يشتكي فيها إلى الله من

1- شيخ الجماعة أبو عبد الله مُحَمّد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي، ولد في مكناسة الزّيتون سنة 841ه، تلقى العلم فيها ثم انتقل إلى فاس و ولي الخطابة في جامع القرويين و تصدر فيه للتّدريس، توفّي سنة 919ه. (ينظر: تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص695/696).

2- المرجع نفسه، ج6، ص696/697.

3- أبو عبد الله العربي العقيلي كان كاتبا في غرناطة في أيام آخر سلاطينها أبي عبد الله مُحَمّد بن علي في ولايته الثّانية (من 892ه إلى 898ه)، فقد كان كاتبا بارعا و مجيدا، توفي سنة 928ه. (ينظر: المرجع نفسه، ج6، ص698).

شدّة الحصار الذي سُلّط على غرناطة وهم يقرعون الطّبول وينفخون بالنّقير إرهابا للمسلمين وإضعافا لنفوسهم قال فيها :(المجتث)

بِالطَّبْلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَ بِالنَّقِــيرِ نُـزَاعُ
وَ لَيْسَ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَ ذَاكَ إِلاَّ الْقِـرَاعُ*
يَا رَبِّ جَبْرَكَ يَرْجُو مَنْ هِيْضَ* مِنْهُ الذِّرَاعُ
لاَ تَسْلُبَنِّيَ صَبْرًا مِنْهُ لِقَلْبِي ادِّرَاعُ[1]

فالشّاعر يشتكي إلى باريه ضعف قومه و تسلط الأعداء عليهم و ارهابهم لهم بالطّبول و قوّة العدد والعدّة، فإنّ الذّراع الذي يحصّن به نفسه قد هدّ وكسر فما بقي له إلاّ الصّبر والتضرّع إلى الله ودعاؤه حتّى يثبّته ويفرغ عليه صبرا، ويرزقه البصيرة والرّشد والسّداد في القول والعمل .

د- النّصح و الإرشاد:

نظم أبو يحيى بن عتيبة القفصي[2] أبياتا ينصح فيها ويرشد القاضي أحمد القلشاني فقال له:(الطّويل)

عَلَيْكَ أُخَيَّ بِالتُّقَى وَ لُزُومِهِ وَ لاَ تَكْتَرِثْ مَا فِيهِ زَيْدٌ وَ لاَ عَمْرُو
وَ كُنْ مُنْشِدًا مَا قَالَ بَعْضُ أُولِي النُّهَى فَكَمْ مِنْ حِكْمَةٍ غَرَّاءَ قَيَّدَهَا الشِّعْرُ
إِذَا الْمَرْءُ جَازَ الأَرْبَعِينَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَ لاَ سِتْرٌ
فَدَعْهُ وَ لاَ تَنْفُسْ عَلَيْهِ الَّذِي أَتَى وَ إِنْ مَدَّ أَسْبَابَ الحَيَاةِ لَهُ العُمْرُ[3]

الشّاعر ينصح القاضي أحمد القلشاني أن يتقي الله و لا يكثر من الجدال و النّزاع على أغراض الدّنيا وأن يأخذ النّصيحة حتّى من قول الشّعراء وحكمهم فهذا ما قرّره أولو العقول

* القراع: القراع والمقارعة: الضرب بالسّيوف، "لسان العرب"، ج8، ص264،حرف العين،فصل القاف،مادة(ق ر ع)
* هيض: كسره بعد الجبور،و هو كل وجع على وجع، المصدر نفسه، ج7، ص249، حرف الضاد، فصل الهاء، مادة (ه ي ض) .

1- نفح الطيب، ج4، ص550 .
2- كان أبو يحيى بن عقيبة رجلا صالحا و علامة بارعا و فقيها معروفا، أخذ العلم عن ابن عرفة فقيه تونس و عالمها وخطيبها في عصره و عن ابن مهدي و غيرهما، كان معاصرا لابن مرزوق الحفيد، كانت وفاته سنة 870هـ. (ينظر: تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص633) .
3- المرجع نفسه، ج6، ص633.

والنّهى، ولا تلتفت إلى صاحب الأربعين إن لم يستح من فعل المنكرات، فلا بدّ أن يأتي يوم يدخل فيه القبر و يندم، فلا مفرّ من ذلك اليوم ولات حين مناص.

هـ- الغزل :

نظم أبو عبد الكريم الغرناطي[1] شعرا يتغزّل فيه بصبيّة نصرانيّة حين كان أسيرا فقال:

وَ أَعْجَبَ عُبَّادَ الصَّلِيبِ صَبِيَّةٌ سَبَتْنِي بِوَجْهٍ مِثْلَ بَـدْرٍ مُتَمَّمِ (طويل)

فَبِتُّ حَلِيفَ الهَمِّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهَا وَ بَاتَتْ بِهَجْرِي فِي فِـرَاشٍ تَنَعُّمِ

وَ كَمْ نَعَّمَتْنِي مِنْ لَذِيذِ وِصَالِهَا بِمَا لَمْ تَصِلْ نَفْسِي لَهُ بِتَـوَهُّـمِ

فَقَبَّلْتُ مِنْهَا الخَدَّ وَ هُوَ مُـوَرَّدٌ وَ ثَنَّيْتُ بالثَّغْرِ المَلِيحِ التَّبَسُّمِ[2]

في هذه الأبيات يتغزّل النّاظم بصبيّة نصرانيّة رءاها وهو في السّجن أسيرا ليرفّه عن نفسه بها، حيث لفتت انتباهه وأعجب بها و صار يستأنس بوجودها ورؤيتها، إذ هو وحيد في السّجن قد ذاق مرارته وبأسه عند النّصارى، وليس معه حبيب ولا صديق حميم يأنس إليه فقال فيها هذه الأبيات .

و- الهزل و السّخف:

و ممّن نظم في هذا الغرض ابن الأزرق[3] :(رجز مجزوء)

لاَ أُمَّ لِي لاَ أُمَّ لِـي إِنْ لَمْ أُبَـــرِّدْ شَجَـنِي*

وَ أَخْلَعَنَّ فِي المُجُـو نِ* وَ التَّصَـابِي رَسَـنِي*

1- عبد الكريم بن مُحَّد القيسي الغرناطي ولد في بسطة على مئة و عشرين كيلومترا شمال شرقي غرناطة في أوائل القرن التاسع للهجرة، برع في الفقه و عمل في التّوثيق، لم يكن على شيء من بسطة العيش و لكن كان على شيء من الشّهرة في الفقه في الدين، كان شاعرا واضح التعبير كثير الصّدق و الإخلاص قليل التّكلف، و فنون شعره الوصف و الغزل مع العفاف ثم الرثاء و الهجاء (ينظر: نفح الطّيب، ج6، ص671).

2- المصدر نفسه، ج6، ص673/672.

3- قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله مُحَّد بن علي بن مُحَّد بن أحمد بن القاسم بن الأزرق الأصبحي الغرناطي من أهل وادي آش، ولد سنة 832هـ، تلقى العلم في غرناطة، و أخذ عن مفتيها أحمد بن فتوح في أصول الدين و الفقه و أصول الفقه و النحو و المنطق، و حضر مجالس أخرى في العلم، تولى القضاء في غرناطة ثم غادرها إلى تلمسان ثم إلى مصر، توفي في 17 ذي الحجّة 896هـ. (ينظر: تاريخ الأدب العربي فروخ، ج6، ص662/661) .

* شجني: الشجن: الهم و الحزن، "لسان العرب"، ج13، ص232، حرف النون، فصل الشين، مادة (ش ج ن).

* المجون: أن لا يبالي الإنسان بما صنع، المصدر نفسه، ج13، ص400، حرف النون، فصل الميم، مادة (م ج ن).

* رسني: رسنها: شدّها، المصدر نفسه، ج13، ص180، حرف النون، فصل الراء، مادة (ر س ن).

أَفْدِي صَدِيقًا كَانَ لِي   بِنَفْسِـهِ يُسْـعِـــدُنِي
فَتَـــارَةً أَنْصَـحُهُ   وَ تَـــارَةً يَنْصَـحُـنِي
وَ تَـــارَةً أَلْعَـــنُهُ   وَ تَـــارَةً يَلْـعَـنُـنِي
وَ رُبَّـمَا أَصْفَـــعُهُ   وَرُبَّـــمَا يَصْـفَـعُـنِي[1]

الشّاعر يلوم نفسه في بداية المقطع إذ أنّه ليس على حق إن لم يفعل كذا وكذا، ثم حكى عن صباه وما كان يدور فيه من مصاحبة صديق له، وكيف كانت صحبته معه، فكان يسعده ويتبادلان النصح تارة ، كما يتبادلان اللّعنة والصفعة والضّرب تارة أخرى وهذا حال الصّبى ومخالطة الأصحاب، ففيه من اللّعب والمزاح الشّيء الكثير الكثير، فبدى للشّاعر أن ينظم مثل هذه الأبيات حتّى يتسلى بها ويذكّر نفسه بما حصل له في الصّغر.

ز- الحنين:

إن ممّا لا شكّ فيه أنّ لكل اجتماع افتراق، أحبب من شئت فإنّك مفارقه، هذا ما حصل لبعض علماء المغرب عموما ولأهل الأندلس خصوصا؛ ابتعدوا عن أحبّائهم وأوطانهم فنظموا شعرا يشتكون فيه مرارة هذه الفرقة والابتعاد عن الوطن وذلّ الشّجن، ومن أولئك الشّعراء والعلماء عبد الكريم القيسي الذي اشتدّ حنينه إلى مدينته لمّا خرج لطلب الرّزق في مدن الأندلس أيّام الاحتلال القشتالي، وأثناء تنقّله فيها وقع أسيرا عندهم و مكث في أسرهم طويلا، وتعرّض للذّل و المهانة، حينها نظم الشّاعر أبياتا يعرب فيها عن اشتياقه لأهله وأحبته، وشوقه إلى دياره ووطنه بسْطَة ، فقال :(كامل تامّ)

إِنِّي فَضَضْتُ عَنِ الدُّمُوعِ خِتَامَا   فَغَدَتْ تَسِيلُ بِوَجْنَتَيَّ غَمَامَا
شَـوْقًا إِلَىَ عَـيْشٍ مَضَى بِأَحِبَّةٍ   كَانُوا وَ عَيْشُهُمُ عَـلَيَّ كِـرَامَا
يَا سَاكِنِينَ بِبَسْطَةَ دُونِي وَ لِي   قَلْبٌ بِهِمْ مَا يَسْتَفِيقُ غَـرَامَا
وَ إِنَّنِي وَ إِنْ كُنْتُ عَنْكُمْ نَـازِحًا   فَالقَلْبُ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ أَقَامَا[2]

الشّاعر في هذه الأبيات يبكي ألم فراق أهله و ولده وأحبّته ووطنه فهو في سجن النّصارى وقلبه ينفطر شوقا إلى لقاء أحبّته ورؤيتهم فدموعه تسيل لأجلهم كأنها غمام تمطر فحنين الشّاعر إلى أهله جعله يتكلّم عنهم وكأنّه مقيم في بسطة و التي وصفها فقال :

1- تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص662.

2- الحنين والغربة في الشّعر الأندلسي، ص81.

بِـلاَدٌ بِهَـا الحَصْبَـاءُ دُرٌّ وَ تُرْبُهَـا عَبِيْرٌ وَ أَنْفَاسُ الرِّيَــاحِ شُمُـولُ (الطّويل)
تَسَلْسَلَ مِنْهَا مَاؤُهَا وَ هْوَ مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرَّوْضِ وَ هْوَ عَلِيلُ =
وَ دَعِ الحَـنِينَ لِبَسْطَةَ وَ رُبُوعِـهَا إِنَّ الحَـنِينَ يَهِيــجُ مِـنْهُ غَلِيـلُ[1] (الكامل)

لقد أبدى الشّاعر حنينه لبلاده فذهب يصفها ويشبّه حصاها بالدّرّ والياقوت وترابها كأنّه عبير الورد وماؤها يتسلسل كالأنهار، ونسيم الرّوض فيها يصحّ به كل مريض سقيم وعليل وفي آخر البيت يكرّر حنينه لبلده بسْطَة .

و كذلك ابن الأحمر[2]: "أصيب هذا الابن في الأندلس بالمحنة النّازلة في النّفس النّازلة بالإحنة لمّا ضربه بالسّياط السّلطان يوسف بن عمر، من غير ذنب اقترفه بل ظلمه ظلما مبينا.. ثم أمر رضا ربه بنفيه، حيث القلوب من فرق الفراق تألمت بالانصداع، نظر إلى ملعب صبواته ومحل روْحاته وغدواته، فحنّ حنين الرّؤام* و أشرف من الشّوق على الموت الزّؤام*"[3]، فنظم شعرا يحنّ فيه إلى وطنه فقال :(كامل تامّ)

ذَهَبَتْ حُشَاشَةُ*قَلْبِيَ المَصْدُوعِ بَيْنَ السَّـلاَمِ وَ وَقْـفَـةِ التَّـوْدِيـعِ
أَنْجِدْ بِدَمْعِكَ يَا غَـمَـامُ فَإِنَّنِي لَمْ أَرْضَ يَوْمَ البَيْنِ فِعْلَ دُمُوعِي
مَنْ كَانَ يَبْكِي الظَّاعِـنِينَ بِأَدْمُـعٍ فَــأَنَا الَّـذِي أَبْكِيهِمُ بِنَجِيعٍ*
إِيهٍ وَ بَيْنَ الصَّدْرِ مِنِّي وَ الحَشَا شَجَنٌ*طَوَيْتُ عَلَى شَجَاهُ ضُلُوعِي

1- الحنين و الغربة في الشّعر الأندلسي : ص81.
2- هو الثّالث عشر من ملوك غرناطة، كانت أيّامه أيّام ضعف و اضطراب لاستمرار تنازع أمراء بني الأحمر، و قد كان أديبا ناثرا و شاعرا ناظما، و من فنون شعره المولديّات و الرّثاء و الحماسة و الغزل، مع تقليد ظاهر فيه لشعراء المشرق.
* الرؤام: من رأم رئمت الناقة، عطفت عليه و لزمته و أحبته، "لسان العرب"، ج12، ص223، حرف الميم، فصل الراء مادة (ر أ م).
* الزّؤام: زئم الرجل: فزع و اشتدّ ذعره، المصدر نفسه، ج12، ص261، حرف الميم، فصل الزاي، مادة (ز أ م) .
3- نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف بن مُحَمَّد ، تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، دار الثّقافة للنّشر و التّوزيع، بيروت، 1967م، ص295/296.
* الحشاشة: روح القلب و رمق حياة النّفس، "لسان العرب"، ج6، ص284، حرف الشّين، فصل الحاء، مادّة (ح ش ش).
* نجيع: الدم و قيل هو دم الجوف خاصة، المصدر نفسه، ج8، ص348، حرف العين، فصل النون، مادة (ن ج ع).
* الشجن: الهمّ والحزن، المصدر نفسه، ج14، ص422، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الشين، مادة (ش ج ا).

يَا قَلْبُ لاَ تَجْزَعْ لِمَا فَعَلَ الهَـوَى   فَالحُـــرُّ لَيْسَ لِحَـادِثٍ بِجَـزُوعِ[1]

فالشّاعر ابن الأحمر عبّر من خلال هذه الأشعار عن ألم فراقه لوطنه، وكان ذلك بسبب الفتن والوشاية الظّالمة، فلم يبق له إلاّ قول الشّعر في هذه الغربة التي أوجعت قلبه لحنّ إلى غرناطة، وكتب هذه الأبيات يشكو فيها ألم الفراق، وقال إنّ الذين يشتكونه بسبب سفرهم هذا سيعودون إليه حتما فلم البكاء؟! فأنا الذي أشتكي حقيقة الفرقة و البعد عن الوطن بسبب نفيي، فيحقّ لي أن أبكي دم جوفي لهذا الجلل و البعد، فلربّما لا تتاح لي فرصة العودة مرّة أخرى إلى بلادي، فأنا أشتكي الهمّ والحزن والذي أحسّ به داخل أحشائي و صدري وبين ضلوعي، وفي آخر البيت يصبِّ الشّاعر نفسه ويقول لها: إنّ الحرّ لا يجزع عند الحوادث، بل يصبر و يحتسب وأجره عند الله .

إن شعر الحنين في هذه الفترة قيل لعدّة أسباب منها: النّفي ظلما و التّهجير من العدوّ لزوما، فلهذا وغيره قيل شعر الحنين، فاشتكت النّفوس والأفئدة من الظّلم، نظم الشّعراء فيه قصائد ومقاطع، فهو حنين يخرج من هو مريض بالشّوق و الحبّ لبلده وأهله.. .

أخيرا نقول أنّ شعر الحنين كان ينظمه الشّعراء عموما إذا ابتعدوا عن بلادهم وأحبّتهم و أقاربهم لشتّى الظّروف والأسباب، إمّا لطلبهم العلم أو الرّزق أو سجنهم أو هجرتهم إلى بلاد أخرى مرغمين، فكان الشّعراء يبدون حبّهم لأوطانهم فيحنّون إليها شوقا في أهليهم وأبنائهم.. .

ح- الهجاء:

من الهجاء الذي قيل في هذا القرن الهجاء السّياسي، فقد نظمه الشّعراء لمّا سقطت الأندلس و غابت شمس الجزيرة الخضراء، ندبها وشكى أزمانها العديد من الشّعراء الذين ما تحمّلوا هذا الأمر العظيم، والجلل الكبير الذي ألم بأهلها فعبّروا عن مشاعرهم بنوع من السّخط واللّوم والتّقريع لمن أعان في محو العروبة والإسلام من أرض تمجّدت ببقائهما فيها ما يقارب ثمانية قرون، فمِنَ الذين قالوا في هذا الأمر هجاء أحمد بن مُحَمَّد بن يوسف الصّنهاجي المشهور بالدّقون[2] ، حيث قال:(بسيط تامّ)

يَا أَهْلَ فَاسَ أَمَا فِي الغَيْرِ مَوْعِظَةٌ   إِنَّ السَّعِيـدَ لَمَوْعُـوظٌ بِأَمْثَـالِ

1- نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ابن الأحمر، ص296.

2- توفي مستهل شعبان سنة 921هـ، ينظر: "أزهار الرياض"، المقري، ج1، ص104.

فَقُلْ تَعَالَـوْا إِلَى نُصْـحٍ وَ تَذْكِـرَةٍ فَالأَمْرُ جِدٌّ فَلاَ تَصْحَبْ لِمِكْسَالِ
كَيفَ الحَيَاةُ إِذَا الحَيَّاتُ قَدْ نَفَحَتْ عَلَى السَّوَاحِلِ أَوْ هَمَّتْ بِإِرْسَـالِ[1]

الشّاعر يهجو أهل فاس و أراد أهل المغرب الأقصى عموما و من يجاورهم، فهو يريد بذلك أن يعودوا إلى رشدهم و يعاودوا النّظر في أمرهم، لماذا تركتم أهل الأندلس يهجرون وطنهم؟ و لم تعينوهم في أمرهم؟ و تركتم الأندلس للأفاعي و الحيّات تلدغها من كلّ جانب، فالأمر لا يحتاج إلى تفكير بل يحتاج إلى عمل و جدّ و جهاد مع أهل الأندلس ضدّ الأعداء، فلا نريد أن يضيع أمرنا بين النّزاعات حتّى تذهب قوّتنا و هذا ما يريده الأعداء فنفشل و يذهب ريحنا، فلا تتركونا للحيّات تلسع من كلّ مكان حتّى تقتل فريستها و تتمكّن منها، و الله المستعان.

و بهذا نستطيع أن نقول بأنّ القرن التّاسع الهجري و إن تنوّعت فيه الأغراض إلا أنّ نظم الشّعر قلّ فيه مقارنة بالقرن الثّامن، ففي القرون المتقدّمة كان المغرب الإسلامي مستقرّا إلى حدّ كبير سياسيا و حضاريّا، أما القرن التّاسع فبدأت الدّول الإسلامية تتزعزع من كلّ جانب؛ غرناطة مثلا آخر معقل للمسلمين في الأندلس ضاع من أيدي المسلمين أمّا عن الدّول الأخرى؛ كالمرينيّين و الزّيانيّين و الحفصيّين لم يكونوا في استقرار كبير بل صاروا يتنافسون على التّوسع فيما بينهم كلّ على حساب الآخر فضيّعوا العلم و الحضارة إلى أن تلاشى حكمهم و ذهبت ريحهم و خلفهم غيرهم.

1- : أزهار الرياض، ج1، ص107.

الباب الثّاني:

المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي خلال القرن الثّامن والتّاسع الهجريين.

الفصل الأوّل:

المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي خلال القرن الثّامن الهجري

1- شعر المولديّـــــــــات
2- الدّعوة إلى العلم ومزاحمة العلماء
3- الدّعوة إلى الأخلاق الفاضلة
4- وصف المباني والقصور
5- وصف آلة نفط
6- وصف ناعورة

إذا كانت الحضارة نمطَ حياةٍ متقدّمة للإنسان في مجال تفكيره و خياله وما تنجزه يده وما يتوصّل إليه بإبداعه في شتّى المجالات، فإنّ الشّعر هو كذلك إبداع فكري و خيالي يعبر فيه الشاعر عمّا يجول في خاطره بطريقة فنيّة و جماليّة و بلاغيّة عن أشياء يعيشها في واقعه أو في خياله؛ سواء كان ذلك في أمور حضاريّة أو في غيرها، طيلة أزمنة عديدة وفترات مديدة، ومن تلك الفترات القرن الثّامن الهجري، و الذي برزت فيه معالم حضاريّة عاشها أهل المغرب الإسلامي طيلة هذا القرن، فعبّر عنها الشّعراء في قصائد ومقطوعات شعريّة وصفت لنا هذه المظاهر الحضاريّة وهذا ما سأتطرّق إليه في هذا الفصل بالوصف و التّحليل، و الله الموفّق والمعين .

1 - المولديّات:

جاء في لسان العرب:" مولد الرّجل وقت ولادته، ومولده الموضع الذي ولد فيه وولدته الأمّ تلده مولدا، و ميلاد الرّجل: اسم الوقت الذي ولد فيه"[1].

والمولد النّبوي هو اليوم الذي ولد فيه النّبي ﷺ و كان ذلك يوم الثّاني عشر ربيع الأوّل من عام الفيل[2]، وهو أعظم منّة مَنَّ الله سبحانه و تعالى بها على عباده، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ أَللَّهُ عَلَى أَلْمُومِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنَ اَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ أَلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:164].

فهذا اليوم صار مقدَّسًا عند المسلمين، وقامت عليه احتفالات في المشرق والمغرب وسُمّيَ: الاحتفال بالمولد النّبوي. فكلّما جاء يوم الثّاني عشر من ربيع الأوّل من كل سنة هجريّة قام بعض المسلمين بالاحتفال بهذا اليوم كلٌّ على حسب عادته و تقاليده. بدأت ظاهرة هذا الاحتفال في عهد الفاطميين (341هـ/365هـ). وأوّل من دعا لها بالمغرب بنو العزّ في سبتة في أواخر القرن السّادس الهجري. وأوّل من احتفل به من الحكّام في المغرب

1- ابن منظور، ج3، ص468، حرف الدّال، فصل الواو، مادة (و ل د).

2- السّيرة النّبويّة لابن هشام، علّق عليها و خرّج أحاديثها و صنع فهارسها: عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1410هـ/1990م، ج1، ص183.

هم بنو مرين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق (656هـ/685هـ). و ظلّت هذه الظاهرة حتّى شملت جميع أقاليم المغرب الأقصى في عهد السّلطان يوسف بن يعقوب (685هـ/706هـ) الذي لم يتوان في تعميمها والدّعوة إلى تعظيمها، وأصدر بذلك مرسوما سلطانيّا في آخر صفر سنة (691هـ) يجعل المولد من الأعياد الرّسميّة. أمّا في تونس لم يكن منتظما إلاّ في عهد أبي فارس عبد العزيز (796هـ/837هـ). وظهر أيضا في الأندلس أيّام السّلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل (733هـ/755هـ)[1].

أمّا الدّولة الزّيانيّة بالمغرب الأوسط لم تعرف الاحتفال بالمولد إلاّ في وقت متأخّر عن جيرانها و ذلك وفق ما تشير إليه معظم المصادر التي تجمع على أنّ تاريخ شيوعه في تلمسان بدأ مع تولي أبي حمو موسى الثّاني مقاليد الحكم (760هـ) و كان سبب هذا أنّ المذهب الدّيني الشّائع والذي كان يتبعه فقهاء تلمسان و غيرهم من العوام هو المذهب المالكي؛ فالذين يعملون برأي الإمام مالك - قدّس الله روحه - يعدّون هذا الاحتفال بدعة مردودة. فهم يرون أنّ كلّ ما استحدث بعد رسول الله ﷺ يعدّ ضلالة، و في هذا الشّأن يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى:"من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنّ محمّدا ﷺ قد خان الرّسالة". وما لم يكن يومئذ دينا؛ فلا يكون اليوم دينا. واستند كذلك هؤلاء إلى أنّ السّلف الصّالح من أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم لم يقوموا بهذا الاحتفال على امتداد القرون الثّلاثة المفضّلة التي يشهد لها بالاجتهاد و الخير[2] .ولهذا ذهب أئمّة المالكيّة في تلك الفترة ببدعيّة هذا الاحتفال، وقد كتب تاج الدّين الفاكهاني المالكي(ت 734هـ) كتابا سمّاه: "المورد في عمل المولد"، والذي صرّح فيه فقال : " لا أعلم لهذا المولد أصلا في كتاب ولا سنة، ولا ينقل عن أحد من علماء الأمّة الذين هم القدوة في الدّين المتمسّكون بآثار المتقدّمين، بل هو بدعة أحدثها البطّالون وشهوة نفس اعتنى بها الأكّالون"[3].

1- تلمسان في العهد الزياني، عبدالعزيز فيلالي، موفم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2002، ج1 ص276/274.

2- ينظر المرجع نفسه، ج1، ص 276/282.

3- تحقيق: علي حسن الحلبي الأثري، دار المعارف، الرياض،1407هـ، ص4.

وذهب آخرون إلى جوازه كالإمام السّيوطي في كتابه : "الحاوي في الفتاوي" و غيره[1]، و من المؤلفات كذلك التي تناولت حكم المولد النّبوي : "التّنوير في مولد البشير" لأبي الخطاب ابن دحية، و كذلك "حسن المقصد في عمل المولد" للسّيوطي[2].

من ذهب إلى جوازه من الفقهاء والشّعراء باتوا يؤلّفون القصائد في مدح المصطفى ﷺ حتّى تنوّعت و كثرت في هذه الفترة، بل صارت تعرض و تقرأ يوم المولد أمام السّلطان وكان يحضر ذلك المجلس جمّ غفير من النّاس، و قد وصف ذلك مُحَّد ابن مرزوق التّلمساني في كتابه "المسند الصّحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" فقال: "فإذا فرغ التّرتيب وأخذ النّاس مجالسهم دُعيَ بالطّعام، فاشتغل به على ترتيب ونظام.. فإذا قضي شأن الطّعام أحضر من الفواكه الحاضرة..، ثم يؤتى باليابس بعدها، ثم يؤتى بالكعك و الحلاوات..، فإذا استوت المجالس و انقض اللّغط ولا تكاد تسمع صوتا و لا همسا، قام قارئ العشر فقرأ ويشرع في قصائد المدح والتّهاني، فتقرأ على نظام محفوظ وترتيب محوط، على قدر منازل الرّتب والمناصب.."[3].

إنّ الشّعراء في المغرب كانوا سبّاقين إلى الاحتفال بمولد النّبي ﷺ و نظم الكثير من القصائد في مدحه و تعداد مناقبه الفاضلة، و ذكر صفاته الحميدة و سيرته النّبوية الشّريفة و الأمكنة المقدّسة التي وطئها نبيّنا المحبوب[4]، إذ تتميز المولديّات عن غيرها من الشّعر بتعدّد الأغراض و المواضيع خلافا للشّعر العربي القديم، فهي تتكون على مستوى البناء من المقدمة الغزلية وصف المطيّة ومدح الرّسول ﷺ ، ثم الصّلاة عليه، والدّعاء والاستغفار، وبعضهم يستفتح القصيدة النّبويّة بمقدّمة نسيبيّة صوفيّة، يتشوّقون فيها

1- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1403هـ/1983م، ج1، ص191.

2- المولد النّبوي الشّريف، صلاح الدين الهواري، دار و مكتبة الهلال، دار البحار، بيروت، لبنان، ط1 2005، ص5.

3- دراسة و تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1401هـ/1981م ص154/153.

4- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، صونيا بوعبد الله، إشراف علي عالية 1431هـ- 1432هـ/ 2010،2011م، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، قسم اللّغة العربية و آدابها، ص68.

إلى رؤية الشّفيع وزيارة الأمكنة المقدّسة، ومزارات الحرم الشّريف، ثم ينتقل إلى وصف تلك الأماكن مع مدح للنّبي ﷺ وعرضهم لذنوبهم الكثيرة و سيئاتهم العديدة، طالبين من الحبيب الشّفاعة يوم القيامة، ثم ينهونها بالدّعاء و الصّلاة عليه؛ فأبدعوا بذلك قصائد مركّبة تبدأ بالمقدّمة ثم الغرض الرّئيس والخاتمة.

أ- مقدّمة القصيدة المولديّة :

سبق وأن تكلّمنا عن المقدّمة في القصيدة وأنّ ابن رشيق يحدّد أهميتها في مطلع القصيدة بقوله: "فإنّ الشّعر قفل أوله مفتاحه، و ينبغي للشّاعر أن يجود فيه فإنّه أوّل ما يقرع السّمع و به يستدلّ على ما عنده من أوّل وهلة"[1]. فشعراء المولديّة حافظوا على نظام القصيدة العربية. فكان الشّاعر يبدأ قصيدته بمقدّمة طلليّة أو غزليّة، أو مقدّمة الشّباب و الشّيب أو الرّحلة إلى البقاع المقدّسة[2]. وقد نحا يوسف الثّغري التّلمسانى هذا النّحو في قصيدة قالها بمناسبة الاحتفال بالمولد النّبوي وهي داليّة من بحر الطّويل فابتدأها بمقدّمة طلليّة قال فيها[3]:

أُعَلِّلُ نَفْسِي وَ التَّعَـــلُّلُ لاَ يُجْدِي   وَ إِنْ كانَ أَحْيَانًا يُسَكِّنُ مِنْ وَجْدِي

فَهَلْ مِنْ سَبِيــــلٍ وَ الأَمَـانِيُّ ضُلَّةٌ   إِلَى مَعْهَدٍ بِالْأُنْسِ طَـالَ بِهِ عَـهْدِي

وَأَيَّـامِ وَصْـلٍ كُلُّهُنَّ أَصَــــائِـلٌ*   وَ مَـاضِي زَمَــــانٍ كُلّهُ زَمَنُ الْوَرْدِ

سَمَحْتُ بِدَمْعِي لِلطُّلُـولِ*مُسَــائِلاً   رُسُومَ الهَـوَى لَوْ أَنَّ تسالَـهاَ يُجْدِي

1- العمدة، ج1، ص18.

2- ينظر: قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين ، ص70.

3- تاريخ بني زيان لملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدّرر و العقيان في بيان شرف بني زيان)، مُحَمَّد بن عبدالله التنسي، حقّقه وعلّق عليه :محمود آغا بوعيّاد، موفم للنّشر، الجزائر، 2011، ص196/ 197.

* أصائل: جمع أصيلة وهي بمعنى الهلاك."لسان العرب"،ج11،ص16،حرف اللاّم ، مادّة : (أ ص ل) .

* الطُّلول: جمع طلل: ما شخص من آثار الدّار،"مختار الصّحاح"، ص166، حرف الطاء، مادّة (ط ل ل) .

وَ لَمْ أَبْكِ أَطْلاَلاً لِهِنْدٍ مَوَاثِـلاً* بِذِي الأَثْـلِ* لَكِنِّي بَكَيْتُ عَلَى هِنْدِ

وَ كَمْ كَـاتِمٍ سِرَّ المحَبَّةِ قَدْ وَشَى بِهِ مُهَـرَاقُ الدَّمْعِ فِي مَهْرَقِ الخَـدِّ

وَ مَا هَـاجَ شوْقِي غَيْرُ زَمِّ* رَكَائِبٍ تَخُبُّ* بِأَبْرَاجِ الهَـوَادِجِ أَوْ تَخْـدِي*

فالشّاعر لم يخرج عن دائرة المقدّمة الطلليّة و التي تغزّل فيها بالمحبوبة و هي هند التي كانت تقطن تلك الدّيّار. فهي أيّام عند الشّاعر مرغوب في ذكرها و تذكرها و الإنشاد لها فهي أيّام ورد عزيزة، فهذا الحب و إن كان مستورا عنده إلاّ أنّه افتضح و ما بقي سرّا بسبب الدّمع الذي كان ينزل من خدّه، فهو علامة حبّ حبيب،وأثر البعد عنه ولا يشفي عليله عند رؤية هودج هند إلا أن يهيم وراءه حتّى يقترب من حبيبته فيهدأ روعه وتأنس به نفسه.

إنّ الذي تميّزت به قصائد المولديّات هو أنّهم لم ينتقلوا مباشرة من المقدّمة الطلليّة النسيبيّة إلى الموضوع الرئيس وهو"المدح" بل وصلوا الجزءين ببنية جزئيّة سمّاها بعضهم بالتّخلّص لأنّها في الحقيقة بمثابة الجسر الرّابط بين المقدّمة والغرض الرئيس في القصيدة؛ ممّا يجعل القارئ لا يشعر بالانتقال من حديث إلى آخر[1] وشاعرنا مُحَمَّد بن يوسف الثّغري أسّس على هذا قصيدته فجعل بين المقدّمة الطلليّة والمدح النّبوي جسرا يصلهما فقال وهو يتحدّث عن الصّبا وما جرى فيه:

....

* مواثلا: وثل الشيء أصله و مكنه،"لسان العرب"،ابن منظور، ج11،ص 722،حرف اللام، مادة (وث ل).
* الأثل: أثل يأثل أثولا و تأثلا: تأصّل و تعظم، المصدر نفسه، ج11، ص9، حرف اللام، مادة(أث ل).
* زمّ: زم الشيء يزمه زما فانزم، شدّه، المصدر نفسه،ج12،ص272،حرف الميم، فصل الزاي، مادة (ز م م).
* خبّ: أفسد، المصدر نفسه، ج1، ص342، حرف الباء، فصل الخاء، مادة (خ ب ب).
* تخدي: خدى البعير: أسرع و رج بقوائمه، المصدر نفسه، ج14، ص224، حرف الواو و الياء من المعتل فصل الخاء مادة (خ د ى).

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين: صونيا بوعبد الله، ص74.

فَهَلْ رَاجِــعٌ مَا فَاتَ مِنْ زَمَنِ الصِّبَا   وَ هَيْهَـاتَ مَـا إِنْ لِلـشَّـبِيْبَةِ مِـنْ رَدِّ

وَ مَا إِنْ ذَمَمْتُ الشَّيْبَ أُدْخِلَ مَفْرِقِي   فَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلشَّيْبِ مَشْكُورَةٍ عِنْـدِي

يُنَفِّـرُ شَيـْطَانَ الغِــوَايَةِ نُـــورُهُ   إِذَا حلَّ فِي فَوْدِي وَ يَهدِي إِلَى الرُّشْدِ

إِذَا اِبْيَـضَّ فَـوْدِي* زَادَ طَـبْعِيَ رِقَّةً   كَمَا وَصَفُوا البِيضَ الرِّقَــاقَ مِنَ الهِنْدِ

وَ لَكـنَّـنِي أَبْكِي لـــــزَلاَّتِيَ الَّتِي   تَجَاوَزَتْ فِيهَا مُنْتَهَى الحَـصْرِ وَ الحَدِّ

وَ إِنِّي وَ إِنْ كَانَتْ ذُنُـــوبِي كَثِيرَةً   وآثَـرْتُ غَيِّي إِذْ تَعَــامَيْتُ عَنْ رُشْدِ

لَأَرْجُو شَفِــيعَ المُذْنِبِـــينَ مُحَمَّدًا   يُشَـفِّعُهُ المَوْلَى فَيَشْفَـعُ فِي العَبْـدِ(1)

فالشّاعر في هذه الأبيات انتقل من المقدمة الطلليّة إلى ذكر أيّام طفولته و ما كان يفعل فيها وهذا قبل أن يباشر مدح المصطفى ﷺ و هو ما يعرف عند بعضهم بالتّخلص فذكر فيه ما كان في صباه و هل ستعود تلك الأيّام؟ ثم أجاب بقوله هيهات فأنّى ذلك، فقد فاتت أيّام الشّباب وانقضت وجاء دور الشّيب ، فهو يتحسّر على ما فوّت فيها من أيّام الطّاعات، و الشّيب على سوء ما فيه ينذر بالكبر و دنوّ الأجل و قرب فراق الدّنيا، فقد كان سببا في عودة الشّاعر وأوبته إلى الله تعالى فابْتعَدَ عن سبيل الغواية إلى طريق الهدى و الرّشاد، و هو مدعاة إلى الرّصانة في القول و الفعل، ورقّة الطّبع و قول الحكمة وسداد الرّأي، وقد شبّه الشّاعر رقّة طبعه برقّة السّيوف الهنديّة، وفي آخر المقدّمة تحسّر الشّاعر على كثرة زلاّته و ذنوبه فقد سلك طريق الهوى و المعاصي، وعمي عن سبيل الحقّ والهدى و الصّراط المستقيم؛ حتّى أنذره الشّيب فكان سببا في رجوعه إلى النّهج الرّشيد والرّأي السّديد.

* فوْدي: جانب الرّأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، المصدر السّابق،ج3،ص340 حرف الدّال، مادّة:(ف ود).

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين . ص197 - 198.

ب- موضوعات قصيدة المدح النبوي:

إن قصيدة المولديّات أنشِئت أساسا لامتداح النّبي ﷺ و تعظيم ذكرى مولده و لهذا كان المدح الموضوع الأساس لهذه القصيدة، ثم يليه الموضوع الثّانوي هو مدح الملك الذي تُرفع بحضرته القصيدة ليلة المولد[1].

1- موضوعات الغرض الأساس:

إن السّبب الذي من أجله قيلت هذه القصيدة هو المدح النّبوي، و شعراء المولديّات في المغرب ركّزوا في بناء قصائدهم على نقاط أساسيّة ومهمّة هي: مدح النّبي ﷺ والإشادة بليلة ميلاده، إذ ذكروا فيه علوّ مكانته بين الأنبياء ومناقبه وتعداد المعجزات التي بعث بها وهذا في الغالب .

أ- مدح الرّسول ﷺ و تعداد مناقبه :

بعدما أنهى الشّاعر المقدّمة والتّخلّص بدأ بتعداد بعض صفات النّبي ﷺ و مآثره فهو يسعى إلى ذكرها و تتبّعها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فقال[2]:

لأَرْجُو شَفِيعَ المُذْنِبِينَ مُحَمَّدًا يُشَفِّعُهُ المَوْلَى فَيَشْفَعُ فِي العَبْدِ

نَبِيٌّ تَسَمَّى أَحْمَدًا وَ مُحَمَّدًا وَ أَطْنَبَ فِيهِ الوَحْيُ بِالَمْدْحِ وَ الحَمْدِ

نَبِيٌّ جَمِيعُ الرُّسْلِ تَحْتَ لِوَائِهِ وَ قَدْ خُصَّ فَضْلاً دُونَهُمْ بِلِوَا الحَمْدِ

إنّ الشاعر مُحَمّد الثّغري بنى قصيدته على مدح المصطفى ﷺ ، فابتدأ بذكر شفاعته يوم القيامة، و أنّ الله سيشفّعه بإذنه في عباده لقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: 255]، و جاء في الحديث قوله ﷺ: "(لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا فَيُسْتَجَابُ لَهُ فَيُؤْتَاهَا، وَ إِنِّي اِخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ)"[3].

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين: صونيا بو عبدالله، ص 198.

2- المرجع نفسه، ص 198.

3- صحيح مسلم، باب اختباء النّبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، رقم [339](199) ترقيم و ترتيب: مُحَمّد فؤاد عبد الباقي دار التّقوى للنّشر و الطّبع و التّوزيع، 1434هـ/2012م،ص76.

و قد تلا ذلك ذكر اسميه ﷺ وأنّه سمّي أحمد و مُحَمَّد، وقد ذكرا في القرآن الكريم ومدحت أيضا أخلاقه كثيرا فيه منها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:04]، وبعد هذا ذكر الشّاعر أنّ جميع الرّسل تحت لوائه ودينه الذي بعث به، فهو أوّل أولوا العزم من الرّسل.

2- تعداد معجزاته ﷺ :

إنّ تعداد معجزات النّبي ﷺ يعدّ عنصرا أساسا و مهمّا في بناء القصيدة المولديّة وهو في الغالب يأتي بعد مدح النّبي ﷺ و تعداد صفاته. و إذا كانت المعجزة **"هي** الأمر الخارق للعادة المقرونة بالتّحدي الدّال على صدق الأنبياء عليهم السّلام، وسمّيت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها"(1) فإنّها تعدّ مظهرا من مظاهر النّبوة فما من نبيّ إلاّ و أيدّه الله بها حتّى تَثْبت نبوّته و تُؤيّد حجّته، فكلّ نبيّ اختصه الله بمعجزة أو معجزات، وأهمّ معجزات نبيّنا مُحَمَّد ﷺ القرآن الكريم ،فأمره عظيم، و حكمه قويم، من اتبعه وعمل به عزّ، و من تركه ذلّ، تحدّى الله به العرب فعجزوا على أن يأتوا بمثله، و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا فقال عزّ وجلّ مخاطبا فصحاءَ العرب وبلغاءَهم:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:23] وشعراء المولديّات في هذه الفترة ذكروا معجزة القرآن واسترسلوا في ذكر معجزاته ﷺ منهم مُحَمَّد بن يوسف الثّغري التّلمساني حيث قال(2) :

كَمَا خُصَّ بِالسَّبْعِ المَثَانِي كَرَامَةً   مِنَ اللَّهِ وَ هِيَ السَّبْعُ مِنْ سُورَةِ الحَمْدِ
لَهُ مُعْجِزَاتٌ مَاثَلَتْ كُلَّ مَا أَتَى   بِهِ الرُّسْلُ مِنْ آيٍ وَ أَرْبَتْ* عَلَى العَدِّ
وَ أَعْظَمُهَا القُرْآنُ يَهْدِي لَنَا الهُدَى   فَيَا حُسْنَ مَا يُهْدِى وَ يَا فَوْزَ مَنْ يَهْدِي

1- المواهب اللّدنية بالمنح المحمّديّة، أحمد بن مُحَمَّد القسطلاني، تحقيق: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1425ه/2004م، ج2، ص495.

2- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 199/198.

* أربت: ربا الشيء يربو و رباء: زاد و نما، لسان العرب، ابن منظور، ج14، ص304، حرف الواو و الياء من المعتل فصل الرّاء، مادة (ر ب ا).

هُوَ الوَحْيُ أَجْلَى مِنْ سَنَى*الشَّمْسِ فِي الضُّحَى سَنَاهُ*وَأَحْلَى حِينَ يُتْلَى مِنَ الشَّهْدِ

لَهُ اِنْشَقَّ بَدْرُ التِّمِّ* عِنْدَ كَمَالِهِ فَشَاهَدَه مَنْ كَانَ بِالقُرْبِ وَ البُعْدِ

فالشّاعر يذكر أهمّ معجزات النّبي ﷺ، فيبدأ بذكر ما خصّ به النّبي ﷺ دون الأنبياء الآخرين، و هي سورة الحمد أو الفاتحة التي نزلت عليه ﷺ وافتتح الله بها القرآن لم تنزل في التّوراة ولا في الإنجيل مثلها، وهي أفضل سورة في القرآن فقد روى التّرمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ قال لأبي ابن كعب رضي الله عنه:" (أَتُحِبُّ أَنْ أَعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يُنَزَّلْ مِثْلُهَا فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلاَةِ؟ قال: فَقَرَأَ أُمَّ القُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَ لاَ فِي الزَّبُورِ وَ لاَ فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا)"[1]. و سمّيت السّبع المثاني التي قال الله فيها:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[الحجر:87]. و روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ قال له:"(لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟ قَالَ:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَ القُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)"[2].

* سنى: علا ضوؤها، المصدر نفسه، ج14، ص403، حرف الواو و الياء من المعتل، مادة (س ن ا).

* سنا: سنا إلى معالي الأمور: ارتفع، المصدر نفسه، ج14، ص 403، حرف الواو و الياء، فصل السّين مادّة (س ن ا).

* التمّ: الشيء التام، المصدر السابق، ج12، ص 67، حرف الميم، فصل التاء، مادة (ت م م).

1- صحيح سنن الترمذي، محمّد بن عيسى بن سورة الترمذي، تأليف: محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، 1420هـ،2000م، ج3، ص151، رقم 2875.

2- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري،دار التّأصيل ، مصر، لبنان،1433هـ،2012م،ج6 ص 06 ، رقم 4453.

قال ابن القيم رحمة الله عليه: "فاتحة الكتاب و أمّ القرآن والسّبع المثاني والشّفاء التّام والدّواء النّافع والرّقية التّامة ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوّة ودافعة الهمّ والغمّ والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقّها، وأحسن تنزيلها على دائه وعرف وجه الاستشفاء بها، والسّرّ الذي كانت لأجله كذلك"[1].

"إنّها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنّها المفتاح لكنوز الجنّة، وليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح، ولو أنّ طلاّب الكنوز وقفوا على سرّ هذه السّورة وتحقّقوا بمعانيها، و ركّبوا لهذا المفتاح أسنانا وأحسنوا الفتح به لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاون و ممانع"[2]. فخصّ الله هذه السّورة العظيمة لهذا النّبي العظيم فعرفها و علّمها لأمّته حتى يستقيم حالها وتستقيم أمورها؛ إن فهمت معناها و عملت بمقتضاها.

ثم انتقل الشّاعر إلى رتبة هذه المعجزات وأنّها ماثلت معجزات الرّسل و الأنبياء الذين جاؤوا قبل نبيّنا مُحَمَّد ﷺ و لكنّها زادت على ذلك و أربت فهي تكاد لا تعدّ و لا تحصى لكثرتها، إذ الوحي الذي جاء به ﷺ أوضح من الشّمس في ظاهرة النّهار أو ضحاها، فهو عالي الرّتبة إذا أردت أن تصنّفه و تقارنه، ولا مقارنة، فشتّان بين الثّرى و الثّريا، وإذا قرأته فهو أحلى من الشّهد الذي يحمل عسلا، تستريح به النّفوس و تطمئنّ إليه الأفئدة والقلوب كما قال تعالى:﴿أَلَا بِذِكْرِ اِ۬للَّهِ تَطْمَئِنُّ اُ۬لْقُلُوبُ﴾ [الرعد:27]، ومن عمل به واستجاب لدعوته عاش حيًّا طِيلة عمره، قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ اُ۪سْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال:22]، فمن استجاب لله و للرّسول و لهذا الوحي فلا يضلّ ولا يشقى، قال الله تعالى:﴿طَٰهٰۖ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ اَ۬لْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:01]، فهو مصدر السّعادة والهناء في الدّنيا والآخرة، ومن أعرض عن الوحي فقد قال الله تعالى فيه:﴿وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِے فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:122].

1- "زاد المعاد في هدي خير العباد"، ابن قيم الجوزية، و حقق نصوصه وخرّج أحاديثه و علّق عليه : شعيب الأرنؤوط عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1418هـ، 1998م، ج4،ص318.

2- المصدر نفسه، ج4، ص319.

ثم ذكر معجزة أخرى ظهرت في حياته ﷺ وهي معجزة انشقاق القمر، و قد ذكرها الله تعالى في القرآن ال كريم، فقال:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:1]. و هي معجزة أظهرها الله عز و جلّ لقريش و أهل مكّة عموما حتى يكون ذلك برهانا على صدق نبوّة مُحَمَّد ﷺ فانشقّ القمر نصفين كما جاء ذلك في حديث رواه البخاري في صحيحه في باب انشقاق القمر:" أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ القَمَرَ شِقَّيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا"[1]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال" اِنْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقَتَيْنِ فَلَقَةً وَرَاءَ الجَبَلَ و فَلَقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ اِشْهَدُوا"[2].

فهذه المعجزة ظهرت كما قال الشّاعر عندما اكتمل القمر و صار بدرا، فطلبت قريش أن يريهم شيئا يبهرهم حتّى يؤمنوا، فانشقّ القمر أمام أعينهم فرآه من كان قريبا وبعيدا قريبا في مكة وبعيدا من كان يسير في سفر.

إنّ المعجزات التي ذكرها الشّاعر في قصيدته ذكرت كلّها في القرآن الكريم فهو الهدى و الفرقان، لمن أراد أن يستقيم حاله فعليه اتباع آي القرآن، حتّى يعلو في الجنان، فهو البيّنات وهو أعظم معجزة للبشريّة؛ فيه السّعادة للنّاس أجمعين والهناء.

ثمّ أتمّ الشّاعر مُحَمَّد القصيدة في ذكر معجزات أخرى فقال[3]:

لَهُ حَـنَّ جِـذْعُ النَّخْلِ عِنْدَ فِرَاقِهِ ... حَنِينًا شَكَى مِنْ شَوْقِـهِ أَلَـمَ الـفَـقْـدِ

وَ فَـاضَ نَمِـيرُ* الـمَـاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ ... إِلَى أَنْ تَرَوَّى الجَيْشُ مِنْ ذَلِكَ الوِرْدِ

وَ آيَـاتُهُ قَـبْلَ الوِلاَدِ وَ بَعْـدَهُ ... لِكَـثْرَتِهَا لَمْ تُحْـصَ فِي القَبْلِ وَ البَعْـدِ

1- صحيح البخاري، ج5، ص125، رقم3857.

2- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنيّة المعلومات، دار التّأصيل، لبنان، مصر، 1435هـ، 2014م، ج7، ص190، رقم 2903.

3- - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 199.

* نمير الماء: النّمير، الكثير،"لسان العرب"، ابن منظور، ج5، ص236، حرف الراء، فصل النون، مادّة (ن م ر) .

فالشّاعر في هذه الأبيات بدأ بمعجزة حنين الجذع لرسول الله ﷺ فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما"(كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ فَلَمَّا اِتَّخَذَ المِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ)"[1].

و عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: "(كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ عَلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ فَكَانَ عَلَيْهِ فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ)"[2].

قال ابن حجر في الفتح: "و قد نقل ابن أبي حاتم في مناقب الشّافعي عن أبيه عن عمر و ابن سواد عن الشّافعي قال:(ما أعطى الله نبيّا ما أعطى محمّدا، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى، قال: أعطى محمّدا حنين الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك)[3].

و كان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا حدّث بكى، و قال: (يا عباد الله الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه، فإنّه أحقّ أن تشتاقوا إلى لقائه)"[4]. "و هذا يدلّ على أنّ الله تعالى خلق في الجذع حياة و علما حتّى صوّت و اشتاق، و قد عامله النّبي ﷺ معاملة الحيّ فالتزمه كما يلتزم الغائب أهله و أعزّته"[5].

1- صحيح البخاري، ج4، ص 514، رقم 3579.

2- المصدر نفسه، ج4، ص515، رقم 3581.

3- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه و أحاديثه : محمّد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه و أشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، المكتبة السلفية ، دت، ج6 ص603 .

4- معجزات النّبي المختار من صحيح الأخبار، ابن خليفة عليوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1411ه،1991م ص 101.

5- المرجع نفسه، ص 101.

فجذع النّخلة اشتاق إلى النّبي ﷺ و بكى عندما فارقه، فقد حنّ إليه و اشتكاه ألم الفقدان، فنزل النّبي ﷺ من أجله المنبر فوضع يده عليه حتّى سكن الجذع، فقد أعطى عليه الصّلاة و السّلام لكل ذي حقّ حقّه و لم يستهن بشيء و لو كان جمادا.

ثم انتقل الشّاعر الثّغري إلى معجزة أخرى وهي نبع الماء من بين أصابعه الشّريفة فقد روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ* ، فَتَوَضَّأَ فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ مَا لَكُمْ؟ قَالُوا لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَ لاَ نَشْرَبُ إِلاَّ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَ تَوَضَّأْنَا ، قُلْتُ : كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِئَةَ أَلْف لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشَرَةَ مِئَةً"(1).

قال القرطبي:(قضيّة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكرّرت منه في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة، و وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التّواتر المعنوي، قال ابن حجر: (أخذ كلام عياض و تصرّف. ثمّ قال: و لم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا ﷺ)(2).

و قد نقل ابن عبد البرّ عن المزني أنّه قال :" نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجّرت منه المياه لأنّ خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللّحم و الدّم." فالشّاعر مُحَمّد ابن يوسف الثّغري ذكر هذه المعجزة لعظمها و قوّة حجيّتها على المخالف إذ لا يعارضها و ينفي نبوّة صاحبها إلا معاند مكابر صاغر؛ لا يؤمن بالله و لا باليوم الآخر.

---

* الرّكوة: هي إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، و الجمع ركاء،" النّهاية في غريب الحديث والأثر"، مجد الدّين أبي السعادات المبارك بن مُحَمّد الجزري بن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي، طاهر أحمد الزّاوي، النّاشر المكتبة الإسلامية 1383ه، 1963م، ج2، ص261، حرف الراء، مادة (ر ك ا) .

1- صحيح البخاري، ج4، ص 509/508، رقم 3572 .

2- فتح الباري، ج6، ص677، كتاب المناقب .

ثم باشر الشّاعر مُحَمَّد الثّغري القول عن آي النّبيﷺ قبل ولادته وبعدها فهي معجزات لا تعدّ ولا تحصى، ويقصد بالآي المعجزات و البراهين والبيّنات وهذا ما ذكره القسطلاني في كتابه المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمديّة حيث قال :" فإن قلت أيّ الاسمين أحقّ و أولى بما أتت به الأنبياء هل لفظ المعجزة أو لفظ الآية أو لفظ الدّليل؟ فالجواب أنّ كبار الأئمّة يسمّون معجزات الأنبياء دلائل النّبوة، و آيات النّبوة، ولم يرد أيضا في القرآن لفظ المعجزة بل ولا في السّنة أيضا، وإنّما فيهما لفظ الآية والبيّنة والبرهان كما في قصّة موسى﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:32]، وأمّا لفظ الآيات فكثير منها قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:124]،وأما لفظ المعجزة إذا أطلق فإنه لا يدلّ على كون ذلك آية إلا إذا فسّر المراد به، وذكرت شرائطه، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات سمّاها كرامات والسّلف كانوا يسمّون هذا معجزا كالإمام أحمد و غيره "[1].

و من دلائل نبوّته ﷺ قبل ولادته ما ذكر في الكتب المنزّلة كالتّوراة والإنجيل و سائر كتب الله المنزّلة؛ والتي ذكرته ونعتته و أقرّت خروجه بأرض العرب[2]. ولمّا كانت ليلة مولده ارتجّ إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، و غاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان* إبلا صِعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة و انتشرت في بلادها[3].

و دلائل نبوّته ﷺ كثيرة كما قال النّاظم، وقبل ولادته بعدها، وقد ذكرنا بعضها فيما سبق، وإلاّ فالمقام يحتاج إلى إفرادها بمؤلف يجمع متناثرها ويلمّ شتاتها. وقد كتب سعيد ابن عبدالقادر باشنفر مؤلّفا عن دلائل النّبوة سمّاه: "دلائل النّبوة بالآيات البيّنات في ذكر

1- المواهب اللّدنيّة، ج2، ص499/500 .

2- المصدر نفسه، ج2، ص500 .

* الموبذان: اسم لحاكم المجوس، كقاضي قضاة المسلمين، رأى ليلة مولد النّبي ﷺ الرّؤيا المذكورة أعلاه .

3- دلائل النّبوة و معرفة أحوال صاحب الشّريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثّق أصوله وخرّج أحاديثه و علّق عليه: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ،1988م، ج1 ص 126/127.

أعضاء الرّسول وما فيها من معجزات" يحوي أربعة أجزاء كل جزء يتعدّى أربع مئة صفحة عدا الجزء الأخير، فهذا دليل على أنّ الشّاعر مُحَمّد بن يوسف الثّغري اختار جزءا يسيرا من المعجزات؛ فقد أشاد الشّاعر بكثرة الآيات وأنّها لا تعد ولا تحصى.

و لْيُعلم أنّ عدم الإيمان بالمعجزات مؤذن بالعقوبة العاجلة والعقوبة الأخرويّة، كما قال الله تعالى رادّا على بني إسرائيل الذين تعنّتوا و أرادوا أن تكون لهم مائدة من السّماء تتنزّل عليهم ، فلّما أراد الله أن ينزّلها عليهم حذّرهم من عدم الإيمان بنبوّة عيسى عليه السلام فقال تعالى:﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:125].

3- الإشادة بليلة مولده ﷺ:

وبعد هذا كلّه أتمّ النّاظم قصيدته المولديّة في مدح المصطفى ﷺ والإشادة بليلة مولده فقال[1]:

وَ مَوْلِدُهُ لِلخَلْقِ أَسْعَدُ مَوْلِــدٍ فَهُمْ مِـنْهُ فِي ظِـلٍّ مِنَ الأَمْنِ مُمْتَدِّ

أَلاَ يَا شَـفِيعَ المُذْنِبين شَفَاعَـةً وَعَدْتَ بِهَا فِي الحَشْرِ يَا صَادِقَ الوَعْدِ

الشّاعر يشيد بليلة مولد النّبي ﷺ ويفرح لميلاده بل جعل مولده أفضل مولد"بل أفضل ليلة، فليلة المولد الشّريف وقع التّفضيل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عزّ وجلّ رحمة للعالمين، فعمّت به النّعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة ميلاده أعمّ نفعا فكانت أفضل"[2]. والله شرع لنا ليلة القدر فهي أفضل ليلة على الإطلاق من حيث تعبّدنا فيها وتقرّبنا بها إلى الله عزّ و جلّ بجميع أنواع العبادات، وليلة مولده ﷺ هي أفضل ليلة من حيث الزّمن أمّا من حيث العبادة، فليلة القدر هي أفضل ليلة يتعبّد فيها المرء إلى الله تعالى ويتقرب فيها بأنواع القربات والنّوافل والمستحبّات. ولو تعبّدنا الله بليلة المولد

1- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 199 .

2- المواهب اللّدنيّة، ج1، ص 145 .

النّبوي و جعلها قربة إليه كما جعل ليلة القدر لكان الأمر تعبّديّا موقوتا ، فيتحرّاها المؤمن كما يتحرّى ليلة القدر بل ليلة القدر أنزل الله فيها قرآنا وسمّى بها سورة تتلى إلى يوم الدّين بل تعبّدنا الله بقيامنا فيها ولم يتعبّدنا بقيام ليلة المولد، فلم يرد في ذلك نصّ ولا فعل منه ﷺ ولا الصّحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين[1] .

فجعل الشّاعر مولد النّبي ﷺ أسعد مولد، و من اتبعه ﷺ فهو في أمن و أمان في الدّنيا و الآخرة.

4- الاعتراف بالعجز والبعد عن الرّسول ﷺ :

بعد الإشادة بليلة مولد المصطفى ﷺ أقرّ الشّاعر ببعده عن النّبّي ﷺ وأنّ الكبر والشّيب والضّعف هو السّبب في ذلك حيث قال[2] :

فَقَدْ عَافَنِي شَيْبٌ وَ ضَعْفٌ وَ كِبْرَةٌ　　　قَضَتْ لِي عَنْ مَغْنَاكَ بِالنَّأْيِ وَ البُعْـدِ

إنّ الشّاعر أصابه شيب وكبر والضّعف دبّ فيه فصار يشتكي بعده عن مضجع النّبيّ ﷺ فأحسّ بأنّه مقصّر وأنّ ضعفه وكبره وشيبه هو الذي حال بينه وبين ذهابه لزيارته ﷺ في المدينة النّبويّة حيث مثواه وقبره ﷺ فالشّاعر يتحسّر لهذا ويشتكي ألم البعد وفراق المصطفى ﷺ،فهو القدوة والأسوة والمبعوث رحمة للعالمين، بعث برسالة للأنس والجنّ تهدي للّتي هي أقوم.

فالشّاعر يتمنّى زيارة قبره ﷺ فيقول[3] :

فَمَنْ لِي بِرَبْعٍ* حَلَّهُ خَـيْرُ مُرْسَـلٍ　　　أُعَفِّرُ* خَدِّي فِي ثَـرَى ذَلِكَ اللَّحْدِ

1- المواهب اللّدنيّة ، ج1، ص 146/145.

2- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 199.

3- المرجع نفسه ، ص 199.

* ربع: الدّار بعينها حيث كانت، "مختار الصّحاح"، ص96، حرف الرّاء، مادّة (ر ب ع) .

* أعفّر: لأعفرنّ وجهه في التراب، يريد إذلاله،"لسان العرب"، ج4، ص583،حرف الراء،فصل الفاء، مادة(ع ف ر).

وَ أُبْلِغُ قَـلْبِي مَـا تَمَنَّ مِنَ الـمُنَى وَ أُبْـرِدُ شَـوْقًـا فِــيهِ مُلْتَهِبَ الـوَقْـدِ

وَ أَشْــفِي غَلِـيلِي بِالوُرُودِ لِزَمْزَمٍ فَـيَا ظَـمَئِي شَــوْقًا إِلَى ذَلِكَ الــوِرْدِ

لَئِنْ فَاتَنِي فِـيمَا مَضَى مِنْ شَبِيبَتِي وَلَمْ أَعْتَمِلْ* سَـيْرًا بنصّ* وَلاَ وَخْدِ*

فالشّاعر يتمنّى زيارة مدينة رسول الله ﷺ فليس له في هذا المكان إلاّ أن يتذلّل فيه ولطالما حلم بزيارتها كونها مهبط الوحي، و فيها الحجرة النّبويّة الّتي دفن فيها المصطفى ﷺ و صاحباه أبوبكر و عمر رضي الله عنهما، وكيف لا يتذلّل و يتواضع فيها، يشفي عليله ويروي غليله بماء زمزم، فهي أمنيته و شوقه لينال شربة من ذلك الورد الزّمزمي فإنه ماء مبارك. طعام طعم و شفاء سقم، يتمنّى كلّ مسلم أن يشرب منه و يرتوي حتّى يحصل له ما يرجو، ثم ختم هذه الأبيات بتباكيه على ما فاته من تضييع الشّباب فيما لا ينفع، فهو يقرّ بتقصيره في مرحلة مضت ولم يعمل لنفسه خيرا. فهو الآن لا يريد أن يفوّت لنفسه فرصة الطّاعة و زيارة البقاع المقدّسة والشّرب من ماء زمزم و الدّعاء عند شربه مستجاب كما قال فيه المصطفى ﷺ: "(إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، طَعَامُ طُعْمٍ وَ شِفَاءُ سُقْمٍ)"[1] حتّى يعوّض ما فاته من خير وأجر .

د- الموضوع الثّانوي :

إذا كان الموضوع الأساس للقصيدة المولديّة هو المدح النّبوي و الإشادة بهذه اللّيلة و تعداد بعض صفاته، فلا ينسى الشّعراء الملوك و السّلاطين فلهم حصتهم في ذلك المدح لأن القصيدة تعرض عليهم و تقرأ بين أيديهم ثم إنّ هؤلاء الملوك و السّلاطين هم أولياء نعمتهم فلا بد من ذكر نبلهم و كرمهم و عطائهم و سخائهم و عدلهم، و هذا هو الموضوع

* إعتمل: عمل لنفسه أو اضطرب في عمله، المصدر نفسه، ج11، ص475، حرف اللام، فصل العين، مادة (ع م ل).

* بنص: رفعه و كلّ ما أظهر، المصدر نفسه، ج7، ص97، حرف الصّاد، فصل النّون، مادة (ن ص ص).

* وخد: وخد البعير يخد وخدا و وخدانا، أسرع و وسع الخطو، المصدر نفسه، ج3، حرف الدال، فصل الواو، مادة (و خ د).

1- سلسلة الأحاديث الصّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ،مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع الرّياض، السّعودية،1422هـ،2002م، م7، قسم3، رقم 3585 .

الثّانوي للقصيدة، فإنهم يخصّصون مقطعا لمدح السّلاطين و الملوك بذكر مآثرهم. كما يخصّصون لهم الدّعاء في خاتمة القصيدة أحيانا لأنه إليه يعود الفضل في الاحتفاء بهذه المناسبة فهم أصحاب الحفل الذين تقرأ لهم القصيدة؛ ولهذا كان لا بدّ من أن يكون لهم نصيب من المدح و الدّعاء في القصيدة المولديّة[1].

أ- مدح السلطان :

إنّ الأبيات التي تطرق فيها الشّاعر إلى مدح السّلطان يفصّل فيها القول حول صفات الملك الخلقيّة و يتمثّل ذلك في كرمه و عدله ورأفته و تسامحه و صدقه.. و غيرها من الصّفات الحميدة والتي تذكر له ومن ذلك ما قاله الثّغري في الملك أبي تاشفين ابن موسى الأوّل[2] :

فَتَحْتُ اللِّــوَاءَ التَّاشَفِينِيْ بِسَعْـدِهِ* تُبَلِّغُنِي أَظْعَـــــانُهُ* مُنْتَهَى قَصْدِي

إِمَـامٌ تَوَلَّى اللَّهُ تَشْيِيـدَ فَخْـــرِهِ فَمَا شِئْتَ مِـنْ مَجْدٍ وَ مِنْ كَـرَمٍ عُـدِّ

هُمَـامٌ* حَباهُ اللَّهُ عِــزَّة نَصْـــره فَـلِلَّهِ مِنْ نَصْرٍ عَـزِيـزٍ وَ مِـنْ عَـضْدِ

لَـهُ السَّعْدُ وَ السَّعْيُ الجَمِيلُ مُلاَزِمٌ وَ نَاهِيكَ مِنْ سَعْيٍ جَمِيلٍ وَ مِنْ سَعْدِ

لَهُ الجُـودُ أَضْحَى أُمَّـةً فِـيهِ وَحْـدَهُ كَمَـا أَنَـا فِي مَـدْحِي لَـهُ أُمَّـةٌ وَحْـدِي

الشّاعر في هذه الأبيات يمدح أبا تاشفين ابن حمّو موسى الأوّل فيصفه بأنّه أهل يمن وخير، يسير حيث الخير، لهذا نصره الله و أعزّه بين قومه لما يبذله من الخير والكرم للغير،وأنّ همّته عظيمة لا تفتر في بلوغ العلا،ولهذا دعا له الشّاعر بالنّصر والعزّة والقوّة في

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط، ص100.

2- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 200.

* سعده : السّعد اليمن وهو نقيض النّحس،لسان العرب،ج3،ص213،حرف الدال،فصل السين،مادّة (س ع د).

* أظعانه: سيّره، المصدر نفسه، ج13، ص270، حرف النون، فصل الظاء، مادة (ظ ع ن).

* همام: الملك لعظم همّته،كتاب العين مرتبا على حروف المعجم،الفراهيدي، ج4،ص224،حرف الهاء مادة (ه م م).

بلوغ المراد، فهو صاحبُ سعْيٍ جميل وتفاؤل وهي صفات لا تفارقه أبدا،ومع هذا كلّه فهو أجود النّاس في زمانه،ثمّ يشبهه بنفسه إذ كان أمدح الشّعراء لسلطانه في زمانه كذلك.

وما كان هذا المدح المبالغ فيه إلا لاستنهاض همم الملوك والسّلاطين في تلك الفترة حتّى يوحّدوا صفّهم و يسترجعوا أرض الأندلس الجريحة التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة عساهم أن يقدّموا شيئا يعيدون فيه للأندلس مجدها وسؤددها فيسلكوا الطّريق السّوي ليصلوا بها إلى صمّام الأمان عوض تنازعهم فيما بينهم حتّى لا يفشلوا وتذهب ريحهم و يكونوا طعما سائغا لعدوّهم[1].

ب- وصف الجيش و العتاد:

إنّ القصيدة المولديّة امتزج فيها المدح الدّيني بالمدح السّياسي كما مرّ آنفا فيذكر الشّاعر صفات القائد و ما كان من شجاعته و بطولته في حماية البلاد و إحلال الأمان و السّلام، خاصّة ما كان في هذه الفترة من صراعات، و عزّزوا هذه الصّفات البطوليّة بسند قويّ تمثّل في جيش الخليفة الذي أصبغوه كلّ الصّفات البطوليّة و راحوا يعدّدون عدده و عتاده،إذ قال مُحَمَّد بن يوسف الثّغري في جيش أبي تاشفين[2]:

لَـهُ العَسْكَـرُ الجَـرَّارُ يَجْلُو قَـتَامَهُ* أَسِنَّتُهُ كَـالشُّهْبِ فِي الظُّلَمِ الـرُّبْـدِ*

كَـرَوْضٍ وَ لَكِنَّ السُّيُوفَ جَـدَاوِلٌ وَ سُمْرُ القَنَى* الخَطِّيّ كَالقُضْبِ المُلْدِ*

يُعِـدُّ إِلَى الأَعْـدَاءِ كُـلَّ نَشِيبَـةٍ بِهَا الجُرْدُ* تُرْدِي* وَالفَوَارِسُ كَالأُسْدِ

1- قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط، ص102.

2- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 201.

* قتامه: الغبار، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص1146، فصل القاف، مادة (ق ت م) .

* الرّبد:لون إلى الغبرة،وهي التي في سوادها نقط بيض وحمر،"لسان العرب"،ج3،ص170،فصل الراء،مادة (ر ب د).

* القنى: يقنى يرضى به، المصدر نفسه، ج15، ص201، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل القاف، مادة (ق ن ا).

* الملْد: النّاعم، المصدر نفسه، ج3، ص410، حرف الدال، فصل الميم، مادة (م ل د).

* الجرد: فضاء لا ثبت فيه، المصدر نفسه، ج3، ص115، حرف الدال، فصل الجيم، مادة (ج ر د).

* تردي: الهلاك، المصدر نفسه، ج14، ص316،حرف الواو والياء من المعتل، فصل الراء، مادة (ر د ي).

فالشّاعر في هذه الأبيات يصف جيش أبي تاشفين بالجرّار، يظهر غبارهم كثيفا كأنّ أسنّتهم شهب تتطاير في السّماء في ظلام قاتم، و هي مبالغة عن كثرة العدد والعدّة، كما أنّهم روض و خضرة منتشرة إذا ما استعدّوا للقتال كأنّهم في ريعان شبابهم أقوياء فسيوفهم بيضاء كالسّحب إذا ما أخرجوها أو سلّوها، وخيولهم تقرع كأنّها الرّعد، كلّما مرّوا على كتيبة هلكت و تجرّدت من عدّتها وضعف عددها أمّا الفوارس كالأسود في قوّتهم وشجاعتهم وإقدامهم؛ فلا يخافون حرّا ولا قرّا ولا بأسا.

ثم ختم وصفهم بهذه الأبيات فقال[1]:

وَ كُـلِّ صَقِـيلِ* الصَّفْحَتَيْنِ مُهَنَّدٍ وَ كُـلِّ قَـوِيمِ المَـتْنِ* مُعْتَـدِلِ القَـدِّ*

يُبِيدُ العِـــدَى قَبْلَ اللِّـــقَاءِ مَهَابَةً فَتَبْرِي الطُّلَى* أَسْيَافُهُ وَ هْيَ فِي الغِمْدِ

يُهَابُ وَ يُـرْجَى فِي جَـلاَلِ جَمَـالِهِ كَلَيْثٍ وَ غَيْثٍ فِي وَعِـيـدٍ وَ فِي وَعْـدِ

فالشّاعر يصف سيوفهم أنّها ذات وجهين من حديد هندي ويسمّى مهنّد، أمّا رجال جيشهم فقد صلب ظهرهم و قوي وهم معتدلو القامة، أشدّاء في الضّرب يبيدون الأعداء و يهزمونهم لا محالة، فهم يهابونهم قبل اللّقاء بمجرّد ما يسمعون قدومهم يعرضون عن لقائهم خوفا من قوّتهم، و شدّتهم و صلابتهم مع الأعداء، يُنصرون قبل أن يصلوا إلى الأعداء فسيفهم لا يلطّخ بالدّماء، فهو مهاب قبل اللّقاء، كأنّهم أسود الغابة يهابونهم في أوامرهم و نواهيهم لشدّة بأسهم، هكذا شبّه الشّاعر جيش الملك أو السّلطان بأنّه مهاب يخشاه

1- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص201.

* صقيل: السّيف،"لسان العرب"، ج11، ص380، حرف اللام، فصل الصاد، مادة (ص ق ل).

* المتن: ما صلب ظهره، المصدر نفسه، ج13، ص398، حرف النون، فصل الميم، مادة (م ت ن).

* القدّ: القامة، المصدر نفسه، ج3، ص345، حرف الدال، فصل القاف، مادة (ق د د).

* الطّلى: الأعناق، المصدر نفسه، ج15، ص10، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الطاء مادة (ط ل ى).

الأعداء، وهذا كلّه في الحقيقة مبالغة عساها أن تؤتي أكلها فتفيق الملوك من سباتها وتكون كما قال الشّاعر قويّة يهابها الأعداء.

هـ- خاتمة قصيدة المديح النّبوي :

كلّ مقطع في القصيدة له أهمّيّته و دوره، والخاتمة هي آخر مقطع و آخر ما يطبع السّمع، لذلك اهتم بها الشّعراء و حرصوا على تجميلها و تجويدها، كما نالت اهتمام النّقاد القدامى وعلى رأسهم حازم القرطاجني، إذ اشترط أن تكون مقطعا مناسبا لغرض القصيدة[1] ، فيقول: "فأمّا الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارّة فيما قصد به التّهاني والمديح، و بمعان مؤسية فيما قصد به التّعازي والرّثاء، وكذلك يكون الاختتام في كلّ غرض بما يناسبه"[2].

و ما نلحظه في الشّعر المولدي الذي قيل في المغرب عموما أنّ الشّعراء التزموا بهذه الأحكام النّقدية و لم يخرجوا عنها، فقد حرصوا على تنويع المقطع، فاختاروا له ما يناسبه من الأساليب فألبسوه حللا بيانية أضفت عليه قيما جماليّة، و كانت خاتمة قصائدهم في المولديّات إمّا بالدّعاء و الصّلاة على النّبي المصطفى المختار ﷺ، و إمّا بمدح السّلطان أو يجمع بينهما، و شاعرنا مُحَّد بن يوسف الثّغري من الذين جمعوا في قصيدتهم بين المدح و الصّلاة على المصطفى ﷺ فقال[3] :

فَيَا مَالِكًا يَحْمِي الرَّعِيَّةَ رَعْيُهُ   وَ يُحْيِيهِمْ بِالبَذْلِ وَ العِيشَةِ الرَّغَدِ

وَ يَكْفُلُهُمْ بِالعَدْلِ وَ الفَضْلِ وَ النَّدَى   وَ يَشْمَلُهُمْ بِالجُودِ وَ الرِّفْقِ وَ الرِّفْدِ*

لِيَهْنِكَ مَا جَدَّدْتَ مِنْ عَهْدِ مَوْلِدٍ   وَ سَابِعُهُ أَكْرِمْ بِذَلِكَ مِنْ عَهْدِ

1- قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط، ص36 .

2- منهاج البلغاء و سراج الأدباء، أبو الحسين حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دت، ص306.

3- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص201.

* الرفد: العطاء و الصّلة، "لسان العرب"، ج3، ص181، حرف الدال، فصل الراء، مادة (ر ف د).

جَمَعْتَ جَمِيعَ الحُسْنِ فِي لَيْلَتَيْهِمَا   تُذَكِّرُنَا كِلْتَاهُمَا جَنَّةَ الخُلْدِ

هُوَ المَوْلِدُ السَّامِي وَ سَابِعُهُ الرِّضَى   فَمَا لَهُمَا فِي مَظْهَرِ الفَخْرِ مِنْ حَدِّ

يختم الشّاعر قصيدته بمدح السّلطان و أنّه رعى محكوميه بالبذل و العطاء و العيشة الهنيّة الرّغيدة، فهو عدل جواد لا يبخل عليهم و رفيق بضعيفهم، يعطيهم و يصِلُهم، ثم يهنّئ الشّاعر السّلطان بهذا الاحتفال المولدي و سابعه و أنّ عهد حكمه عهد كريم، وما بذله لإحياء هذه اللّيلة هو بذل كبير و عظيم، تذكّرنا هذه الخيرات في المأكل و المشرب و غير ذلك بجنّة الخلد. و لا شكّ أنها مبالغة أو كناية استعملها الشّاعر ليظهر للقارئ الصّورة الجميلة للاحتفال بهذا المولد و كيف كان السّلطان يهيّء له الأوضاع و ينفق فيه النّفقات فالشّاعر افتخر بهذه المظاهر و مدح السّلطان عليها إلى أن قال(1) :

وَ مَا هِيَ إِلاَّ العِقْدُ مِنِّيَ نَظْمُهُ   وَ مِنْ وَصْفِكُمْ مَا فِيهِ مِنْ جَوْهَرِ الفَرْدِ

جَوَاهِرُ مَدْحٍ مِنْ نَسِيبٍ* وَ مَدْحِهِ   وَمَدْحُ رَسُولِ اللَّهِ وَاسِطَةُ العِقْدِ

عَلَيْهِ سَلاَمُ اللَّهِ مَا رَبَتِ* الرُّبَى   وَ مَا صَافَحَتْ رِيحُ الصَّبَا* قُضُبَ الرَّنْدِ*

فالشّاعر يتمّ مدحه للسّلطان في خاتمة القصيدة ويشبّهه بالجوهر، و يقول أنّ نظمه هو عقد مدح والجوهر لا شكّ أنّه يناسب العقد، أمّا مدح رسول الله ﷺ هو الجوهر الذي يتوّسّط العقد و يزيّنه و يجمّله، و لولا هذا الجوهر الذي توسّط سائر الجواهر لما وجد العقد و اكتمل، فكان هذا المولد سببا في مجمعنا ونظمنا، وأخيرا دعا الشّاعر للرّسول ﷺ بالسّلام ما صافحت ريح الصّبا وهي ريح النّصر والخير غصن الرّفد التي تفوح بريح طيّبة وهي كثيرا ما تهبّ و لهذا دعا بها الشّاعر.

1- تاريخ بني زيان، ص 202- 203.

* نسيب: المناسب،"لسان العرب"، ج1، ص756، حرف الباء، فصل النون، مادة (ن س ب).

* ربت: ربا زاد و نما، المصدر نفسه، ج14، ص 304، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الراء، مادة (ر ب ا).

* الصبا: ريح تستقبل البيت، المصدر نفسه، ج14، ص451، حرف الواو و الياء من المعتل، مادة (ص ب ا).

* الرّند: شجر طيب الرائحة، المصدر نفسه، ج3، ص186، حرف الدال، فصل الراء، مادة (ر ن د).

إذن فالجمع بين المدح و الدّعاء يكون في شعر المولديّات في المغرب وإن لم يكن كثيرا أحيانا ينفرد الدعاء دون المدح والعكس صحيح، و الشّاعر في هذه القصيدة جمع بينهما ولكلّ وجهة هو مولّيها، ولا شكّ أنّ الخاتمة مرتبطة ارتباطا كبيرا بالموضوع الأساس لهذا كانت على هذا النّحو. وقصارى القول أنّ القصيدة المولديّة المغربيّة التزمت في بنائها بتقاليد القصيدة العربيّة المعروفة، مع التّنويه إلى أنّها مركّبة، تبدأ بمقدّمة ثم موضوع رئيس ثم خاتمة أمّا المقدّمة فإمّا أن تكون طلليّة كما ابتدأ بها شاعرنا و إمّا نسيبيّة و أنّهما الأكثر استعمالا في المغرب، ثمّ تأتي مقدّمة الرّحلة إلى البقاع وإظهار التّشوّق إليها أو مقدّمة يتمّ فيها المزج بين النّسيب أو الغزل و الطّبيعة في مقدمة واحدة، أو مقدّمة بكاء الشّباب أو الشّباب والشّيب وبعدها يأتي الموضوع الأساس المدح النّبوي في جوانب من حياة النّبي وتعداد صفاته ومعجزاته والإشادة بليلة المولد[1].

إلى جانب الموضوع الأساس للقصيدة المولديّة يصاحبه موضوع ثانوي قصد فيه الشّاعر مدح الخليفة كونه هو السّبب في تنظيم هذا الاحتفال بالمولد، فالشّاعر تكون له فرصة في بعض النّصائح أو وجهات النّظر التي يوجّهها عن طريق المدح عسى أن تبلغ تلك النّصيحة للسّلطان فتنفعه وتنتفع الأمّة به، وتكون سببا في إيقاظ همّة السّلطان وتشجيعه على فعل الخير و بذله ولربّما تكون النّصيحة بهذه الطّريقة أبلغ وأنفع[2].

و العنصر الأخير في بناء القصيدة المولديّة هو الخاتمة أو المقطع، فقد كانت على صلة بالموضوع الرّئيس، وقد نوّع الشّعراء في قول الخاتمة بين الدّعاء والمدح للسّلطان و أحيانا أخرى يجمعون بينها كما مثّلنا بقصيدة مُحَمَّد بن يوسف الثّغري في هذا الجزء من الفصل.

وبهذا نقول أنّ إلقاء القصائد في ليلة المولد النّبوي كانت تعتبر مظهرا من مظاهر الحضارة العربيّة الإسلاميّة في المغرب الإسلامي بأكمله بما فيها الأندلس، كون هذا الاحتفال

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط، ص109.

2- المرجع نفسه، ص109.

كان يشجّع على قول الشّعر وينعش السّاحة الثّقافية ويدعم رجالاتها[1]، ومن أشعر النّاظمين للقصيدة المولديّة أبو عبدالله مُحَمّد بن يوسف الثّغري فهو مكثر فيها لأنّه عاصر ثلاثة من السّلاطين الزّيانيّين وهم على التّوالي : أبو حمّو موسى الثّاني، أبو تاشفين الثّاني وأبو زيّان الثّاني، حيث اشتهر بنفسه الطّويل في التّهليل بمولد خير البريّة ليلة الاحتفال به، ولهذا اخترت قصيدته كأنموذج للمولديّات، وقد صنّفه عبدالله حمادي في كتابه دراسات في الأدب المغربي بأنه من أبرز الممثّلين لهذا الحدث، و لم تنحصر مولديّاته من النّاحية المضمونيّة في فكرة واحدة، بل ضمّنها مجموعة من الأفكار، أمّا من حيث الشّكل فهو يميل إلى النّموذج التّقليدي للقصيدة العموديّة المركّبة و التي غالبا ما تعالج مواضيع مختلفة[2] " لأنّ النّفس قد تسأم الاستمرار مع الشّيء البسيط الذي لا تنوّع فيه و تطلب غيره الذي يمكن أن يتّصل به اتصالا يفضي إلى رتابة البساطة المتكرّرة، فلا بدّ لهذه النّفس أن تعجب بالقصيدة التي تتركّب من أكثر من غرض، خاصّة إذا ما رتّبت الأغراض في نظام متشاكل و ترتيب متناسب"[3] وهذا أدعى إلى التّرويج بها.

2- الدّعوة إلى العلم و مزاحمة العلماء :

إنّ من المظاهر الحضاريّة التي اعتنى بها الشّعراء في القرن الثّامن الهجري و نظموا لأجلها شعرا: الدّعوة إلى العلم و الاعتناء به، إذ هو أساس الحضارة وتقدّمها، به تنمو العقول وتتقدّم الأمم وتقود غيرها إلى سفينة النّجاة، لهذا حثّ الشّعراء عليه. و من الشّعراء الذين نظموا في هذا الباب أبو جعفر أحمد بن ليون التّجيبي[4] حيث قال[5]: (بحر المجتث)

1- الأدب في العصر الزّياني الثاني (952/749)، نوريّة بن عدمي، إشراف: مُحَمّد مرتاض، مذكّرة دكتوراه 1431ه/2010م،ص19.

2- الأدب في العصر الزّياني الثاني (952/749) ، ص28.

3- الشّعرية العربية: دراسة في التّطور الفنّي للقصيدة العربيّة حتّى العصر العبّاسي، نور الدّين السّيد، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2007م، ج1، ص31.

4- أبو جعفر أحمد بن ليون التّجيبي، من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزّهد والعلم و النّصح، و له تواليف كثيرة ومختصرة، وهو من أشياخ لسان الدين ابن الخطيب، أصله من لورقة، توفي (750ه) بالطّاعون. ينظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج6، ص457 .

5- نفح الطيب، المقّري، تحقيق: إحسان عبّاس، ج5، ص544 .

زَاحِـــمْ أُولِي العِلْمِ حَتَّى   تُعْـتَـدَّ مِـنْهُمْ حَـــــقِيقَهْ
وَ لاَ يَـــرُدَّكَ عَـجْــــزٌ   عَــنْ أَخْـذِ أَعْلَى طَرِيقَهْ
فَـــإِنَّ مَــنْ جَدَّ يُعْـطَى   فِـيمَا يُحِبُّ لُحُـــــوقَهْ

فالشّاعر يوصي الشّباب و غيرهم بمزاحمة العلماء بغية طلب العلم و هي وصيّة لقمان الحكيم لابنه قال له :"يا بنيّ جالس العلماء و زاحمهم بركبتيك فإنّ الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السّماء" فقوله زاحمهم بركبتيك عبارة عن مزيد القرب منهم[1] ، و في الحديث الذي رواه أبو داود و غيره عن أبي الدّرداء مرفوعا إلى النّبي ﷺ أنّه قال :" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ وَ فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَ لاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[2].

فالشّاعر يدعو النّاس لهذا الأجر و الحظّ الوافر ألا و هو ثني الرّكب عند العلماء للاستفادة منهم حتّى يحصل لهم شرف تعلّم العلم، فيكون منهم، و يعدّ من أهلهم و تحصل له الخيريّة و ينال أجر المعلّم الذي بشّر به رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث:"(مُعَلِّمُ الخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الحُوتُ فِي البَحْرِ)"[3]. وأيّ خير بعد هذا الخير، ولا يحصل إلا بالصّبر والمصابرة وسهر اللّيالي حتّى يتسنّى له ذلك.

يوجّه الشّاعر طالب العلم إلى ترك العجز والكسل، حتّى يحصل له شرف أخذ إجازة علميّة بسند عال من شيخ أو شهادة أكاديميّة أخذها بجدارة..، فإنّه من جدّ وجد

1- ينظر:"الموطأ "، مالك بن أنس برواية يحيى بن يحيى اللّيثي، تحقيق: كلال حسن علي، مؤسّسة الرّسالة ناشرون بيروت، لبنان، ط1، 1434ه، 2013م، ص767، كتاب العلم، باب ما جاء في طلب العلم.

2- صحيح سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السّجستاني، تأليف: محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، 1419ه، 1998م،ج2، ص407، رقم : 3641 ، كتاب العلم.

3- صحيح الإسناد،"جامع بيان العلم و فضله"، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري دار ابن الجوزي، الدّمام، 1414ه،1994م، ج1، ص68، رقم51.

ومن زرع حصد، فيأخذ شهادة العلماء على أهليته في العلم كما حصل الشّرف لإمام دار الهجرة مالك بن أنس حيث قال:" ليس كلّ من أحبّ أن يجلس في المسجد للحديث و الفتيا جلس حتّى يتشاور فيه أهل الصّلاح و الفضل وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلا جلس، وما جلست حتّى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أنّي موضع لذلك"[1]. و أيّ مسجد هذا؟ إنّه مسجد رسول الله ﷺ، من أراد العلا سهر الليالي ومن جدّ واجتهد ينال ما أراد، ويكون في أوّل الرّكب والأمم والحضارات ولكلّ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات.

أ- سؤال العلماء :

وقد نظم أحمد بن ليون أبياتا أخرى يحثّ طالب العلم على سؤال العلماء فقال[2]:(السّريع)

شِـفَـاءُ دَاءِ العِـيِّ* حُسْـنُ السُّـؤَالْ   فَاسْأَلْ تَـنَلْ عِلْمًا وَ قُلْ لاَ تُـبَالْ

وَ اُطْلُـبْ فَالاِسْتِحْـيَاءُ وَ الكِبْرُ مِنْ   مَـوانِعِ الـــعِلْمِ فَـمَا إِنْ يُـــنَالْ

فالشّاعر في البيت الأوّل يحثّ الجاهـل ويعلّمـه أنّ العيّ أو الجهـل داء، شـفاؤه ودواؤه حسن السّؤال، و أنّ سؤال العالم ليس عيب بل هو من تمام الحكمة و حسن التّدبير، قـال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:43]، وقد روى ابن ماجه في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما :" أَنَّ رَجُلاً أَصَابَهُ جُرْحٌ فِي رَأْسِهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَصَابَهُ اِحْتِلاَمٌ، فَأُمِرَ بِالاِغْتِسَالِ فَاِغْتَسَـلَ فَكُزَّ، فَمَاتَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ، أَوَ لَمْ يَكُنْ شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ". " قـال عطـاء : و بلغنـا أنّ رسـول

1- ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط2، 1403هـ،1983م، ج1، ص142.

2- نفح الطيب، ج5، ص 544.

* العيّ: الجهل، "لسان العرب"، ج15، ص113، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل العين، مادّة (ع ي ا).

الله ﷺ قال لو غسل جسده وترك رأسه حيث أصابه الجراح"[1] هذا توجيه نبويّ استفاده الشّاعر من هذا الحديث ووجّه به الجاهل في البيت الثّاني على أنّ الاستحياء من السّؤال والتّكبّر هما من موانع التّعلم كما قال مجاهد[2]:" لاَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُتَكَبِّرٌ". [3]

فالشّاعر وافق قول مجاهد كذلك في البيت الثّاني إذ الاستحياء و التّكبّر يمنعان العلم و لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "مَنْ رَقَّ وَجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ"[4].

قال بشار بن برد[5]:(الطويل)

شِفَاءُ الـعَمَى طُـولُ السُّـــؤَالِ وَإِنَّمَا تَمَامُ العَمَى طُولُ السُّكُوتِ عَلَى الجَهْلِ

هذا البيت يوحي بأنّ حسن السّؤال من تمام الحرص على التّعلم، حتّى يدفع المرء عن نفسه حجاب الجهل، و لهذا ما ينبغي للمتعلّم أن ينطوي على نفسه، بل لا بدّ من المباشرة بالسّؤال عندما يقع الإبهام و سوء الفهم أو قلّته، ففهم الأشياء والاستفسار عنها من أهلها سبيل عظيم إلى بناء حضارة قويّة ومجتمع متحضّر.

ب- حفظ العلم والتّواضع للعلماء :

يحثّ أحمد بن ليون في شعره أيضا على ضبط العلم صدرا، حتّى يكون مع صاحبه أينما حلّ وارتحل، فقال[6] :(بسيط تامّ)

1- صحيح سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمّد بن يزيد القزويني، تأليف: محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1417هـ،1997م، ج1، ص178/177، رقم:470، باب في المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل.

2- مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكّي، الإمام شيخ القرّاء والمفسّرين، صاحب ابن عباس رضي الله عنهما توفي سنة (103هـ)، (سير أعلام النبلاء 449/4).

3- صحيح البخاري، ج1، ص290، باب الحياء في العلم، رقم: 50 .

4- "تذكرة السّامع و المتكلّم في أدب العالم و المتعلّم"، بدر الدّين محمّد بن سعد الله الكناني الشّافعي، اعتنى به : محمّد ابن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، ط3، 1433هـ، 2012م ، ص120.

5- ديوان بشار بن برد، قرأه وقدّم له : إحسان عبّاس،دار صادر، بيروت،1966،ص403.

6- نفح الطيب، ج5، ص544 .

وَ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ فِي صَدْرِهِ نَشَبَتْ يَـــدَاهُ عِنْدَ السُّـــؤَالاَتِ الَّتِي تُــرَدُّ

العِـلْـمُ مَـا أَنْتَ فِي الحَـمَّامِ تَحْضُــرُهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ التَّكْلِيفُ وَ الكَمَــدُ*

فالشّاعر يرى أنّ الطالب الذي لا يحفظ علمه إن سئل عن أبسط الأمور لم يستطع الإجابة عنها، وأنّ العلم ما كان في صدر المتعلّم و يستحضره أينما كان ولو في الحمّام، وما لا يستحضره فلا ينسب إليهِ، ثم يقرر الشّاعر قضيّة تواضع طالب العلم للمسائل فلا يفتي في كل مسألة أو يتكلّم بلا بيّنة بل يجب أن يتورّع بقوله :الله أعلم،وقال أيضا(1) :(بسيط)

عَلِمْتَ شَيْئًا وَ غَابَتْ عَنْكَ أَشْـيَاءُ* فَأُنْظُـرْ وَ حَـقِّقْ فَـمَا لِلْعِلْمِ إِحْصَاءُ*

لِلْعِلْمِ قِسْمَانِ: مَا تَدْرِي وَ قَوْلُكَ لاَ أَدْرِي، وَ مَنْ يَدَّعِي الإِحْصَاءَ هَذَّاءُ*

فالشّاعر يعلّم طلبة العلم التّواضع فلا يمكن لطالب العلم أيّا كان أن يحيط بكلّ شيء علما، فلا بد أن يعلم شيئا وتغيب عنه أشياء، فما ينبغي لطالب العلم أن يستعجل الجواب إن لم يتأكّد من الإجابة، وقد كان الإمام مالك رحمه الله وهو إمام دار الهجرة إذا سئل يتريّث كما قال مروان بن مُحَمَّد:"كنت أرى مالكا يقول للرّجل يسأله إذهب حتى أنظر في أمرك فقلت إنّ الفقه سرباله، وما رفعه الله إلاّ بالتّقوى"(2). وهذا أكبر دليل من هذا الإمام الجهبذ إذ العلم لا بدّ من توثيقه وأخذه من منبعه، وهذا لا شكّ أنّه مظهر حضاريّ يعلّمنا أخذ العلم من مصدره.

* الكمد: تغيّر اللّون و ذهاب صفائه، لسان العرب، ج3، ص380، حرف الدال، فصل الكاف، مادّة (ك م د) .

1- المصدر السّابق، ج5، ص544 .

* هذا عجز لبيت قاله أبو نوّاس، وصدره : فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة.

* الإحصاء: العدّ والحفظ، أحاط به، لسان العرب، ج14، ص184، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الحاء، مادة (ح ص ى).

* هذّاء: صيغة مبالغة من هذى، كثير الهذيان، يتكلّم بكلام غير معقول، المصدر نفسه، ج15، ص360 حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الهاء، مادة (ه ذ ى).

2- موسوعة شروح الموطأ للإمام مالك بن أنس، التّمهيد و الاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البرّ القبس لأبي بكر مُحَمَّد بن عبد الله بن العربي المالكي، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التّركي بالتّعاون مع مركز هجر للبحوث و الدّراسات العربيّة و الإسلامية، المشرف عليه: عبد السّند حسن يمامة ، 1426هـ، 2005م، ج1 ص20 .

ثم قال في البيت الثّاني أنّ العلم قسمان قسم يعْلَمه طالب العلم، و قسم يجْهَله ولا يدريه، و من يدّعي العلم كلّه أو يحصيه جلّه فقد أصيب بالهذيان، وهذا أمر لا يعقل وعلى المتعلّم أن يتواضع و يقول الله أعلم حتّى يعلّمه الله ما لا يعلم، إذ التّواضع في العلم أمر ضروريّ وهو مظهر عظيم من مظاهر الحضارة .

و قد ذكر ابن عبد البر في جامعه أرجوزة في آداب طالب العلم والتفقه، قال: "من النّظم ما ينسب إلى اللؤلؤي من الرّجز وبعضهم ينسبه إلى المأمون[1] قال فيها[2]:

إِيَّـــاكَ وَ العُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا وَ اِحْذَرْ جَوَابَ القَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا

كَمْ مِنْ جَـوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ فَاِغْتَنِمْ الصَّمْتَ مَـعَ السَّـــــلاَمَـهْ

العِلْمُ بَحْـــرٌ مُـنْتَهَاهُ يَـــبْعُدُ لَـــيْسَ بِـهِ حَـدٌّ إِلَـيْهِ يُـــقْصَدُ

وَلَـــيْسَ كُـلَّ العِلْمِ قَدْ حَـوَيْتَهُ أَجَلْ وَ لاَ العُـشْـرَ وَ لاَ أَحْصَيْتَهُ

وَ مَـــا بَـقِي عَلَيْكَ مِنْـه أَكْثَـرُ مِمَّا عَلِمْتَ وَ الجَـــوادُ يَعْـــثِرُ

هذه الأبيات تبيّن أنّ العلم بحور زاخرة، لن يبلغ الكادح فيه آخر، وهو بحر لا شاطىء له، فلا ينبغي للإنسان إذا أخذ شطره أن يدّعيه كلّه، فكم من إنسان علم شيئا و غابت عنه أشياء، هذه هي الأخلاق التي ينبغي لطالب العلم أن يتحلّى بها، تواضع و تؤدة وعدم الاستعجال في القول، إذ الصّمت أبلغ من الكلام، وهذا أسلوب حضاري راق في التّعامل مع العلم و التّواضع للعلماء، و تقديمهم على النّفس حتّى تتربّى على محاسن الأخلاق و تبتعد عن سفاسف الأمور.

ج- الحرص على حضور الدّرس : و في هذه الأبيات يعلّمنا الشّاعر أحمد بن ليون أنّ أساس أخذ العلم هو حضور الدّرس فقال[3] :(السّريع)

1- جامع بيان العلم و فضله، ج1، ص581 .

2- المصدر نفسه، ج1، ص583 .

3- نفح الطيب، ج5، ص545.

الدَّرْسُ رَأْسُ العِلْمِ فَاحْـرِصْ عَلَـيْهْ فَكُـلُّ ذِي عِـــلْمٍ فَـــقِيرٌ إِلَـيْهْ

مَـنْ ضَـيَّعَ الـدَّرْسَ يُـــرَى هَاذِيًا عِنْدَ اِعْتِبَـارِ النَّـاسِ مَـا فِي يَدَيْـهْ

فَـــعِـــزَّةُ الــعَالمِ مِــنْ حِـفْظِـهِ كَـعِـزَّةِ المُـنْـفِـقِ فِـيـمَا عَـلَيْهْ

الشّاعر يخبر طالب العلم أنّ حضور الدّرس أساس العلم، فلا بدّ إذن من الحرص عليه، فإنّ المتعلّمين في حاجة إليه، و مفتقرون له، و ينصحهم بأنّ الذي يضيّع الدّرس سيكون هاذيا، غير عاقل في قوله، و لا يحمل شيئا في كيسه، يهرف بما لا يعرف، فالعالم تكون عزّته و رفعته فيما يفهمه و يحفظه من علم، والعزّة لا بدّ لها من ثمن، وثمنها حضور الدّرس وحفظه، فحاله كحال من يدفع أجر مشتريات يحتاجها حتّى يتسنّى له استعمالها والاستفادة منها.

د- الرّحلة في طلب العلم :

كان العلماء يرتحلون ليحصّلوا علما ينتفعون به و ينفعون، و هذا سبب من أسباب تحصيل العلم والتّمكن منه، وفي هذا المقام نظم ابن الحاج النّميري أبياتا يقول فيها :

رَحَلْتُ نَحْوَ دِمَشْقِ الشَّـامِ مُبْتَغِـيًا رِوَايَةً عَنْ ذَوِي الأَحْلاَمِ وَ الأَدَبِ

فَفُزْتُ فِي كُتُبِ الآثَارِ حِـينَ غَدَتْ تُرْوَى بِسِلْسِلَةٍ عُظْمَى عَنِ الذَّهَبِي[1]

فالشّاعر يتكلّم عن نفسه و يقول: رحلت إلى الشّام لأجل حمل الرّواية عن العلماء فحزت على آثار النّبي ﷺ وهي تروى بسند عال عن عالم جهبذ في العلم هو الإمام الذّهبي، فالرّحلة إذن مظهر حضاري من خلالها يتحصّل المرء على علم وفير وأدب غزير يهتدي به إلى الخير خلق كثير، و يهدي به الله من يشاء له الهداية فطالب العلم لا بدّ أن يرحل لأجل العلم حتّى ينال علما غزيرا.

فالحضارة لا تكون بادئ ذي بدء إلاّ بطلب العلم والعمل به، ولا يكون هذا إلا بحضور مجالسه ودروسه وحسن سؤال العلماء والتّواضع والأدب معهم، والتّثبّت في نقل

1- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج6،ص486.

العلم وعدم استعجال الكلام فيه إلاّ بعد فهم عميق وحفظ دقيق، ولا بدّ لطالب العلم أن تكون بضاعته معه أينما حلّ و ارتحل.

إنّ العلم والتّعلم هو أساس من أسس الحضارة، بل هو أوّل الأسس التي ينبغي الاهتمام بها، فإن فُقِد هذا الباب في المجتمع فقدت الحضارة و أهلها. إذ لا بدّ أن نأخذ به حتّى تكون لنا الرّيادة و السّعادة في الدّارين، وقد لا يحصل هذا إلاّ بالمبادرة إليه والارتحال إلى العلماء كي يستفيد الطّالب و تستفيد الأمّة معه، فما انتشر مذهب مالك في المغرب الإسلامي إلا لمّا رحل طلبة العلم إليه في المدينة فأخذوا العلم عنه ونشروه في أوطانهم، قال الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُومِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التّوبة:123].

3- الدّعوة إلى الأخلاق الفاضلة :

إنّ الأخلاق الفاضلة عنصر أساس ومهمّ في بناء الحضارات، إذ بدونها لا تقوم للأمم قائمة، وكما قال الشّاعر أحمد شوقي : (الطّويل)

إِنَّمَا الأُمَـمُ الأَخْـــــلاَقُ مَا بَقِيَتْ   فَـإِنْ هُـمْ ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا[1]

الأخلاق عنوان الشّعوب، لهذا اهتمّ بها شعراء المغرب في القرن الثّامن الهجري فنظموا مقاطع تحثّ على الدّعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وتنهى عن الأخلاق الفاسدة حتّى يصلح الفرد والمجتمع ،إذ بها تقوم الحضارات وترقى الأمم إلى العلياء، وبدونها لا تقوم للأمّة قائمة ولا حضارة.

أ- التّحذير من هوى النّفس والشّحّ والعجب :

من الذين نظموا في هذا الباب : أحمد بن ليون التّجيبي فقال : (وافر تامّ)

ثَـلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ لاَ مَحَـــالَهْ   هَوَى نَفْسٍ يَقُودُ إِلَى البَطَالَهْ

1- الشّوقيات: أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، لبنان، 1988م، ج1، ص11.

وَ شُحٌّ لاَ يَـــزَالُ يُـطَاعُ دَأْبًا* وَ عُجْبٌ ظاهرٌ فِي كُلِّ حَالَهْ[1]

الشّاعر في هذه الأبيات يذكر بعض الأخلاق المهلكة كي يتجنّبها الفرد والمجتمع؛ فأوّلها : اتباع هوى النّفس؛ فالنّفس كما هو معلوم أمّارة بالسّوء، والقرآن الكريم حكى لنا قصّة يوسف عليه السّلام وأنّه نبيّ اتّهم نفسه بالسّوء وما برّأها فقال:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوٓءِ الاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف:53]؛ومعنى ذلك كما قال الشّيخ الطّاهر بن عاشور:" أي ما أبرّيء نفسي من محاولة هذا الإثم لأنّ النّفس أمّارة بالسّوء، وقد أمرتني بالسّوء ولكنّه لم يقع"[2]، فهوى النّفس لا محالة سيقود إلى التّقاعس عن طاعة الله، فتصير نفس العبد في بطالة لا تعمل في طريق الطّاعة، ثم انتقل الشّاعر في صدر البيت الثّاني إلى التّحذير من الشّح فإنّه داء لا يليق بإنسان كريم يبخل على النّاس بالمال و المعروف، والرّسول ﷺ نهى عن هذا الخلق فقال: "(إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ فَبَخِلُوا،وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا)"[3]. والله سبحانه وتعالى قال:﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر:09] فالشّحّ داء كبير يأمر بالبخل وقطيعة الرّحم و الفجور، فهو سبب لعدة أمراض خطيرة تفتك بالمجتمع كلّه فلا يبقى متماسكا ولا متعاونا بل يفرّق شمله لأجل عرض من الدّنيا قليل لا يساوي عند الله جناح بعوضة.

ثم تطرّق الشّاعر إلى العجب وحذّر منه إذ هو تعظيم النّفس فيتيه الإنسان بنفسه و ينسى أنّ الله هو مسدي هذه النّعم و الأرزاق و قد نهى الله عنه فقال: ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِے اِ۬لاَرْضِ مَرَحاًۖ اِنَّ اَ۬للَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴾ [لقمان:17] فهذه

* دأبا: عادة و ملازمة،"لسان العرب"، ج1، ص368، حرف الباء، فصل الدال، مادة (د أ ب).

1- نفح الطيب، المقري، ج5، ص545.

2- تفسير التّحرير و التّنوير، مُحَمَّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسية للنشر، تونس، 1984م، ج13 ص05.

3- صحيح سنن أبي داود، سليمان الأشعث السجستاني، تأليف: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، ج1، ص470، رقم 1698 كتاب الزّكاة، باب الشّح.

الصّفات التي ذكرها الله عزّ وجلّ كلّها لأصحاب العجب فلا تصدر إلاّ منهم والرّسول ﷺ حذّر منه فقال :" لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، العُجْبُ"[1].

فهذه الأوصاف التي ذكرها الشّاعر ونهى عن إتيانها سيئة للغاية فلا ترقى بالإنسان إلى العلياء ولا تجعله يبني حضارته و يقوّيها، بل ستعود به إلى القهقري إذ سمّاها مهلكات تهدم و لا تبني، حذّر منها حتّى يتّقيها الإنسان فيبني حضارة مزدوجة ماديّة ومعنويّة يسعد بها فتنفعه في الدّارين الدّنيا والأخرى .

ب- التّحذير من اللّهو واللّغو:

ثم تلى الشّاعر أبياتا أخرى يحذّر فيها من اللّهو واللّغو فقال :[2](كامل)

اللَّهْـــوُ مَنْقَـصَـةٌ بِصَـاحِــبِهِ   فَاِحْذَرْ مَـزَلَّةَ مُؤْثِـــرِ اللَّهْـــوِ

وَ اللَّغْـــوَ نَـزِّهْ عَـنْهُ سَمْعَكَ لاَ   تَجْنَحْ لَـهُ، لاَ خَيْرَ فِي اللَّغْـــوِ

الشّاعر ينبّه من اللّهو، و يحذّر من اعتاده، فإنّه من صاحب ذا لهو نقصت شهامته و قلّت أخلاقه، وكما قيل الصّاحب ساحب .

أمّا في البيت الثّاني فالشّاعر فهو يدعو إلى ترك اللّغو و هو الكلام الباطل الذي لا فائدة فيه[3]، والله سبحانه وتعالى جعل تركه من صفات الموحّدين، فقال:﴿ قَدَ اَفْلَحَ اَلْمُومِنُونَ ۝ اَلذِينَ هُمْ فِے صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَالذِينَ هُمْ عَنِ اِللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾ [المؤمنون:1-3]، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماًۖ﴾ [الفرقان:72]، لا يستمعون إليه، ولا يأبهون بأصحابه، ولهذا ما ينبغي للإنسان أن يشغل سمعه باللّغو فهو مضيعة للأوقات وهو أبعد ما يكون عن بناء الحضارة فهو يتلفها ولا يبنيها.

1- رواه البزّار بإسناد جيّد،"صحيح التّرغيب و التّرهيب"، زكي الدّين المنذري، تأليف : مُحَمَّد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية،1421هـ، 2000م، ج3، ص110 باب العجب.

2- نفح الطيب، المقري،ج5،ص445.

3- البحر المحيط، أثير الدين أبو عبدالله مُحَمَّد بن يوسف أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، دت، ج6، ص481.

إذن هذه الصّفات لا تنفع صاحبها ولا تخدمه، بل تهدمه وتهدم حضارته وتجعله عبدا للشّهوات، فالشّاعر في هذه الأبيات حذّر من أخطر الأمور الأخلاقيّة والسّيئة التي تضرّ ولا تنفع، فنهانا عن إتيانها ومجالسة أصحابها.

ج- التّحذير من رفقة السّوء :

لا ينبغي للإنسان أن يصاحب من ساءت أخلاقه،وفي هذا المقام قال أيضا[1]:(كامل)

اِحْذَرْ مُؤَاخَــــــاةَ الدَّنِيءِ فَإِنَّهَا عَـارٌ يَشِـينُ وَ يُورِثُ التَّضْرِيرَا

فَالمَاءُ يَخْبُثُ طَعْمُهُ لِنَجَـــاسَةٍ إِنْ خَالَطَتْهُ وَ يُسْلَبُ التَّطْــهِيرَا

الشّاعر جعل مخالطة الدنيء عدوى تصيب من صاحبه، إذ شبهه بالماء النّجس الذي إذا خالطه ماء طاهر صار مثله نجسا، و هذا ما قاله المصطفى ﷺ:"(لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا وَ لاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ)"[2]. فالصّاحب ساحب و المجالس مجانس، وصحبة الأخيار تورث الفلاح والنّجاح و تبني مجتمعا قويّا و حضارة متينة.

هـ- التّحذير من احتقار الفقير: في هذا المقام تكلّم أبو جعفر ابن مُحَّد بن جزي في سلوك النّاس حيال الغنيّ و الفقير، فقال[3]:(الطويل)

أَرى النَّاسِ يُولُـونَ الغَنِيَّ كَـرَامَةً وَ إِنْ لَمْ يَكُـنْ أَهْـلاً لِرِفْـعَةِ مِقْـدَارِ

وَ يَلْوُونَ عَنْ وَجْهِ الفَقِيرِ وُجُوهَهُمْ وَ إِنْ كَانَ أَهْـلاً أَنْ يُـلاَقَى بِإِكْبَــارِ

بَنُو الدَّهْرِ جَـاءَتْهُمْ أَحَـادِيثُ جَمَّةٌ فَمَا صَحَّحُوا مِنْهَا إِلاَّ حَدِيثَ ابْنِ دِينَارِ

في هذه الأبيات نبّه الشّاعر عن خلق ذميم ظهر في عصره وهو التّقليل من شأن الفقير ولو استحقّ التّقدير لفقره وقلّة ماله، أمّا رفع شأن الغنيّ فقد صار ظاهرة ولو كان لا

1- نفح الطّيب، ج5، ص545.

2- إسناده حسن،"سنن الدّارمي"، أبو مُحَّد عبدالله بن عبد الرّحمن الدّارمي السّمرقندي، حقّق نصّه و خرّج أحاديثه و فهرسه: فوّاز أحمد زمرلي ـ خالد السّبع العلمي، صحّح هذه النّسخة بكلّ دقّة: معراج مُحَّد، مطبعة الرّحماني، دهلي دط، دت، ج2، ص140، باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء.

3- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج6، ص559.

يستحقّ ذلك وإنّما ماله هو الذي جعله في هذه المرتبة وهذا لحبّ النّاس للمال وأهله وميولهم إليه، وكلّما جاءتهم أحاديث كثيرة و صحيحة في حقّ الفقير ردّوها وضعّفوها، وما صحّحوا منها إلاّ الذي يقدّر الغنيّ - ابن الدّينار- و هذا خلق ذميم لا يخدم الحضارة في شيء، والشّاعر يريد أراد أن ينبّه عليه ليستقيم حال النّاس و يهتدوا، ويعودوا إلى رشدهم وحضارتهم التي أسّسها سيّد الخلق ﷺ والتّنبيه على هذا الأمر لا شكّ أنّه مظهر حضاري يعيد الأمور إلى مستحقّيها ونصابها.

4- ذكر المباني و القصور:

لا شك أنّ المغرب الإسلامي عرف حضارة عمرانية و مباني فاخرة و قصورا لا تعدّ و لا تحصى؛ خاصّة قصور السّلاطين والملوك، إلاّ أنّها لم تبرز كثيرا في نظم شعراء هذه الفترة خاصّة عند شعراء الدّولة الزّيانيّة و كذلك الحفصيّة و المرينيّة، فلم نجد من الآثار الشّعرية ما يدلّنا على هذه الحضارة العمرانية التي وجدت في ذلك الزّمن أمّا شعراء الأندلس فقد انشغلوا بالتّحريض على القتال لكي يدفعوا صولة الجائر، وما عثرنا عليه من نظم فهو يسير، منه ما قاله الثّغري في ذكر بعض المتنزّهات المحيطة بقصور أبي حمّو وبېروج باب الجياد، واصفا علوّ مبانيها وصفاء أجوائها فقال:[1] (خفيف تامّ)

فِي رِيَـاضٍ مُنَضَّدَاتِ* المَجَّـــانِي* بَيْنَ تِلْكَ الرُّبَى* وَ تِلْكَ الوِهَـــادِ*

وَ بُــرُوجٍ مُشَيَّـــدَاتِ المَبَـــانِي بَادِيَاتِ السَّــنَا* كَشُهْبٍ بِــوَادِ

1- نفح الطيب، ج7، ص121.

* منضّدات: نضّدت المتاع، جعلت بعضه فوق بعض، لسان العرب،ج3،ص423،حرف الدّال، مادّة (ن ض د).

* المجاني: المجان: ماء مجان: ماء كثير واسع، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ج1، ص1233.

* الرّبى: أرض مربية: طيبة، لسان العرب، ج14، ص306، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الراء مادة (ر ب ا).

* الوهاد: المطمئن من الأرض، و المكان المنخفض كأنّه حفرة، المصدر نفسه، ج3، ص470/471، حرف الدال، فصل الواو، مادة (و ه د).

* السّنا: ضوء النّار والبرق،"لسان العرب"، ج14، ص403، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل السين، مادة (س ن ا).

رَقَّ فِـيهَا النَّسِيبُ* مِـثْـلَ نَسِـيبِي   وَ صَفَا النَّهْرُ مِثْلَ صَفْـــوِ وِدَادِي*

وَ زَهَــا الزَّهْــرُ وَالغُصُـــونُ تَثَنَّتْ*   وَ تَغَنَّتْ عَـــلَيْهِ وُرْقٌ شَـــــوَادِ*

وَ أَنْـــبَرَى كُـلُّ جَدْوَلٍ*كَحُسَـــامٍ   عَـارِيَ الغِمْدِ سُنْدُسِيَّ النِّجَـــادِ*

فالشّاعر في هذه الأبيات يصف القصور و ما يحيط بها من رياض أزهارها تتحرّك ذات اليمين و ذات الشّمال، في أرض واسعة و ممدودة، و هذه القصور لكبرها بادية و ظاهرة كأنّها الشّهب إذا تساقطت بواد، قيل فيها النّسيب مثل ما قلته في شعري و صفا فيها الحبّ و المودّة مثل صفو مودّتي لغيري، زها زهرها و ظهر، وغصونها اللّيّنة بدت و انثنت، فهي بيّنة خضراء جميلة ظهرت فيها أوراق تزيدها جمالا، أمّا عن عشبها فكأنه حرير رقيق ، فالشّاعر في هذه الأبيات يقرّب لنا صورة القصور الزّيانيّة في تلك الفترة، بصورة مختصرة مع أنّه كان من شعراء السّلطان مقرّب إليه يعرف القصور حذو القذّة بالقذّة، إلا أنّه لا يوجد في شعره وصفا لها بتلك الدّقّة وما يحيط بها من خدم و طبيعة إلا شيئا يسيرا، مع أنّ هذه من المعالم الحضاريّة جديرة بذكرها فهي تدلّ على وجود حضارة عمرانيّة قائمة في تلك الفترة .

وينقل لسان الدّين ابن الخطيب أبياتا كانت مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزّياني، قال:وهي من بدائع الدّنيا قيل فيها[1]:(كامل)

---

* النّسيب: الطّريق المتّصلة بعضها ببعض،"مقاييس اللّغة"، ابن فارس، ج5، ص424، حرف النّون، مادة (ن س ب).
* ودادي: الحبّ و المودّة، المصدر السّابق، ج3، ص453، حرف الدال، فصل الواو، مادة (و د د).
* تثنت: ثنا الشيء ثنيا، رد بعضه على بعض، وثني الحية انثناؤها و هو أيضا ما اعوج منها إذا تثنت المصدر نفسه ج14، ص115، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الثاء، مادة (ث ن ي).
* شواد: أشاد بالضّالة : عرّفها وأشاعها، ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص243، فصل الشين، مادة (ش و د).
* جدول: نهر صغير و هو ممتدّ و ماؤه أقوى في اجتماع أجزائه، مقاييس اللغة، ج1، ص 433، مادة (ج د ل).
* النّجاد: ما وقع على العاتق من حمائل السيف، و في الصّحاح حمائل السيف،"لسان العرب"، ج3 ص419، حرف الدال، فصل النّون، مادة (ن ج د).

1- نفح الطيب، ج6، ص47.

أُنْـظُـرْ بِعَيْنِـكَ بَهْـجَتِي وَ سَنَــائِي* وَ بَدِيـــعَ إِتْقَـانِي وَ حُسْـنَ بِنَـائِي

وَ بَدِيعَ شَكْـلِـي وَ اِعْتَبِرْ فِيمَـا تَـرَى مِنْ نَشْـأَتِي بَـلْ مِنْ تَدَفُّــقِ مَـائِي

جِسْمٌ لَطِيـــفٌ ذَائِـــبٌ سَيَـلاَنُـهُ صَـافٍ كَذَوْبِ الفِضَّةِ البَيْضَــــاءِ

قَدْ حَفَّ بِي أَزْهَـــارُ وَشْيٍ*نُمِقَتْ* فَغَدَتْ كَمِثْلِ الرَّوْضِ غِبَّ*سَمَـاءِ

فالشّاعر في هذه الأبيات يتكلّم بلسان حال المدرسة و كأنّها هي التي تقول: أنظر يا من زارني إلى سروري و علوّ مكانتي و مقامي بين النّاس، فهم ينظرون إليَّ بإعجاب لجمال بنائي و حسنه و بديع إتقاني و حسن شكلي، بل اعجبوا و انبهروا ببهائي فجمال الماء الذي يتدفّق جسم لطيف كأنه فضّة بيضاء ذائبة، و هي تسيل، وهذه الأزهار التي حسَّنت هذا البناء كأنّها طرز حفّ بي فازددت جمالا على جمال، إنّها المدرسة التّاشفينية التي بنيت لأجل العلم و نشره فهي مظهر حضاري من جهتين؛ بناؤها و جمالها يدلّ على حسن الهندسة، و تقدّم أهل هذا الفنّ في ذلك الزّمن، وكذا حسن التّطريز والتّجميل، أمّا من جهة أنّها مبنى خصّص للتّعليم و التّعلم ونشرالعلم وتجديده، فهي بهذا تؤدّي رسالة حضاريّة قلبا و قالبا ؛ مدرسة للتعلّم، وعمران يدلّ على إشعاع حضاريّ بما تعنيه الكلمة من معنى إذ العلم يؤدّي وظيفة التّثقيف والتّوعية ، والبناء الحضاري هو ثمرة العلم ويدلّ كذلك على تقدّم وازدهار تلك الفترة .

5- وصف آلة نفط :

الشّاعر أبو زكريّا الغرناطي،يصف لنا آلة نفط تهدّ الجبال في أبيات قال فيها[1]:(الطويل)

* سنائي: سنا إلى معالي الأمور سناء، ارتفع ،"لسان العرب"، ج14، ص403، مادة (س ن ا).

* وشي: وشى الثوب و شيا و شية: حسّنه، وشاه: نمّه و نقشه و حسّنه، لسان العرب، ج15، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الواو، مادّة (و ش ى).

* نمقت: حسنه وجوده ونقشه، المصدر نفسه، ج10، ص361، حرف القاف، فصل النون، مادة(ن م ق).

* غِبّ كلّ شيئ: عاقبته، المصدر نفسه، ج1، ص 635، فصل الغين، مادة (غ ب ب).وغِبُّ سَمَاءٍ : تعني المطَر

1- نفح الطيب، ج5، ص493.

وَ ظَنُّوا بِأَنَّ الرَّعْدَ وَ الصَّعْقَ* فِي السَّمَا   مُحَاقٌ* بِهِ مِنْ أَيْدِهِ الصَّعْقُ وَ الرَّعْدُ

عَجَائِبُ أَشْكَالٍ سَمَا هُرْمُسٌ* بِهَا   مُهَنْدَسَةٍ تَأْتِي الجِبَالَ فَتَنْهَدُّ

أَلاَ إِنَّهَا الدُّنْيَا تُرِيكَ عَجَائِبًا   وَ مَا فِي القِوَى مِنْهَا فَلاَ بُدَّ أَنْ يَبْدُو

فالشّاعر يريد أن يصف آلة تهدّ الجبال، وكأنّها صاعقة، فتعجّب الشّاعر قائلا: إنّ الصّعق و الرّعد لا يكون في السّماء فحسب، بل هو سائر في الأرض كذلك، كحال الآلة لها أصوات كالرّعد، و هي مهندسة لها شكل معيّن، وهذا كله من العجائب الموجودة في هذه الدنيا، بل سيكون المستقبل أكبر من هذا ربّما، وكان هذا الوصف بحكم تخصّصه في الكيمياء و الهندسة و غير ذلك. فكتب هذا الشعر يصف بعض ما كان موجودا من مخترعات في عصره، وهذا لا شكّ تطوّر هائل في ذلك الزّمن بل مظهر حضاري كبير يصوّر لنا مدى تقدّم هذه الدّولة و تقدّم العلوم التّكنولوجيّة فيها. وكما هو معلوم أنّ دولة الأندلس كان لها الفضل بعد الله عزّ و جلّ في تقدّم كلّ حضارة جاءت بعدها بما فيها الحضارة الغربيّة في عصرنا الحاضر[1]، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، والحقّ ما شهدت به الأعداء.

6- وصف ناعورة:

النّاعورة تكون على شكل دائري يركب عموديا على مسار تيار الماء في النهر، ويثبت على محيط الدائرة عدد من الأوعية لتجمع الماء فيها وترفعه إلى الأعلى لتفرغه في مجرى عند

* الصّعق: الصّاعقة: الوقع الشّديد من صوت الرّعد يسقط معه قطعة من نار، و صوت العذاب أيضا." المحيط في اللّغة " إسماعيل بن عباد، تحقيق: محمّد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، 1395هـ،1975م، ج1، ص129/128 مادّة (ص ع ق) .

* محاق: حاق به الشّيء يحيق حيقا: نزل به و أحاط به، لسان العرب، ج10، ص71، حرف القاف، فصل الحاء، مادّة (ح ي ق).

* هرمس: في الخرافات اليونانيّة: رسول الآلهة، و في الفلك : عطارد أقرب الكواكب إلى الشّمس،" تاريخ الأدب العربي" عمر فروخ، ج 6، ص467.

1- ينظر: شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكه، أثر الحضارة العربية في أوربا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه و وضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط8، 1413هـ، 1993م ص13/12/11.

نزولها من قمّة محيط الدّائرة، تصنع من الخشب الصلب وموطنها الأوّل سوريّا، يركب على كلّ النّواعير (24) قلّة. و فيها قال أبو القاسم السّبتي الغرناطي[1] أبياتا: (الطّويل)

وَ ذَاتُ حَنِـــينٍ تَسْتَهِـلُّ* دُمُــوعُـهاَ   سِجَامًا* إِذَا يَحْدُو* رَكَائِبَهَا* الحَـادِي

تعجّبْتُ أَنْ لَيْسَتْ تــَـرِيمُ* مَكَانَهَا   وَ لَمْ تَخْلُ مِنْ تَأْوِيبِ* سَيْرٍ وَ إِسَادِ*

وَ أَرْصَـدْتُهَا* فِي الـرَّوْضِ أَيــَّـةَ عُـدَّةٍ   فَكَانَتْ لِدَفْعِ المَحْلِ* عَنْهُ بِمِرْصَادِ

تُخَالِفُ مَـاءَ المُـزْنِ* حُكْـمًا وَ مَـاؤُهَا   وَكُلٌّ عَلَى رَوْضِ الرُّبَى رَائِحٌ غَادِي

فَيُنْجِـــدُ* هَـذَا بَعْدَ أَنْ كَـانَ مُتْهِـــمًا*   وَ ذَاكَ يـَرَاهُ مُتْهِمًا بَعْـــدَ إِنْجَـادِ

لَــئِنْ قذَفَتْ ذَوْبَ اللُّجَيْنِ* عَلَى الثَّرَى   لَقَدْ خَلَّصَتْهُ القُضُبُ حُلْيًا لِأَجْيَـادِ*[2]

1- محمّد بن أحمد الحسيني من أهل سبتة، كان فاضلا وقورا حافظا فصيحا قاضيا، تولى القضاء في غرناطة، و توفي بها سنة 760ه.(الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي، دراسة و تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1417ه،1996، ص384/385.

* تستهل: هلَّ السَّحاب بالمطر،وانهلّ انهلالا، وهو شدّة انصبابه،"لسان العرب"،ج11 ص701،مادة(ه ل ل).

* سجم: سجم الدّمع سال، "مختار الصّحاح"، الرّازي، ص121، باب السّين، مادّة (س ج م).

* يحدو: حدا الإبل و حدا بها يحدو حدوا و حداء: زجرها خلفها و ساقها، المصدر السابق، ج14، ص168 حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الحاء، مادة (ح د ا).

* الرّكائب: إذا كانت، ركاب لي، وركاب لك، "لسان العرب"، ج 1، ص431 حرف الباء فصل الراء، مادة (ر ك ب).

*تريم: الريم البراح و الفعل رام يريم، إذا برح، المصدر نفسه، ج12، ص259، حرف الميم، فصل الراء، مادة (ر ي م).

* تأويب: سير النّهار كله إلى اللّيل، المصدر نفسه، ج1، ص220، فصل الهمزة، مادة (أ و ب).

* الإساد: سير الليل بلا تعريس أو سير الإبل الليل مع النهار، القاموس المحيط، ص286، فصل السين، مادة (س أ د).

* أرصدتها: أرصدت له: أعددت، المصدر نفسه، ص 282، فصل الراء، مادة (ر ص د).

* المحل: الشدة و الجذب و انقطاع المطر، المصدر نفسه، ص1056، فصل الميم، مادة (م ح ل).

* المزن: السحاب،"مقاييس اللغة "، ابن فارس، ج5، ص318، كتاب الميم، باب الميم والراء وما يثلثهما، مادة(م ز ن).

* ينجد: النجد من الأرض قفافها و صلابتها، و ما غلظ منها و أشرف و ارتفع و استوى،المصدر السابق، ج3 ص413، حرف الدال، فصل النون، مادة (ن ج د).

* متهما: تهامة اسم مكة، و النازل فيها متهم،لسان العرب، ج12، ص72، فصل التاء، مادة (ت ه م).

* اللّجين: الفضّة، "مقاييس اللغة "، ج5، كتاب اللاّم، باب اللاّم و الجيم و ما يثلثهما، مادّة: (ل ج ن).

* الأجياد: جمع جيد و هو العنق، المصدر السابق، ج3، ص139، فصل الجيم، مادة (ج ي د).

2- تاريخ الأدب العربي ، فروخ ، ج6، ص479

فالشّاعر في هذه الأبيات يصف لنا ويصوّر ناعورة وهي تحدث صوتا عند دورانها تحنّ إليه النّفس وترتاح لسماعه فهي تحدث صوت خرير الماء لأنّها تسكبه في السّواقي كأنّه دموع، تديرها دوابّ حيثما توقّفوا عن الدّوران توقّف الماء عن السّواقي، فلا تصبّه في القنوات، لأجل دفع القحط وقلّة الإنتاج فيختلط ماؤها أحيانا بماء المطر - وهو المزن - فماؤها يأتي صباح مساء يكاد لا ينقطع يتفرّق في السّواقي إلى الرّياض حيث الأزهار فيرتفع و يصير متْهما بعد أن كان منخفضا، مهيّئا للتّجميل به، تضعه النّساء الجميلات في أجيادهنّ وأعناقهنّ.

فهذه النّاعورة تعدّ مظهرا حضاريّا كونها صنعت في هذه الفترة وهي دليل على تطوّر أساليب السّقي عند الأندلسيّين خصوصا والمغاربة عموما، وهي طرق ملائمة لسقي المحاصيل الزّراعية ومازالت تستعمل إلى الآن في بعض القرى في المشرق و المغرب حيث تتواجد الأنهار.

إنّ المظاهر الحضاريّة التي عاشها المسلمون في القرن الثّامن الهجري تعدّدت في الشعر المغربي عموما بل ذكر بعضها أو جلّها إن لم نبالغ، خلا وصف القصور و المباني العظيمة التي لم توصف وصفا دقيقا خاصّة عند شعراء السّلاطين، إذ أنّهم كانوا أقرب إلى الملوك في قصورهم، فكان الأجدر بهم أن يصفوها، إذ تعدّ مظهرا حضاريّا يدلّ على تقدم العمران في تلك الحقبة، وكان لهذا الامتناع أسباب منها: انشغالهم بقضيّة الأندلس مثلا لدفع العدوّ الجائر، و كذلك الصّراعات القائمة في تلك الفترة بين المرينيّين و الحفصيّين والزّيانيّين، فكلّ واحد أراد أن يتوسّع في المنطقة على حساب الآخر. أكثر الشعراء في هذه الفترة من نظم شعر المولديّات، ونظموا أيضا مقاطع من شعر التّحريض على العلم والدّعوة إلى الأخلاق الفاضلة، كما أنّهم وصفوا في شعرهم بعض الآلات مثل آلة النّفط، وكذلك النّاعورة التي تصبّ الماء في السّواقي، فهذه كلّها تعدّ مظاهر حضاريّة استطاع المجتمع المغربي أن يوجدها في القرن الثّامن الهجري، و ذكرها شعراؤهم في قصائدهم ومقطوعاتهم.

الفصل الثّاني:

المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي خلال القرن التّاسع الهجري

1-شعر المولديّـــــــــات

2-النّصح والإرشــــــاد

3-الشّعر التّعليمـــــــي

إنّ الشّعر الحضاريّ في القرن التّاسع الهجري، لم يتنوّع كثيرا، ولم يتعدّد، بل قلّ إنتاجه الفكري وما ذلك إلاّ لأسباب عديدة أدّت إلى هذا الضّعف ؛ فسقوط الأندلس في أيدي المحتلّين وهجرة جلّ علمائها إلى المشرق، زيادة على الاضطراب السّياسي بين الجيران والذي ساد منطقة المغرب الأقصى والأدنى والأوسط حيث قام الصّراع بين هذه الدّول الثّلاث المرينيّين والحفصيّين والزّيانيين؛ كلّ دولة تريد أن تتوسّع على حساب جارتها، وهذا بلا شكّ أنّه يدفع بعجلة الضّعف والانهيار على كلّ المستويات، فكلّ واحد ينهك قوّته ويضعف جهوده بلا فائدة؛ ضُعف سِيَاسِي يتبعه ضعف فِكْري؛ والعكس صحيح فكلّما استقرّ الأمن السّياسي والاقتصادي وشجّع العلم وأهله في البلاد كلّما كثر فيها النّتاج الفكري فلهذه الأسباب وغيرها قلّ الشّعر الحضاري، فلم ينظم الشّعراء في هذه الفترة إلاّ القليل؛ شعر المولديّات، النّصح والإرشاد وكذلك الشّعر التّعليمي.

1-شعر المولديّات:

إن هذا الشّعر كما أسلفنا القول عنه في الفصل الثّاني هو مدح للمصطفى ﷺ كان يقال بمناسبة المولد النّبوي الشّريف، إذ لم يكن بمعزل عن الشّعر العربي القديم بل حذا حذوه، فكان يبتدئ بمقدّمة طلليّة و قد تنوعت هذه المقدّمة من النّسيب إلى صوفيّة أو الشّباب و الشّيب أو الرّحلة إلى البقاع المقدّسة، ثم ينتقل الشّاعر منها إلى التّخلص هذا في عموم القصائد فكان واسطة بين المقدّمة والموضوع الأساسي للقصيدة وهذا الأخير كان يعتمد عموما على مدح المصطفى ﷺ و ذكر مناقبه و صفاته و معجزاته، و بعده ينتقل الشّاعر إلى الموضوع الثّانوي فيذكر تقصيره في مدح المصطفى ﷺ، وأنّه قد كثرت ذنوبه وقلّت حسناته فيسأل الله المغفرة و الإعانة على التّوبة،و هذه الأخيرة تختلف من شاعر لآخر إذ قد يكون فيها مدح السّلطان كذلك إن ألقاها الشّاعر بحضرته، ثمّ في خاتمة قصيدته يدعو لنفسه ويصلّي ويسلّم على النّبيّ المختار ﷺ، هذه هي الخطّة الّتي اعتمدها غالب الشّعراء في قصيدة المولديّات وقد أسلفنا هذا فيما سبق.

ولئن تكلّمنا عن شعر المولديّات في القرن التّاسع الهجري فلا نجد منه إلاّ النّزر اليسير، وما كان هذا إلاّ للأسباب السّياسية التي كانت تدور في المنطقة وذلك من خلال الصّراعات القائمة على التّوسع فيها، و هكذا تنازع أهل المغرب فيما بينهم حتى ضعفت شوكتهم، وسقطت الأندلس أو دولة بني الأحمر غرناطة فضاعت وضاع أمل المسلمين في استرجاعها، وأفْلَتَ العقد من يد صاحبه، فمرّت المنطقة بصراعات ضعفت فيها الحضارة المّاديّة وكذا المعنويّة وقلّ النّتاج الفكري في هذه الفترة.

قلّ الشّعر الحضاريّ كما أسلفنا القول إلاّ أنّه لم ينعدم، فمن الشّعراء الذين نظموا مدحا في المصطفىﷺ وهو ما يعرف بشعر المولديّات في هذا القرن الشّاعر أحمد بن أبي القاسم خلوف الأندلسي القسنطيني، وكان ذلك في قصيدة ميميّة من بحر الطّويل سمّاها :"سمط العقود في مدح سيّد الوجود " وسنتطرق إليها في فصلنا هذا بالشّرح و التّحليل.

أ- مقدّمة القصيدة :

تعد مقدمة القصيدة المولدية عملا فنّيّا متقنا، يستمدّ إتقانه و فنّيّته من جهد الشّاعر الإبداعي. إذ اهتم بها الشّعراء اهتماما كبيرا لقيمتها الفنّيّة المؤثّرة، فهي تستدعي عناية المتلقّي و تشدّ انتباهه[1]، فقد أدركوا أنّ"حسن الافتتاح داعية الانشراح و مطيّة النّجاح"[2].

إنّ مقدّمة القصيدة المولديّة تتشكّل من لوحة أو أكثر من لوحات الطّلل النسيب و الشيب و غيرهما،" إذ هم لم يكثروا من عناصرها، و لم يقفوا عند جزئيّاتها أو يسرفوا في مظاهرها كما يفعل شعراء عصر ما قبل الإسلام"[3]، بل إنّ كثيرا من الشّعراء يمزجون في مقدّمة قصيدتهم بين الغزل والطّبيعة و هذا للتّعبير عن مشاعرهم، فهو يستعير أوصافا كثيرة من الطّبيعة حتّى يصف بها المحبوبة المتغزّل بها و قبل هذا كلّه يبدأ بوصف الطّبيعة وجمالها الخلاب ثم يربط ذلك بجمال المرأة المتغزّل بها ويعتمد في ذلك على

1- بنية قصيدة المولد النّبوي في الأندلس و المغرب حتّى القرن 9هـ، عبدالحليم الهروط دط، دت، مخطوط.

2- العمدة في محاسن الشّعر و آدابه، ج1، ص217.

3- المصدر نفسه، ج1، ص188.

عنصرين أساسيين من عناصر الطّبيعة هما: ريح الصّبا والبرق، فيوظّفهما كثيرا ليهيج الذّكرى ويحمّلها التّحيّة والسّلام[1].

و على هذا شكّل ابن خلّوف القسنطيني مقدّمة قصيدته فقال :

رَأَى البَــرْقُ تَعْبِيـسَ *الدُّجَى* فَتَبَسَّـمَا   وَ صَـافَـحَ أَزْهَـــارَ الـرُّبَى فَتَنَسَّـمَا*

وَ لاَحَ* جَبِينُ الصُّبْحِ فِي طُـرَّةِ* الدُّجـَى   فَخِلْتَ بَيَاضَ الثَّغْرِ* فِي سُمْرَةِ اللَّـمَى*

وَ رَقَّ لِــوَاءُ الـــبَرْقِ لَمَّـا تَـلاَعَبَت   سَوَابِقُ خَيْلِ الرِّيحِ فِي حَلْبَـةِ السَّمَا

وَ أَوْتَــرَ رَامِـي الجَــوِّ قَـوْسَ سَـحَابِهِ   وَ أَرْسَلَ نَحْوَ الأَرْضِ بِالقَطْرِ أَسْهُـمَا

وَ قَـدْ بَـلَّ أَرْدَانَ* الثَّـرَى دَمْـعُ مُزْنَـةٍ*   تَـنَـــاثَـرَ فِي أَسْـــلاَلِـهَا فَتَنَظَّمَا[2]

فالشّاعر في هذه الأبيات بدأ بمقدّمة طلليّة فمزج فيها بين الطّبيعة والنّسيب صوّر لنا ظهور البرق في الظّلام و مصافحته للأزهار وهي استعارة أراد بها الشّاعر أن يبديَ انتعاشه لهذا المنظر، فالزّهور تدلّ على الحبّ، وهذه المصافحة في الحقيقة هي لمحبوبته التي يبحث عنها ويتغنّى بها، وقد بدا له الصبح في ثنايا اللّيل و حاشيته و كأنه يريد أن يخرج و يظهر. فيتبيّن له بياض و كأنه في حفرة يحيط به سواد شديد و كثير، و هذه كناية عن قرب ظهور محبوبة الشّاعر و رؤيته لها و بهذا سينجلي الصّبح بعد سواد كثير وتعب

1- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين، ص79.

* تعبيس: نظر بكراهة شديدة،"لسان العرب"، ج4، ص58، مادة (ع ب س).

* الدّجى: سواد الليل مع غيم ، المصدر نفسه ، ج14، ص249، مادة (د ج ا).

* تنسّما: تنفس، المصدر نفسه، ج12، ص575، مادة (ن س م).

* لاح: لاح سهيل، إذا بدا، بان و ظهر، المصدر نفسه، ج02، ص586،حرف الحاء، (ل و ح).

* طرة: طرّة الثّوب موضع هُدْبه، وهي حاشيته وطرفه،المصدرنفسه،ج4،ص500،حرف الرّاء، مادّة:(ط ر ر).

* الثّغر: الفم، المصدر نفسه، ج04، ص103. حرف الرّاء، فصل الثّاء، مادّة (ث غ ر).

* اللّمى: سمرة الشّفتين، المصدر نفسه ،ج15، ص258.حرف الألف اللّيّنة، مادّة (ل م ا).

* أردان: الرّدن: مقدّم كمّ القميص، المصدر نفسه، ج13، ص177. حرف النّون، مادّة (ر د ن).

* مزنة: السّحابة البيضاء، المصدر نفسه، ج13، ص406. حرف النّون، فصل الميم ، مادّة (م ز ن).

2- الدّيوان: أحمد بن القاسم الخلوف الأندلسي، المطبعة السّلمية، بيروت،لبنان، 1972م، ص158 .

شديد، فهو يطمئن نفسه عن قرب الموعد الذي يستريح فيه الشّاعر ليرى محبوبته، و صوّر لنا نسيبه هذا بصور الطّبيعة. ثم قال: رقّ ضوء البرق وبدأ يتلاشى لمّا هبّت الرّيح وكأنّها خيول في حلبة تتسابق في السّماء، إلى أن جاء رام وأرسل أسهما تقطر بالماء فخفي بذلك المطر قبل أنْ تقدم التُّراب وتتساقط عليه وقد صوّرها وكأنّها دموع متناثرة مصفوفة منظّمة و بهذا فالشاعر يريد أن يؤكّد أنّ الصّبح سينجلي قريبا ويرى محبوبته و هذا مدعاة لفرحه و لمّا هبّ الرّيح وبدأ البرق يختفي بدأت المحبوبة في نظر الشّاعر تبتعد، فاختفاء ضوء القمر الذي ينير الطّريق بدأ يختفي و هذا أيضا دليل على اختفاء المحبوبة وبعدها عنه مرّة أخرى فقد طال أمده عنها و بعدت الشّقة ونفذ الصّبر فالشّاعر إذن يعيش حياة الآلام والآمال.

و قال في ثنايا قصيدته[1] :

....

وَ اغْشَى حِمَى لَيْلَى وَ إِنْ كَانَ قَيْسُهَا أَعَدَّ لِمَنْ يَغْشَاهُ جَيْشًا عَرَمْرَمًا*

وَ لَمْ أَنْتَدبْ إِلاَّ سِهَامًا مُفَـوِّقَا وَ عَوِجًا وَمِرْنَانًا* وَ قَلْبًا مُصَمِّمَا*

وَ أَبْيَضَ بَسَّــــامِ الفِرَنْدِ* مُجَوْهَرًا وَ أَسْمَرَ مَصْقُولِ* السِّنَانِ مُقَوَّمَا

....

تَخَيَّلَ سِرْحَانًا* وَ سَايِرْ كَوْكَــبًا وَ لاَحَظَ يَعْفُورًا* وَ لاَعَبَ أَرْقَمَا*

1- الدّيوان: ابن خلّوف القسنطيني: ص160.

* عرمرم: كثير، و قيل هو الكثير من كلّ شيء، و العرمرم : شديد. و رجل عرمرم شديد العجمة،"لسان العرب" ج12، ص397. حرف الميم، فصل العين، مادّة (ع ر م).

* مرنانا: مرنّة: القوس، و مرنانا مثله، المصدر نفسه،ج13،ص187 ،حرف النّون، فصل الرّاء، مادّة (ر ن ن) .

* مصمّما: التّصميم: المضيّ في الأمر، المصدرنفسه،ج12،ص347،حرف الميم، فصل الصّاد، مادّة: (ص م م).

*الفرند: وشي السيف، وهو دخيل، المصدر نفسه ج3،ص334.حرف الدّال.

* مصقول: الصّقل: الجلاء، المصدر نفسه، ج11،ص380،حرف اللاّم، فصل الصّاد، مادّة : (ص ق ل).

* سرحانا: تسمي هذيل الأسد سرحانا، و قيل الذئب، المصدر نفسه، ج2، ص482.مادّة : (س ر ح).

* يعفورا: ظبي بلون التّراب، المصدر نفسه، ج4، ص590. حرف الرّاء، فصل العين،مادّة: (ع ف ر).

* أرقم: الحية التي فيها سواد و بياض، المصدر نفسه، ج12، ص249.حرف الميم، مادّة: (ر ق م).

فَاسْـرَح لَـمَّا أَنْ تَـوَثَّبَ* جَـــارِحًا* وَأَلْجَـمَ* لَـمَّا أَنْ تَـثَاوَبَ ضَـيْغَـمَا*

ففي هذه الأبيات ينوّه الشّاعر ويذكر أنّه يحمي سيحمي محبوبته فقد أعدّ لهذا الحبّ عدّته، قوّة ترهب و تتعب الأعداء، قد أعدّ الشّاعر سهاما و قوسا ليّنا يتحمّل و لا يتكسّر، و قلبا شديدا قويّا حتّى لا يتعبه هذا الحبّ ولا ينهكه، ومن العتاد الذي أعدّه الشّاعر كذلك لمن أراد بحبّه سوءا؛ سيف أبيض مجوهر إذا أظهره قوّم كلّ شيء وأصلحه.

فالشّاعر في البيتين الأخيرين يصف بعض مظاهر الطّبيعة التي توحي بأنّه لن يتخلّى عن هذا الحبّ مهما بلغت الصّعاب وإن نفذ الصّبر؛ كالذّئب الذي يروح ويجيء من أجل حاجته لا ييأس مهما بعدت أو صعبت، وهو بهذا ينذر من أراد أن يقف حاجزا بينه وبين محبوبته لأجل أن يستعيد هذا الحبّ من الذين منعوه لو عرفوا حقيقته، فهو يصوّر نفسه أسدا إذا تثاءب في وجههم فسيسكتهم عن الظّلم والنّميمة فلا يوقعوا بينه وبين محبوبته. ثمّ قال[(1)]:

....

فَرَيْتُ* بِهِ فَـوْدَ الفَلاَةِ* وَ لَمْ أَزَلْ أَرُوحُ وَ أَغْدُو طَابِـرًا* وَ مُحَـوِّمَا

و في آخر بيت من المقدّمة الطلليّة يقول الشّاعر أنّه قطع معظم الصحراء الواسعة يروح ويغدو مرارا و يختبيء أخرى ويحوم في كلّ موضع منها، لا يملّ ولا يكلّ بحثا عن محبوبته، يحوم لأجل حبّه عساه أن يجده أو يعثر عليه يوما ما.

---

* توثّب: توثّب فلان في الضّيعة أي استولى عليها ظلما، المصدر نفسه ، ج1، ص792. مادّة: (و ث ب).

* جارحا: الطّير الجارح، الذي يجرح، المصدر نفسه، ج2، ص423.حرف الحاء،مادّة: (ج ر ح).

* ألجم: منع من الكلام (من المجاز)، المصدر نفسه، ج12، ص105." تاج العروس من جواهر القاموس"، مُحَمَّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، راجعه: أحمد مختار عمر- عبد اللطيف مُحَمَّد الخطيب، التّراث العربي الكويت،1421هـ/2000، ج33،ص401،حرف اللاّم، مادّة: (ل ج م) .

* ضيغما: الضيغم الذي يعض، و سمي الأسد ضيغما، المصدر نفسه، ج32، ص542. حرف الضّاد.

1- الدّيوان: ابن خلّوف القسنطيني، ص161/160.

* فريت الشّيء قطّعته لأصلحه،"لسان العرب"،ج15،ص153. حرف الواو والیّاء من المعتلّ، مادة: (ف ر ا).

* الفلاة: القفر من الأرض، التي لا ماء فيها، المصدر نفسه، ج15.

* طبر: قفز و اختبأ،"القاموس المحيط"الفيروزآبادي،ص430،حرف الطّاء، مادّة (ط ب ر) .

إذن فالمقدّمة الطلليّة تشكّل في القصيدة المولديّة بعدا نفسيّا عند الشّعراء فهي تحجب عاطفة و معنى أعمق و أبعد مما يدلّ عليه ظاهر ألفاظها الخارجيّة فالأنماط فيها تعدّدت والطلليّة فيها لا تخرج عن المشهد الطّلليّ الموروث، فقد" كانت العرب في أكثر شعرها تبتدىء بذكر الدّيار و البكاء عليها، و الوجد بفراق ساكنيها"[1] و هذا ما جعل شعراء المغرب في شعر مولديّاتهم يبدؤون به فيقدّمون قصيدتهم بالبكاء على الأطلال التي يكنّي بها الشّعراء عما يقاسونه من معاناة البعد عن الدّيار وذكر المحبوبة في الصّباح والأسحار والأماكن التي كانوا يعيشون فيها" إذ أنّ استحضار المعاني الطلليّة الرامزة إلى المعاناة هو من أكثر المعاني التصاقا بالحالة العاطفيّة للنّفس البشريّة"[2]، فكان لأهل المغرب حظّ من هذا الموروث الطّللي نحَوْا نَحْوه واقتفوا أثره، وأضافوا إليه عنصرا جديدا، وهو "أن شعور الشّعراء بطول اللّيل راجع إلى انشغالهم بمديح الرّسول ﷺ وما يجدون فيه من لذّة و متعة يستشعرون من خلالها نشوة الكبرياء، و يستمدّون منها عزّة النّفس، لا يتمنّون معها انقضاء اللّيل على عادة الشّعراء"[3] فليلتهم تقضى في المديح النّبوي، إذ أنّهم يطيلون النّفس في المدح، وكأنّ ليلتهم هذه لا يريدونها أن تنقضي لحلاوة ما يجدونه فيها.

ب- موضوع الغرض الأساس:

1- مدح الرّسول ﷺ و تعداد مناقبه :

إنّ لكلّ قصيدة لبًّا وجوهرًا وأساسًا تتحدّث عنه، فجوهر القصيدة المولديّة وأساسها هو مدح النّبي ﷺ وذكر مناقبه ومعجزاته، فيذكر الشّاعر بعض مناقبه ومعجزاته، وهذا إثباتا منه لنبوّته وتصديقا لرسالته، فالشّاعر ابن خلوف نحا هذا النّحو في قصيدته فقال في بداية المدح[4] :

1- كتاب الصناعتين الكتابة و الشّعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، دت، ص474.

2- بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب حتّى القرن التّاسع الهجري، ص191.

3- المرجع نفسه، ص192.

4- الدّيوان، ابن خلوف القسنطيني، ص161.

وَ لاَ حَاجَةُ فِي النَّفْسِ إِلاَّ اِمْتَدَاحُهَا أَبَا القَاسِمِ الهَادِي النَّبِيَّ المُعَظَّمَا

بَشِيرًا نَـذِيـرًا صَادِقَ القَوْلِ مُرْسَلاً حَبِيـبًا خَلِيلاً هَاشِمِـيًّا مُـقَـدَّمَا

قَفِـــيًّا*فَقِـــيًّا*أَبْطَحِـيًّا*مُبَجَّلاً سِرَاجًا مُنِيرًا زَمْـــزَمِـيًّا مُكَــرَّمَا

ابتدأ الشّاعر موضوعه الأساس في القصيدة بالمدح فهو لا يجد حاجة في نفسه إلاّ مدح النّبي ﷺ فكنّاه أبا القاسم و هذه الكنية وردت في حديث فقد روي عن أبي هريـرة رضي الله عنه أنّه قال : قـال رسـول الله ﷺ: " تَسَمَّوْا بِي، وَ لاَ تَكَنَّوْا بِي، أَنَا أَبُو القَاسِمِ"[(1)]. و عن أبي عبد الله القراظ أنّه قال : أشهد الثّلاث على أبي هريرة رضي الله عنه أنه قـال: قـال أبـو القـاسم ﷺ : " مَـنْ أَرَادَ أَهْـلَ البَلْدَةِ بِسُـوءٍ - يَعْنِي أَهْلَ المَدِينَةِ - أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ "[(2)].

ثم تلا ذلك تعظيم الشّاعر للنّبي ﷺ و تعداد صفاته منها قوله:" بشيرا نذيرا " و هذه الصّفات وردت في القرآن الكريم، قـال الله سـبحانه و تعـالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سـبأ:28]، فهـذه صـفات في حـق نبيّنـا ﷺ " بشـيرا بالجنـة لمـن أطاعه، و نذيرا من النّار لمن كفر به"[(3)]، فهو صادق في قوله مرسل إلى النّاس جميعا

* قفيّا: المقفّي المتّبع للنّبيّين، و يقال آخر الأنبياء، فإذا قفّى فلا نبي بعده،" تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاري و مسلم"، مُحَمَّد بن فتوح بن عبد الله الأزدي، تحقيق: زبيدة مُحَمَّد سعيد عبدالعزيز، مكتبة السّنة القاهرة، مصر، ط1 1415ه/1995م، ص82 .

* فقيا: فقوت أثره: قفوته،" القاموس المحيط"،ص1322،حرف الفاء،مادة (ف ق و).

*أبطحيا: يعني أبطح مكّة: هو مسيل واديها،" لسان العرب"، ج2، ص413، حرف الحاء، فصل الباء، مادّة (ب ط ح).

1- صحيح الإسناد،"المسند" للإمام أحمد، المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط1 1416ه/1995م، ج7 ص 444/443، رقم:7714، باب ابتداء مسند أبي هريرة.

2- صحيح الإسناد، المصدر نفسه، ج8، ص163، رقم:8075، باب ابتداء مسند أبي هريرة.

3- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البرذوني، إبراهيم اطفيش، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط2، 1384ه/1964م، ج14، ص301.

إنسيّهم و جنيّهم، عربيّهم و عجميّهم، فهو هاشميّ و بنو هاشم جزء من قبيلة قريش، وينسب بنو هاشم إلى هاشم بن عبد مناف و قد سمي هكذا لأنّه كان يهشم الثّريد و الخبز عند الكعبة للنّاس فيطعمهم[1]، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إِنَّ اللهَ اِصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاِصْطَفَى قُرَيْشًا من كِنَانَةَ، وَ اِصْطَفَى من قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَ اِصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)"[2]. فهو عليه الصّلاة والسّلام مقدّم على سائر الأنبياء و الرّسل، فهو أوّل أولي العزم من الرّسل، و هو سيّد الأوّلين و الآخرين.

ولا شك أنّ مُحَمَّدا خاتم الأنبياء و المرسلين، فهو قفي كما قال الشاعر، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي.."[3]، فهو مكي ولد فيها عام الفيل معظّما ومبجّلا كما قال الشّاعر، يضيء للنّاس وينير لهم طريق الحقّ ويبعدهم عن طريق الغيّ و الباطل علا صيته في كل فجّ ومكان فهو النّبي المكرم ﷺ ، قدّم الشّاعر بهذه المقدّمة في الموضوع الرئيس فعدّد وذكر بعض مناقبه و صفاته ﷺ فاقتبسها من القرآن والسّنة النّبويّة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام .

2- الإشادة بليلة مولده و ذكر بعض معجزاته ﷺ :

إنّ الإشادة بليلة المولد النّبويّ الشّريف تعدّ من أهمّ العناصر التي تدخل في بناء القصيدة المولديّة، بل لأجلها أنشئت هذه القصيدة، حيث أضاف إليها الشّعراء ذكر بعض المعجزات التي حدثت في ليلة مولده ﷺ، و المعجزة هي أحد مظاهر النّبوة فما من نبيّ إلاّ و أيّده الله تعالى بما يثبت نبوتّه وصحّة رسالته، والشّاعر ابن خلّوف القسنطيني الأندلسي

1- السّيرة النّبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام جمال الدّين، تحقيق: مصطفى السّقا و إبراهيم الأبياري و عبدالحفيظ الشّلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2، 1375هـ/1955م، ج1، ص106.

2- المسند الصحيح، مسلم بن الحجّاج القشيري النّيسابوري، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ج4، ص1782، رقم:2276، باب فضل نسب النبيﷺ.

3- المصدر نفسه، ج3، ص1471، رقم:1842، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل.

ذكر هذا فجمع بين الإشادة وذكر بعض المعجزات التي حدثت ليلة مولده، فقال[1]:

....

نَـبِيٌّ بِـهِ غَــاضَتْ* بُحَيْرَةُ سَــــاوَةٍ وَ ضَاءَتْ قُصُورُ الشَّامِ وَ اِعْتَزَّتِ السَّمَا

نَــــبِيٌّ لَـهُ قَــدْ شُـقَّ إِيوَانُ فَارِسٍ وَ أُخْمِدَ مِــنْ نِـيرَانِهِ مَـا تَضَـــــرَّمَا*

نَــــبِيٌّ بِهِ قَدْ شَـــرَّفَ اللهُ طَـــيْبَةً كَـمَا شَرَّفَ البَيْتَ العَـتِيقَ المُحَرَّمَا

نَــــبِيٌّ عَـلاَ فَـوْقَ الـبُرَاقِ إِلَى العُلاَ إِلَى أَنْ تَـــوَلَّى غَــــــيْرُهُ وَ تَـقَدَّمَا

....

فالشّاعر في بداية هذه الأبيات ابتدأ بمعجزة بحيرة ساوه التي غاضت - جفّت كلّيّا - " إذ كانت بحيرة عظيمة في مملكة العراق عراق العجم و همدان، تسير فيها السّفن و هي أكثر من ستّة فراسخ حتّى أصبحت يابسة ناشفة كأن لم يكن بها ماء و استمرّت على ذلك حتّى بني مكانها مدينة ساوه، و هي باقية إلى اليوم "[2] و تبع هذه المعجزة معجزة أخرى و هي ظهور ضوء عظيم في قصور الشّام حتّى أنّه أنارت به السّماء، و هذا ظهر لأمّه حين وضعته ﷺ [3].

و شقّ إيوان كسرى ليلة مولده ﷺ "فارتجّ وسقطت منه أربع عشرة شرفة"[4] و هذه من المعجزات التي ذكرها الشّاعر في هذه الأبيات، ثم تلاها بمعجزة أخرى و هي خمود نار

1- الدّيوان، لابن خلوف القسنطيني، ص162/161.

* غاضت: نقص أو غار فذهب، لسان العرب، ج7،ص201، حرف الضاد،فصل الغين، مادة(غ ي ض).

* تضرّما: اشتعل، المصدر نفسه، ج12، ص354، حرف الميم، فصل الضاد، مادة (ض ر م).

2- الجواهر المضيّة، محمّد بن سليمان التّميمي النّجدي، دار العاصمة، الرّياض، المملكة العربية السعودية، 1412هـ ص28.

3- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، حسين بن محمّد بن الحسن الديار بكري، دار صادر، بيروت، دت، ج1 ص238.

4- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين حسين بن عبدالله الطيبي، تحقيق: إياد محمّد الغوج، النّاشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ج11، ص438.

فارس "و لم تخمد قبل ذلك بألف عام"[1] فهو نبيّ شرّف الله به المدينة النّبوية، عاش فيها بعدما هاجر من مكّة و توفي فيها و دفن ببيته عليه أفضل الصّلاة و التّسليم فشرفت المدينة بوجوده و موته فيها تشريفا عظيما، كما شرفت مكة بوجود البيت العتيق فيها، فما زال المسلمون إلى يومنا هذا يحجون و يعتمرون في مكّة، و لا يخصّون المدينة بالزّيارة، فإنّ فيها راحة كبيرة و طمأنينة عظيمة و بركة وفيرة لوجود جسده الطّاهر فيها فعليه ألف صلاة و تسليم .

نبيّ عرج به إلى السّماء "و صار إلى العرش و كلّمه الله تبارك وتعالى، و دخل الجنّة واطّلع إلى النّار ورأى الملائكة، ونشرت له الأنبياء ورأى سرادقات العرش والكرسي وجميع ما في السماوات و ما في الأراضين في اليقظة، حمله جبريل على البراق حتى أداره في السماوات، وفرضت عليه الصّلاة في تلك اللّيلة، ورجع إلى مكّة في نفس اللّيلة وذلك قبل الهجرة".[2]

3- شفاعته ﷺ في المؤمنين :

نَـبِيٌّ دَعَـا أَنْتَ الحَبِيـبُ فَـسَلْ تَـنَـلْ وَ قُـلْ تُـسْـتَمَعْ وَ اِشْفَعْ تُـشَـفَّعْ مُكَــرَّمَا

زاد الله سبحانه و تعالى رسوله الكريم تشريفا و تكريما أن أذن له بالشّفاعة يوم القيامة كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم حيث قال عليه الصّلاة والسّلام:" ... فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَاشَاءَ اللهُ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ اِرْفَعْ رَأْسَكَ قُلْ تُسْمَعْ سَلْ تُعْطَهُ اِشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلَهُمْ الجَنَّةَ.."[3]. فهذه شفاعة خاصّة به عليه الصّلاة و السّلام، و لم يعط هذا من قبله من الأنبياء عليهم السّلام[4]، وهذه الشّفاعة

1- الحنائيات (فوائد أبي القاسم الحنائي)، أبو القاسم بن الحسين الدمشقي، تحقيق: خالد رزق محمّد وجبر أبو النّجا، أضواء السلف، 1428ه/2007م، ج2، ص990.

2- ينظر: شرح السّنة، أبو محمّد الحسين بن علي بن خلف البربهاري، ص81.

3- المسند الصّحيح، مسلم بن الحجّاج أبو الحسين القشيري، ج1، ص180، رقم:322، باب أدنى أهل الجنّة منزلة فيها.

4- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمّد بدر الدين العيني الحنفي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت ، دت، ج4 ص10 .

لا تكون إلا للموحّدين حتّى يُعَيِّنَ منهم قدرا معلوما فيخرجهم من النّار عليه الصّلاة والسّلام[1] بعد تطهيرهم من المعاصي وقد تكون الشّفاعة لبعض العصاة قبل دخولهم النّار والله سبحانه وتعالى هو الذي يأذن له ﷺ ثمّ يعرّج الشّاعر من حين لآخر بذكر بعض مناقبه وصفاته الحميدة ويذكر بعض معجزاته ﷺ فيقول :

....

نَبـيٌّ حَمَى الإِسْلاَمَ من كَـلِمَـاتِـهِ بِأَنْفَذَ مِنْ وَقْعِ السِّـــــهَامِ وَ أَحْكَـما

نَـــبِيٌّ أَنَـابَ الجِنُّ طَوْعًا لَهُ وَ قَـدْ أَبَـانَ لَــهُمْ قَـــوْلاً صَحِيحًا مُحْكَـمَا

نَبِيٌّ قَــضَى البَـارِي بِنَصْـرِ لِـوَائِـهِ فَلَوْ شَـاءَ لَمْ يَتْبَـعْ خَمِـيسًا* عَرَمْرَمَـا

نَبِيٌّ هُـدًى شَـقَّ الـمَلاَيِكُ قَلْبَهُ بِـرِفْـقٍ لِأَمْـرٍ مَـا وَ سِـرٍّ يُكْتَـــما

هُوَ الذِّرْوَةُ* العُلْيَا الَّتِي لَيْسَ يُرْتَقى هُوَ العُرْوَةُ* الوُسْطَى الَّتِي لَـنْ تُفَصَّمَا*

1- الكوكب الوهّاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، محمّد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشّافعي مراجعة : هاشم محمّد علي مهدي، دار المنهاج، دار طوق النجاة، 1430هـ/2009م، ج5، ص47.

* خميس: الجيش لأنه مقسوم خمسة أقسام: المقدّمة و السّاقة و الميمنة و الميسرة و القلب، و قيل تخمس فيه الغنائم (النّهاية في غريب الحديث و الأثر، مجد الدّين بن الأثير الجزري، تحقيق: أحمد الزاوي ومحمود الطّناحي، المكتبة العلمية بيروت، 1399هـ/1979م، ج2، ص79).

* الذّروة: ذروة كل شيء أعلاه، (مجمع بحار الأنوار في غرائب التّنزيل و لطائف الأخبار، جمال الدّين علي الصّديقي الهندي الفتني الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط3، 1387هـ/1967م، ج2 ص234، حرف الذال بابه مع الرّاء، مادّة (ذ ر ا)).

* العروة: الشّيء المستدير الذي يعلّق فيه غيره، و سمي الإسلام عروة لأنه يمسك به فيعصم من الهلاك (التّوقيف على مهمّات التّعاريف، زين الدين بن زين العابدين الحدّادي المنّاوي القاهري، عالم الكتاب القاهرة، 141هـ/1990م ص240، باب العين، فصل الراء).

* تفصم: تفصم الشيء: إذا تكسر من غير بينونة. (شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، تحقيق: حسين بن عبدالله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمّد عبدالله، دار الفكر المعاصر بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق سورية ، 1420هـ/1999م، ج8، ص5201 حرف الهمزة، باب الفاء والصاد وما بعدها، مادة (ف ص م)).

....

وَ أَطْعَمَ أَلْـفًا مِنْ صُـواَعٍ فَأُشْبِـعُوا وَ رَوَى بِعَشْرٍ جَيْشَهُ مِنْ لَظَى الظَّـمَا[1]

فالشّاعر يتكلّم في البيت الأوّل عن دفاع النّبيﷺ بلسانه عن دين الإسلام" فلقد أطلّ من الفصاحة على كلّ نهاية وبلغ من البلاغة كل غاية، فلقد أوتي ﷺ سلامة الطّبع وبراعة المنزع وعذوبة اللّفظ، وحسن الإيراد وجزالة القول وصحّة المعاني مع إيجاز اللّفظ وقلّة التّكلّف، أوتي عليه الصّلاة والسّلام جوامع الكلم وبدائع الحكم، فلقد كان يخاطب كل حيّ من أحياء العرب بلغتهم و لم يكن يقتصر على لغة واحدة مع أنّه إنّما نشأ على لغة بني سعد وقريش وكان يعرف غيرهم حتّى كانوا يتعجبون منه ويقولون ما رأينا بالذي هو أفصح منه، وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العرباء"[2].

هذا من جهة ومن جهة أخرى أنّ الأحبار والرّهبان كانوا مستكبرين يخفون البشارات في كتبهم و يخفون قصص من كان قبلهم فجاء رسولنا عليه الصلاة والسّلام فأوضحها وبينها، فأوضح البشارات التي تنبّيء بمجيئه وحكى لهم قصص أنبياء لم يلتق بهم في دنياه وإنّما حكى قصصهم كما جاءت في القرآن الكريم، وكذا حكى قصص قوم عاد وثمود وصالح وشعيب وما عذّبوا به، وهي قصص لم يعشها ولا رآها بعينه وإنّما جاءت في المعجزة التي أنزلت عليه وهي القرآن الكريم .

وفي البيت الذي يليه تكلّم الشّاعر عن استجابة الجنّ لدعوة النّبي ﷺ لما كان له من حكمة و أخلاق حميدة و رفيعة، ونزلت سورة سمّاها الله تعالى سورة الجنّ حيث قال الله تعالى فيها:﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن:1-2]، فهذه السّورة تذكر في مقدّمتها

1- الديوان: ابن خلوف القسنطيني، ص 164/163.

2- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد و الأوهام و إظهار محاسن الإسلام، شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن أحمد ابن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السّقا، دار التّراث العربي القاهرة، دت ص294.

إسلام نفر من الجنّ إثر تباطؤ قريش عن الإسلام كتباطؤ قوم نوح عن الإيمان به، فأنزل الله تعالى هذه السّورة بعد سورة نوح " تبكيتا لقريش و العرب.. إذ كانت الجنّ خيرا منهم و أقبل للإيمان هذا وهم من غير جنس الرّسولﷺ، ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه و آمنوا به للوقت، وعرفوا أنّه ليس من نمط كلام النّاس، بخلاف العرب فإنّه نزل بلسانهم وعرفوا كونه معجزا، وهم مع ذلك مكذّبون له ولمن جاء به حسدا وبغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده"[1] فلمّا حصل إسلام بعض الجنّ أو نفر منهم أمر الله رسوله أن يقصّ نبأهم على النّاس لمّا حضروه عند النّبي ﷺ وأنصتوا له وسمعوا منه عليه الصّلاة والسّلام، وفهموا معاني القرآن ووصلت حقائقه إلى قلوبهم ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ۝١ يَهْدِےٓ إِلَى اَ۬لرُّشْدِ ﴾ [الجن:1-2]، أي من العجائب الغالية والمطالب العالية والهداية الرّبانية[2] و هذا ما أراده الشاعر فقد عرفوا الحقّ و انصاعوا له.

ثم بين الشّاعر أنّ النّبي المصطفى ﷺ منصور من الإله الحقّ ولو لم يكن له جيش فالله سبحانه وتعالى قال:﴿هُوَ اَ۬لذِےٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُد۪يٰ وَدِينِ اِ۬لْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى اَ۬لدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ اَ۬لْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:33]؛ أي أنّ الله تعالى أرسل رسوله بهذا النّور فكيف يترك معانديه يطفئونه، وعبّر عن الإسلام بأنّه دين الحقّ تنويها وتعريضا بأنّ ما عليه قريش وغيرها باطل، وظهور الحقّ والنّور أمر محتّم لازم، وانتصار الحق سيكون أشدّ حسرة على الكافرين، لأنّهم عارضوه وعادوه ودعوا الأمم للتألب عليه[3]. فما استطاع الكفّار أن ينتصروا على هذا الدين، بل انتشر انتشارا واسعا في مشارق الأرض ومغاربها فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنّه قال: " إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَ مَغَارِبَهَا

1- البحر المحيط في التفسير، أثير الدين أبو حيان مُحَمَّد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، ط1420هـ، ج10، ص292.

2- تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، عبدالرّحمن بن ناصر بن عبدالله السّعدي، تحقيق : عبد الرّحمن ابن معلا اللّويحق، مؤسّسة الرّسالة، بيروت،1420هـ/2000م، ص890.

3- التّحرير و التّنوير، مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، ج10، ص174 .

وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا.."[1]، فالرّسول النّبي الأُمّي منصور بإذن الله تعالى وقد نصره الله تعالى وإن لم يتبعه جيش كبير، وقد سمّيت سورة بالنّصر وجاء فيها البشارة بفتح مكّة فقد قال الله سبحانه و تعالى:﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ [النّصر:1-2]،" أي يا مُحَّد نصر الله إيّاك على قومك ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ أي فتح مكة،﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ أي سيدخل النّاس في دين الإسلام زمرا زمرا"[2] وهذا ما حصل وانتشر الإسلام في المعمورة كلّها، بل لا تكاد تجد بلدا إلاّ ودخله ولو كان أعجميّا، فللّه الحمد والمنّة.

والشّاعر لم يُغفل حادثة شقّ الصّدر التي وقعت للنّبي ﷺ وهو صغير ابن عشر سنين، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى سورة الشّرح فقال سبحانه وتعالى:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشّرح:1]، فالآية تبيّن أن شرح الصّدر وفتحه للإسلام حصل للنّبي ﷺ فملىء حكمة و علما، و في سنن التّرمذي عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه أنّ النّبي ﷺ قال: " فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَ اليَقْظَانِ إِذْ سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ: أَحَدُ الثَّلاَثَةِ فَأُتِيتُ بِطَسْت مِنْ ذَهبٍ فِيهَا مَاءُ زَمْزَمَ فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَ كَذَا " قَالَ قَتَادَةُ قُلْتُ: مَا يَعْنِي؟ قَالَ: إِلَى أَسْفَلَ بَطْنِي. قَالَ فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَغَسَلَ قَلْبِي بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَ حِكْمَةً)"[3] فالآية الكريمة ابتدأت باستفهام "و معناه إنكار نفي الانشراح مبالغة في إثباته و لذلك عطف عليه"[4] و هذه الحادثة لم تكن لمرّة واحدة فحسب،"بل تكرّرت لمرّات عديدة و قد تجاوز عليه الصّلاة و السّلام الخمسين من

4- المسند الصحيح، ج4، ص 2215، رقم:2889، باب الفتن وأشراط السّاعة.

1- الهداية إلى بلوغ النّهاية في علم معاني القرآن و تفسيره و أحكامه و جمل من فنون علومه، أبو مُحَّد مكّي القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا و البحث العلمي، جامعة الشارقة، إشراف: الشاهد البوشيخي، النّاشر: مجموعة بحوث الكتاب و السّنة، كليّة الشّريعة و الدّراسات الإسلاميّة جامعة الشّارقة، 1429ه/2008م، ج12، ص8477.

2- الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص104.

3- أنوار التّنزيل و أسرار التّأويل، ناصر الدين أبو سعيد بن مُحَّد الشّيرازي البيضاوي، تحقيق: مُحَّد عبدالرّحمن المرعشلي دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، 1418ه، ج5، ص321.

عمره"[1]. هذا وتعتبر هذه الحادثة معجزة من معجزاته عليه الصّلاة والسّلام و دليلا من دلائل نبوّته بل تعتبر حصانة للرّسول الكريم من وساوس الشّيطان ومن الطّبع الإنساني[2].

وفي البيت الخامس أشار الشّاعر أنّ نبيّ الهدى مُحَّدا ﷺ هو أعلى الأنبياء رتبة و مكانة عند ربّه، وكما قال عليه الصّلاة و السّلام " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَ لاَ فَخْرَ وَ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَ أَوَّلُ شَافِعٍ وَ مُشَفَّعٍ، بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ، تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ"[3]. و الله سبحانه وتعالى قال:﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:251] "نصّ الله سبحانه و تعالى في هذه الآية على تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض و ذلك في الجملة دون تعيين مفضول.."[4] و لا يكون هذا إلاّ لأسباب منها: أنّ مُحَّدا عليه الصّلاة و السّلام بعث إلى النّاس كافّة، وغيره بعث إلى أمّته خاصّة، وهذا قول مجاهد".[5] وكذا قالها عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما[6]،"و اختلف العلماء في جهة التّفضيل و أحسن ما قيل فيه أنّ المنع من جهة النّبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، و إنّما التّفضيل في زيادة الأحوال و الخصوص، والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات.. والقول بتفضيل بعضهم على

4- دلائل النّبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، ج1، ص136.

1- المصدر نفسه، ج1، ص136.

2- صحيح، صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو عبدالرحمن بن الحاج نوح نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني دار الصّميعي للنّشر والتّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعودية، 1422هـ/2002م، ج2، ص318، رقم:1783 باب في فضله ﷺ.

3- المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو مُحَّد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبدالسّلام عبد الشّافي مُحَّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ، ص338.

4- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن مُحَّد بن الجوزي، تحقيق: عبد الرّزاق المهدي، النّاشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ، ص228.

5- الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص263.

بعض إنّما هو بما منح من الفضائل وأعطي من الوسائل"[1]. فلطريقته ﷺ يكون التّمسّك والاتباع وبها النّجاة والفلاح،" فالسّنة سفينة نوح من ركبها نجا و من تخلّف عنها غرق"[2]. فهدي النّبي ﷺ وطريقه هي سبيل النّجاة، وصمّام الأمان من كل شرّ وفتنة.

ثم انتقل الشّاعر مرّة أخرى إلى ذكر بعض معجزاته عليه الصّلاة و السّلام، فسمّى لنا معجزة تكثير الطّعام فقد جاء عن أنس بن مالك أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ طَاوِيًا* فَأَتَى أُمَّ سُلَيْمٍ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ نَحْوُ مُدٍّ مِنْ شَعِيرٍ. قَالَ: فَاعْجِنِيهِ وَ أَصْلِحِيهِ عَسَى أَنْ نَدْعُوَا النَّبِيَّ ﷺ فَيَأْكُلَ عِنْدَنَا. قَالَ: فَعَجَنَتْهُ وَ خَبَزَتْهُ فَجَاءَ قُرْصًا فَقَالَ: أُدْعُ لِي النَّبِيَّ ﷺ. قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَ مَعَهُ نَاسٌ قَالَ: مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ: أَحْسَبُهُ بِضْعَةً وَ ثَمَانِينَ - فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبُو طَلْحَةَ يَدْعُوكَ. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ. فَجِئْتُ مُسْرِعًا حَتَّى أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ وَ أَصْحابُهُ قَالَ بَكْرٌ: فَتَفَدَنِي قَفْدًا. وَ قَالَ ثَابِتٌ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ رَسُولُ اللهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي بَيْتِي مِنِّي. وَ قَالاَ جَمِيعًا عَنْ أَنَسٍ: فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلاَّ قُرْصٌ، رَأَيْتُكَ طَاوِيًا، فَأَمَرْتُ أُمَّ سُلَيْمٍ فَجَعَلَتْ ذَلِكَ قُرْصًا، قَالَ: فَدَعَا بِالقُرْصِ وَ دَعَا بِجَفْنَةٍ* فَوَضَعَهُ فِيهَا، وَ قَالَ: هَلْ مِنْ سَمْنٍ ؟ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ وَ كَأَنَّ فِي العُكَّةِ* شَيْءٌ فَجَاءَ بِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَ أَبُو طَلْحَةَ يَعْصُرَانِهَا حَتَّى خَرَجَ شَيْءٌ فَمَسَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ السَّبَّابَةَ ثُمَّ مَسَحَ القُرْصَ فَانْتَفَخَ وَ قَالَ بِسْمِ اللهِ فَانْتَفَخَ القُرْصُ فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَالقُرْصُ يَنْتَفِخُ حَتَّى رَأَيْتُ القُرْصَ فِي الجَفْنَةِ يَتَمَيَّعُ. فقال أُدْعُ عَشَرَةً

1- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطّباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1415ه/1995م، ج1، ص157/156.

2- من قول الإمام مالك، ذم الكلام و أهله، أبو إسماعيل بن عبدالله الأنصاري الهروي، تحقيق: عبدالرحمن ابن عبدالعزيز الشبل، مكتبة العلوم و الحكم، المدينة المنورة، 1418ه/1998م، ج5، ص81، رقم:872.

* طاويا: من الجوع، جائعا،"لسان العرب"،ج15،ص20، حرف الواو والياء من المعتل، فصل الطاء، مادة: (ط و ي).

* جفنة: في الصّحاح الجفنة كالقصعة، المصدر نفسه، ج13، ص89، مادة (ج ف ن).

* العكّة: أصغر من القربة للسّمن، المصدر نفسه، ج10، ص468، مادة (ع ك ك).

مِنْ أَصْحَابِي فَدَعَوْتُ لَهُ عَشَرَةً، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي وَسَطِ الطَّعَامِ وَقَالَ كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: أُدْعُ عَشَرَةً، فَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ مِنْ ذَلِكَ الْقُرْصِ حَتَّى أَكَلَ منه بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ حَوَالَيْ الْقُرْصِ حَتَّى شَبِعُوا وَإِنَّهُ وَسَطُ حَيْثُ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ كَمَا هُوَ)"[1]. و ذكر أيضا معجزة تكثير الماء بين يديه ﷺ والأحاديث فيها كثيرة منها ما رواه أنس رضي الله عنه قال:" أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ القَوْمُ." قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مئة، أو زهاء ثلاث مئة[2]. وعليه فإن هذه المعجزات لم تكن لأحد من الأنبياء من قبل وقد أسلفنا ذكرها، وأنّ الشّاعر ما اختارها إلا ليبيّن عظمة هذا النّبي ﷺ وأنّه يستحقّ كلّ مدح و تعظيم و اتّباع .

4- وصف أصحابه ﷺ وذكر مناقبهم :

ثم خلص الشّاعر إلى وصف أصحابه ﷺ و ذكر بعض مناقبهم رضي الله عنهم فقال:

....

فَمَنْ مِثْلُهُ لَوْ مِثْلُ أَصْحَابِهِ وَ هُمْ ... نُجُومٌ مُنِيرَاتٌ إِذْ الأَمْرُ أُبْهِمَا

هُمُ السَّادَةُ الغُرُّ* الغَرَامُ* أُولُو التُّقَى ... وَ مَنْ لَهُمُ جَاءَ الكِتَابُ مُعَظِّمَا

هُمُ النَّفَرُ الغُرُّ الَّذِينَ نُفُوسُهُمْ ... سَمَتْ فَاسْتَخَفَّتْ يَذْبُلاً ويَلَمْلَمَا*

1- حسن الإسناد، الإحسان تقريب صحيح ابن حبان، أبو حاتم مُحَمَّد بن حبان بن أحمد الدارمي البستي ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه و خرج أحاديثه و علق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1408ه/1988م، ج12، ص93/94، رقم: 5285.

2- الجامع المسند الصحيح، البخاري، ج4، ص192، رقم:3572، باب علامات النّبوة في الإسلام.

* الغرّ: بياض الوجه، النّهاية في غريب الحديث و الأثر، ج3، ص354، حرف الغين، مادة (غ ر ر).

* الغرام: الشّيء اللاّزم أو العشق،" البارع في اللّغة "، أبو علي القالي، تحقيق: هشام الطّعان، دار الحضارة بيروت، ط1 1975م، ص326، باب الغين والراء والميم في الثّلاثي الصّحيح.

* يلملم: جبل على ليلتين من مكّة من جبال تهامة،"مشارق الأنوار على صحاح الآثار"، عياض بن موسى اليحصبي السّبتي، دار التراث، دت، ج1، ص58.

هُمُ القَوْمُ لِلهَيْجَاءِ* وَ الدِّينِ وَ النَّـدَى فَلِلَّهِ مَـا أَقْـوَى وَ أَسْـنَى وَ أَقْـوَمَا

هُـمُ القَـادَةُ الصِّـيدُ الَّذِيـنَ لِعِـزِّهِمْ أَتَتْ خُضَّـعًا شُمُّ* المَمَـالِكِ رُغَّمَا*[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات يذكر بعض مناقب الصّحابة رضي الله عنهم فيها الشّجاعة و الكرم فهو يقول إذا الأمر اشتدّ و صار مبهما برز الصّحابة رضي الله عنهم في مواقفهم المشرّفة و في أيّ موقف لا يتخاذلون عن الأمر، فشبّههم بالنّجوم البارزة في الظّلمات و هي المحن و الكرب يلمعون و يبرزون كما تبرز النّجوم في أيّ شدّة أو محنة.

هم السّادة بعد الأنبياء وأفضل الخلق بعدهم حصل لهم فضل مصاحبة النّبي ﷺ و الإيمان به و اتباعه فكلّ " من صحب النّبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه"[2].

و شهد لهم النّبي ﷺ بالخيريّة ولعصرهم فقال : " خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، - قَالَ عِمْرَانُ فَلاَ أَدْرِي أَذَكَر بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وينْذُرُونَ وَلاَيُفون، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ"[3].

والصّحابة رضي الله عنهم كلّهم عدول، قال الله سبحانه وتعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة:142].

---

* الهيجاء: الحرب، معجم ديوان الأدب، أبو إبراهيم بن الحسين الفارابي، تحقيق: أحمد مختار عمر، مراجعة : إبراهيم أنيس دار الشّعب، القاهرة، 1424هـ/2003م، ج3، ص381، وزن فعلاء (يائي) رقم:621.

* شمّ: شممت الشيء أشمّه،" مجمل اللغة "، الحسين بن فارس القزويني الرازي، ص 499، حرف الشين، مادة (ش م)

* رغّما: أرغمته حملته على ما لا يقدر أن يمتنع منه، البارع في اللغة، أبو علي القالي، ص325، باب الغين و الرّاء و الميم في الثّلاثي الصّحيح.

1- الدّيوان، أبو القاسم ابن خلوف القسنطيني، ص165.

2- صحيح البخاري، ج5، ص5، باب فضائل أصحاب النّبي ﷺ.

3- المصدر نفسه، ج5، ص 6، رقم : 3642 ، باب فضائل أصحاب النّبي ﷺ.

فسّر هذه الآية عليه الصّلاة و السّلام فقال:"(الوَسَطُ العَدْلُ)"[1]. وهذا أعظم شرف لهم رضي الله عنهم، "والصّحابة رضي الله عنهم قد كفينا البحث عن أحوالهم لإجماع أهل الحقّ من المسلمين و هم أهل السّنة والجماعة على أنّهم كلّهم عدول"[2]، فهم حقّا سادة تقاة جاء القرآن بهذا في قوله سبحانه وتعالى:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرِيهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ [الفتح:29]، فهذه بعض صفاتهم ذكرت في هذه الآية وهي صفة مَن بادر إلى تصديقه ﷺ والإيمان به وآزره ونصره وصحبه..، فالله سبحانه وتعالى فضّل بعض النّبيين على بعض وكذلك سائر المسلمين[3]

نفوسهم رضي الله عنهم سمت و علت بطاعة الله سبحانه وتعالى و طاعة رسوله ﷺ وما كان ذلك إلاّ لأنّهم استجابوا لله ولرسوله، فالله سبحانه وتعالى خاطبهم وخاطب سائر المسلمين لذلك فقال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ إسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:24]، فالحياة الحقيقية لا تكون إلاّ بالاستجابة لله سبحانه وتعالى والرّسول ﷺ وهذا ما سار عليه الصّحابة الكرام رضي الله عنهم فنالوا النّتيجة الحتميّة وهي السّعادة في الدّنيا والفوز في الآخرة، فتحوا الدّنيا ونشروا الإسلام شرقا وغربا، عرفوا الدّنيا فتركوا شهواتها وأقبلوا على الآخرة وعملوا لنعيمها، عاشوا لأجل الآخرة، سعوا لينالوا رضى الله، ولم يبالوا بالدّنيا وزخرفها فإنّها لا تسوى جناح بعوضة.

وفي البيت الموالي وصفهم بالشّجاعة؛ فإذا كانت الحرب فهم رضي الله عنهم الأسود لا يخافون في الله لومة لائم، وكتب السّيرة النّبوية مليئة بذكر بطولاتهم الحربيّة مع الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فغزواتهم لا تعدّ ولا تحصى، وفتوحاتهم عديدة ومديدة شرقا وغربا برّا وبحرا، فكان أوّل من غزا في البحر معاوية رضي الله عنه في زمن عثمان بن عفان رضي

1- صحيح البخاري، ج6،ص 19، رقم: 4466،كتاب التّفسير.

2- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن مُحَمَّد بن عبد البرّ، تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ، 1992م، م1، ص19.

3- المرجع السّابق، ج1، ص2.

الله عنه" إذ غزت معه أم حرام زوجة عبادة بن الصّامت رضي الله عنه إلى قبرص."[1]
وفي هذا فضل لمعاوية رضي الله عنه إذ جعل من غزا تحت رايته من الأوّلين، وهي تحقيق لرؤيا رآها النّبيّ ﷺ ودُعاءٌ دَعاهُ لأوّل جيش يغزوا البحر قد أوجبوا الجنّة"[2] وكان معاوية رضي الله عنه على رأس ذلك الجيش[3] وهذا لا شكّ أنّه من بطولاتهم رضي الله عنهم وشجاعتهم فكانوا أشدّاء على الأعداء من أجل حماية هذا الدّين ونشره في المعمورة رحماء بينهم .

كما أنّهم كانوا رحماء بينهم شعارهم الجود والنّدى وإكرام الضّيف وعابر السّبيل و الفقراء و المحتاجين؛ والأخبار في ذلك كثيرة منها ما أنفقه عثمان بن عفّان رضي الله عنه في غزوة تبوك فقد أنفق ألف دينار و حمل في هذه الغزوة على ستمئة بعير ومئة فرس و جهّز رُكّابها حتّى لم يفقدوا عقالا ولا شكالا[4]، فللّه درّهم سمت به نفوسهم و علت باعوا الدّنيا و اشتروا الآخرة، باعوا الفاني و رضوا بالباقي الذي لا يفنى، هابهم القياصرة و الملوك لأنّهم ما أرادوا الدّنيا ولا زخرفها، فأتتهم الدّنيا وهي راغمة، فرّوا منها فجاءتهم وهي تسعى إليهم ومن سعى فقط إليها فرّت منه واستعملته. ثم قال :

هُمْ أَبْصَـــرُوا نُورَ الهُدَى فَهُدُوا إِلَى أَشِعَّتِهِ إِذْ أَصْبَحَ الكَــوْنُ مُظْلِمَا

هُـمْ رَفَعُـــــوا أَرْدَانَ* حُـلَّةِ دِينِهِمْ فَأَضْحَى طِــرَازُ الحَقِّ بِالحَقِّ مُعْلِمَا

نُجُومُ هُدًى سَنُّوا التَّوَاضُعَ فِي العُلاَ وَمَنْ سَنَّ فِي العَلْيَا التَّوَاضُعَ عُظِّمَا

1- التّمهيد لما في الموطأ من المعاني و الأسانيد، ابن عبد البرّ الأندلسي، ج1، ص242.
2- موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحي المدني، صححه و رقمه و خرج أحاديثه: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التّراث، بيروت، 1406هـ/1985م، ج2، ص464، رقم:39، باب التّرغيب في الجهاد.
3- المرجع السّابق، ج1، ص242.
4- جوامع السّيرة النّبوية، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت ص199/200.
* أردان: جمع ردن بالضّم، أصل الكم، يقال قميص واسع، قال ابن سيده: الردن مقدم كم القميص وقيل أسفله، لسان العرب، ج13، ص177، حرف النون، فصل الراء، مادة (ر د ن).

صَلاَتُهُمْ بِالجُــــودِ أَضْحَتْ مَوَانِعًا   لِسايِلِ مَـا يُولُــــوهُ أَنْ يَتَـدَمَّمَا*

هُمْ مَا هُمْ فَالْهَـجْ*بِذِكْـرِهِمْ وَ دُمْ   بِحُبِّهِـمْ تُمْـسِي وَ تُصْـبِحُ مُكَـرَّمَا(1)

فالشّاعر في البيت الأول يشيد بالصّحابة ويمدحهم إذ أنّهم أبصروا نور الحقّ لمـّا خفي على كثير ممّن كانوا معهم فاصطفاهم الله سبحانه و تعالى و جعلهم أصحاب نبيّه عليه الصّلاة والسّلام فشرفت صحبتهم به فهم خير الخلق بعد الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم.

وفي البيت الثّاني يبيّن بأنّهم زيّنوا الحقّ بعلمهم وأخلاقهم وأبرزوه للنّاس فقد كانوا مع الرّسول ﷺ في السّراء والضّراء فتفانوا في طلب الحقّ والعمل به، جاهدوا بأقوالهم وأنفسهم من أجله فقد حملوه بإخلاص ودعوا إليه بالتي هي أحسن للّتي هي أقوم.

أمّا في البيت الثّالث شبّههم الشّاعر بالنّجوم على مكانتهم العليّة بين النّاس و مع ذلك تواضعوا ومن تواضع لله رفعه الله سبحانه و تعالى ومن تكبر وضعه، فعظّموا بين النّاس وصاروا من أهل الرّفعة الرّبّانيّة.

فالصّحابة رضي الله عنهم كانوا أهل جود وكرم هذا ما تعلّموه من قدوتهم وأسوتهم نبيّنا محمّد ﷺ فما وجدوا فقيرا إلاّ ساعدوه وبذلوا الغالي والنّفيس من أجل أن يعينوه على أمر دينه ودنياه. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه إذا سأله الرّسول ﷺ عمّا ترك في بيته ولأهله يقول: تركت لهم الله و رسوله. فكان رضي الله عنه إذا أعان على أمر لا يترك في بيته شيئا. و هذا ما أراده الشّاعر في البيت الرّابع. فهؤلاء رضي الله عنهم يُذكرون في كلّ وقت و حين ولا يذكرون إلا بخير، فقد وصفهم القرآن بصفات حسنة تليق بمقامهم، ومن وجد شيئا في قلبه عليهم فليتّهم نفسه فالله سبحانه وتعالى قال عنهم:﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾

* يتدمّما: دمّ الشّيء إذا طلي، المصدر نفسه، ج12، ص206، حرف الميم، فصل الدّال، مادة (د م م).

* فالهج: لهج بالأمر لهجا و لهوجا، و ألهج كلاهما، أولع به و اعتاده، المصدر نفسه، ج2، ص359، حرف الجيم، فصل اللام، مادة (ل ه ج).

1- الدّيوان، أبو القاسم ابن خلوف القسنطيني، ص165.

[الفتح:29]. قال القرطبي: "قال أبو عروة الزّبيري كنّا عند مالك بن أنس رضي الله عنه فذكروا عنده رجلا ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك في هذه الآية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[الفتح:29] إلى أن بلغ قوله﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح:29]، فقال مالك: من أصبح من النّاس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية"[1].

فالصّحابة رضي الله عنهم مكانتهم رفيعة فقد شهد الله لهم بطهارة قلوبهم و صدق إيمانهم قال الله سبحانه و تعالى:﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[الفتح:18]. فلو ذهبنا نسرد مواقفهم التي نصروا فيها الدّين، و أعمالهم التي استحقّوا بها الرّفعة و المنزلة العالية، لما كفتنا المجلّدات فقد كانت حياتهم كلّها في سبيل الله، لطهارة قلوبهم ؛"إنّ الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمّد ﷺ خير قلوب العباد، فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب بعد قلب محمّد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيّه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، و ما رأوا سيئا فهو عند الله سيّء"[2]. فسبيلهم في الحقّ خير سبيل و فهمهم للدّين أسلم فهم؛ "من كان منكم مستنّا فليستنّ بمن قد مات فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمّد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمّة و أبرّها قلوبا وأعمقها علما و أقلّها تكلّفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه فاعْرِفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم و تمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم و دينهم فإنّهم كانوا على الهدي المستقيم"[3]. فالصّحابة رضي الله عنهم عظمت مكانتهم و علا شأنهم، فهم عدول لا شكّ فيهم ولا ريب يعتريهم.

5- فضل صحبته ﷺ:

قـــال ابن خلّوف في فضل من صحبه ﷺ :

1- تفسير التّحرير والتّنوير، ج26، ص210.

2- صحيح الإسناد،" مسند الإمام أحمد"، ج3، ص505، رقم:3600، باب مسند عبدالله بن مسعود.

3- جامع بيان العلم و فضله، ص947، رقم:1810.

أَلَـيْـسَ بِـأَنَّ اللهَ شَـــرَّفَـهُمْ بِـــهِ وَ شَـرَّفَ مَـنْ أَثْنَى عَـلَيْهِمْ وَ عَظَّمَا

وَ لِم لاَ وَ قَدْ حَـازُوا بِصُحْبَتِهِ عُـلاً وَ فَخْـرًا وَ تَعْظِـيـمًا وَفَضْلاً مُتَمَّـمَا[1]

الشّاعر في هذين البيتين يذكر شرف صحبة النّبي وأنّ الصّحابة رضي الله عنهم ما عظمت رتبتهم إلاّ للقائهم به عليه الصّلاة والسّلام واتباعهم له، وقد شرّف الله أيضا من عظّم هؤلاء الصّحابة رضوان الله عليهم وأثنى عليهم، وقد كتب الله الهداية لمن فهم هذا الدّين بفهمهم رضي الله عنهم، فقال عزّ من قائل:﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:136] فالتّوفيق كلّه في فهم الدين بفَهْمِهم لأنّهم عايشوا التّنزيل رضي الله عنهم و أرضاهم، ونزل القرآن بلغتهم، فهم أهل فصاحة وبيان، وأعلم النّاس بكلام العرب وأدرى به رضي الله عنهم وأرضاهم.

6- ذكر شجاعته وجوده ﷺ:

....

فَـسَلْ عَـنْهُ بَـدْرًا أَوْ حُنَيْنًا وَ خَيْبَرَا وَ مَكَّةَ وَ البَطْحَاءَ وَ الشِّعْبَ وَ الحِمَا

فَكَمْ مَارِدٍ حَـلَى* وَ كَمْ غَيْهَبٍ* جَـلاَ وَ كَمْ سَائِلٍ أَغْنَى وَ كَمْ خَـــائِفٍ حَمَى

إِذَا فَـعَـلَ الفِـعْـلَ الجَمِيـلَ أَتَمَّـهُ وَ مَـا كُـلُّ فَـعَّـــالٍ تَـــرَاهُ مُتَـمِّمَا[2]

ذكر الشّاعر شجاعة الرّسول ﷺ في الغزوات وأنّه كان يتقدّم الصّحابة في المعارك، فإذا أمرهم بالقتال كان أوّل من يقاتل، و هكذا في سائر الأعمال و الغزوات التي ذكرها الشّاعر في هذه الأبيات، قاتل فيها نبي الله ﷺ و أنّه " إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ وَ لَقِيَ القَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ

1- الدّيوان: ابن خلوف القسنطيني، ص165.

* حلى: السّيف،" لسان العرب"، ج14، ص195، حرف الواو والياء من المعتل، فصل الحاء، مادة (ح ل ا).

* غيهب: شدّة سواد اللّيل، المصدر نفسه، ج1، ص653، حرف الباء، فصل الغين، مادة (غ ه ب).

2- المصدر السّابق ، ص166/165.

اللهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى العَدُوِّ مِنْهُ"[1] و في رواية أخرى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:" لَقَدْ رَأَيْتُنِي يومَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَ هُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا"[2]. فكان عليه الصّلاة و السّلام لم يشهد حربا إلاّ صابر حتّى تنجلي الظّلم عن ظفر أو دفاع، قلبه ثابت و آمن و جأشه ساكن، ويوم حنين لما فرّ من فرّ وبقي النّبي ﷺ هو وبعض أصحابه رضي الله عنهم وهو ينادي:" إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا اِبْنُ عَبْدِ المُطَّلِب"؛ "فعادوا أفذاذا وأرسالا يقاتلون معه فلم يفزع ولم يفرّ أبدا وهو ثابت لا يبرح مقبل لا يتزحزح، فكان علي بن أبي طالب كما جاءت الرّواية عنه يحتمي برسول الله ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم، وهو من أشجع الصّحابة، البطل المقدام واللّيث الضّرغام".[3]

وأمّا عن جوده ﷺ وكرمه وغناه للفقراء و المؤلفة قلوبهم فحدّث ولا حرج إذ كان عليه الصّلاة والسّلام من أجود النّاس فعن ابن عمر رضي الله عنهما و هو يصفه، قال:" مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَجْوَدَ وَلاَ أَنْجَدَ وَلاَ أَشْجَعَ وَلاَ أَرْضَى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ "[4].

وعن أنس رضي الله عنه " أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَتَى الرَّجُلُ قَوْمَهُ فَقَالَ: أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُعْطِي عَطَاءَ رَجُلٍ مَا يَخَافُ فَاقَةً"[5].وكان أجود ما يكون في رمضان ، يزيد عطاؤه وجوده ﷺ.

و كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا وصف النّبي ﷺ قال: "كَانَ أَجْوَدَ

1- أخلاق النّبي و آدابه، أبو محمّد عبدالله بن محمّد بن جعفر بن حيّان الأنصاري المعروف بأبي الشّيخ الأصبهاني، تحقيق: صالح بن محمّد الونيان، دار المسلم للنشر و التوزيع، 1998م، ج1، ص317، باب فأما ما ذكر من شجاعته.

2- المصدر نفسه، ج1، ص313.

3- أعلام النّبوة، أبو الحسين علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي الشّهير بالماوردي، دار مكتبة الهلال، بيروت 1409ه، ص230.

4- المصدر السّابق ، ج1، ص276.

5- أخلاق النّبي و آدابه، ج1، ص283.

النَّاسِ كَفًّا، وَ أَجْرَأَ النَّاسِ صَدْرًا.."[1] . و عن أنس رضي الله عنه قال:" أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لاَ يَدَّخِرُ شَيْئًا"[2].

فهذا جوده ﷺ و عطاؤه لا ينقطع، كثير الخير و البركة أينما حل و ارتحل عليه الصّلاة و السّلام، فلا يخفى على أحد ما كان عليه من فرط جوده و كثرة حلمه و بره " فقد كان جوده عليه الصّلاة و السّلام، كلّه لله و في ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج وتارة ينفقه في سبيل الله و تارة يتألف به على الإسلام ممّن يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه و أولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه ملوك كسرى وقيصر، يعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشّهر والشّهران ولا توقد في بيته نار وربما ربط الحجر على بطنه الشّريفة من الجوع"[3]، هذا من عمله و بذله وإقدامه على الخير يعطي عطاء من لا يخش الفقر كان يقال أجود من حاتم في الجاهليّة، ولمـّا جاء الإسلام وبُعِث مُحَمَّد ﷺ صار أجود النّاس وأكرمهم فهوﷺ أجود من حاتم فهذا المثل كان معتبرا به قبل الإسلام .

7 - جوامع كلمه ﷺ :

و قد أوتي ﷺ جوامع الكلم، إذا تحدّث أقنع، كلامه حقّ، قال ابن خلّوف في هذا المقام :

....

وَ إِنْ قَــــالَ لَمْ يَتْـرُكْ مَقَـالاً لِقَـائِلٍ وَ إِنْ صَالَ لَـمْ تَتْرُكْ مَوَاضِيهِ مُجْرِمَا

1- الأنوار في شمائل النبي المختار، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفرّاء البغوي الشّافعي، تحقيق: إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي، دمشق، 1416هـ/1995م، ج1، ص285.

2- المرجع نفسه، ج1، ص284.

3- المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمديّة، ج2، ص140 .

وَ إِنْ مَـدَّ لِلأَعْـدَاءِ فِي النَّـقْعِ*أَسْمَـرًا أَرَى الأَسَـدَ الضَّـارِي يُقَلِّبُ أَرْقَمَا

وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ أَلبسَ ال عُـدَاةَ لِبَاسَ الـمَوْتِ أَحْمَرَ عَنْـدَمَا

....

مُجِـيبٌ إِذَا يُـدْعَى مُجَابٌ إِذَا دَعَـا عَظِـيمٌ إِذَا بَـاهَى كَــرِيمٌ إِذَا اِنْتَمَى

تَجَـــمَّعَ فِـيهِ كُـلُّ مَــعْنًى مُـقَسَّمٍ وَهَــلْ تَمَّ مَعْنًى غَيْرُ مَا فِيهِ قُسِّمَا[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات يبتدىء بذكر أقوال النّبي ﷺ و أنّها تدفع كلّ شبهة و باطل، فالسّامع لها لا يجد ما يقول بعد قوله ﷺ فكلامه يدرأ شبهة كلّ سامع و في الحديث الذي رواه خالد بن عرفطة رضي الله عنه قال ﷺ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وَ خَوَاتِمَهُ وَأُخْتُصِرَ لِيَ الكَلاَمُ اِخْتِصَارًا، وَ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً فَلاَ تَتَهَوَّكُوا* وَ لاَ يَغُرَّنَّكُمْ المُتَهَوِّكُونَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : فَقُمْتُ فَقُلْتُ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَ بِالإِسْلاَمِ دِينًا وَ بِكَ رَسُولاً، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "[2]. و قال أيضا: "(أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَ أُخْتُصِرَتْ لِيَ الحِكْمَةُ اِخْتِصَارًا..)"[3]. فكلامه ﷺ مختصر مقنع جامع مانع.

فالشّاعر يعيد ذكر شجاعته ﷺ في الحرب و أنّه إذا جاء ألبس الأعداء لباس الموت المخضب بالأحمر و هو الدّم.

* النّقع: تهيج الغبار وترفّعه من الأرض بقوائمها،"مشارق الأنوار على صحاح الآثار"، عياض بن موسى السّبتي ج1 ص135، (ث و ر) فصل الخلاف و الوهم .

1- الدّيوان، ص166.

* تتهوّكوا: من التهوّك: السّقوط في هوّة الرّدى،"لسان العرب"،ج10،ص508، حرف الكاف، مادّة : (ه و ك).

2- تقييد العلم، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، إحياء السنة النبوية، بيروت، ص51.

3- معجزات النّبي ﷺ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق و تعليق: السّيد إبراهيم أمين مُحَمَّد، المكتبة التوفيقيّة، دط، دت، ص448.

و رسول الله عليه الصلاة و السّلام مجيب إذا دُعيَ إلى وليمة مجاب إذا دعا، فإنّ دعوته مقبولة عند النّاس ومستجابة عند الله لا تردّ ، فهو إذا باهى عظيم أي فاخر، و إذا انتمى و ارتفع فهو كريم جواد، فهو يقسّم العطايا ولا يبخل بها أبدا حتّى صار مشهورا بهذه الصّفة عليه الصّلاة والسّلام .

4- الردّ على من ادّعى أن عيسى عليه السّلام خير من نبيّنا ﷺ :

....

وَ إِنْ صَـالَ عُبَّادُ الـمَسِيحِ فَقُلْ لَـهُمْ سَتَصْلَوْا بِعُبَّـــــادِ الإِلَـــهِ جَـهَنَّمَا

أَلَـمْ يَعْلَـمُوا أَنْ ضَـــلَّلَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ وَ صَـيَّرَهُـمْ لِلْبِيـضِ وَ السُّمْرِ مغْنَـمَا

طَغَوْا وَ بَغَـوْا إِذْ صَيَّرُوا الفَـــرْدَ ثَالِثًا لاِثْــنَيْنِ جَـلَّ اللَّهُ رَبُّ ابْنِ مَـــرَيْمَا

أَلَـــيْسَ بِــأَنَّ اللَّهَ سَوَّاهُ مِثْـلَمَا بِقُـــدْرَتِهِ سَـــوَّى مِـنَ الـتُّرْبِ آدَمَا

....

جَـوَادٌ كَـرِيـمٌ غَـافِرُ الذَّنْبِ سَـاتِرٌ حَلِيمٌ عَلِيمٌ مَـــالِكُ الأَرْضِ وَ السَّـمَا[1]

فالشّاعر في هذه الأبيات ينذر النّصارى بعبادتهم إذ هي باطلة لما فيها من شرك بالخالق سبحانه و تعالى و أنّها ستصليهم نار جهنم، فقد ضلّوا بها لبعدهم عن الحقّ و الهدى و الصّراط المستقيم فجعلهم غنيمة للمسلمين في الحرب، طغوا و قالوا باطلا أنّ الله ثالث ثلاثة و هم يقصدون الشّيء الواحد ثلاثة أشياء وهي: الابن و الأب و روح القدس و هذا كلّه باطل فقد خاطبهم الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال:﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ﴾ [المائدة:75]، فقولهم هذا باطل و رأيهم عاطل إذ جعلوا الإله " أحد ثلاثة.. ولأنّهم يقولون أب و ابن و روح القدس إنّه واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم، وإنّما من العبارة وهي لازمة لهم و ما كان هكذا صحّ بالعبارة

1- الديوان، ابن خلوف القسنطيني، ص167.

اللاّزمة.."[1] وردّ الله عليهم في كتابه فقال:﴿ وَمَا مِنِ اِلَٰهٍ اِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [المائدة:75]. فالإله لا يتعدّد بنصّ الآية[2]، ثم أنذرهم الخالق بقوله:﴿وإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾[المائدة:75] إلى أن قال سبحانه وتعالى:﴿اَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:76]؛ فهذا منه سبحانه تقرير و توبيخ أي فليتوبوا إليه وليسألوه ستر ذنوبهم[3]. و الله سبحانه و تعالى جعل ابن مريم عبدا نبيّا كسائر عباده الأنبياء خلقه من تراب كما خلق آدم منه و سائر الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم. فكلّ الأنبياء هم عباده سبحانه وتعالى، و منهم رسل كذلك خُصّوا برسالة دون غيرهم من الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم.

فالله سبحانه و تعالى جواد كريم غفور رّحيم لمن تاب و أناب، و إلى ربّه استجاب يغفر ذنوب عباده إذا لم يصرّوا على المعاصي و الكفر و الشّرك... فهو الحليم العليم يعلم كلّ صغيرة و كبيرة في الأرض و السّماء، و في هذا آيات كثيرة في كتابه الكريم منها قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِۖ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحجرات:18]، فهو يعلم ما يجري في السّماء و ما فيها من مخلوقات و كيف تسكن و تتحرّك، و كذلك الأرض يعلم ما فيها من دواب و إنس و جن و ما يعملون من خير و شرّ، فهو المالك لهما المتصرف فيهما، عظيم في خلقه مدبّر لشؤون عباده يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصّدور. ثم قال:[4]

هَدَانَا بِنُورِ الـمُصْطَفَى بَعْدَ ظُلْمَةٍ   وَ وَقَّى بِـهِ أَبْصَارَنَـا فِتْنَةَ العَمَـى

وَ أَرْسَـلَهُ بِالحَـقِّ لِلْحَـقِّ دَاعيًا   فَــزَلْـزَلَ أَرْكَانَ الضَّلاَلِ وَ هَـدَّمَا

وَ أَظْهَرَ آيَاتِ الكِـتَابِ شَوَاهِدًا   عَلَى مَا اِدَّعَـاهُ حِـينَ أَبْدَى الـمُكَتَّمَا

1- الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص250.

2- المصدر نفسه، ج6، ص250.

3- المصدر نفسه، ج6، ص250.

4- الدّيوان : ص167.

إنّ الهدي الذي جاء به المصطفى ﷺ والحقّ المبين و الصّراط المستقيم هو النّور الذي فرّق بين الحقّ و الباطل و الضّلال والهدى، فما بعث به ﷺ من كتاب و سنّة هو الذي جعل النّاس يهتدون إلى الحقّ، ويدرؤون الباطل ويكفّون عن سبيل الغيّ والضّلال إلا من أبى وك ابر و عاند، فالنّور هو نور هداية والابتعاد عن كل شرّ و غواية فوقى به أبصار العباد من كلّ فتنة فهذا الحقّ الذي جاء به بصيرة من علمه وعمل بما فيه اتّقى فتنة الدّين و الدّنيا، وصار يمشي ببصيرة القلب، حتى تتبصّر الجوارح وتنقاد إليه، فمضغة القلب إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه.

و في البيتين المواليين يبيّن الشّاعر فيهما جهر النّبي ﷺ بالدّعوة بعدما كانت مكتومة جهر بالحقّ و صدع به، فبيّن الآيات المحكمات التي توضح للنّاس طريقها و سبيل الرّشاد فهدم الباطل و انجلى الحقّ و علا، و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا.

5- ذكر وفاته ﷺ :

....

فَبِاللَّهِ يَا عَـرْفَ النَّسِيمِ الَّذِي اِنْبَرَى   وَ أَنْجَـدَ فِي رَبْـعِ الحَبِيبِ وَ أَتْـــهَمَا

بِمَا بَيْنَنَا مِنْ ذِكْــرِ سُكَّـانِ يَثْرِبٍ   لَدَى مَوْقِفِ التَّوْدِيعِ فِي مَشْهَدِ الدِّمَا[1]

يقسم الشاعر بالله في هذا البيت أن مُحَمّدا ﷺ بعدما كناه و ناداه بعرف النّسيم إذ هو الطّيب أو الريح الطّيبة التي تهب فتنزع و تزيل كل خبيث كما أزال عليه الصلاة و السلام الباطل و الشّرك و تصدّى له بكل ما أوتي من قوّة و علم، فانتشر خبره في نجد و تهامة و غيرهما. و مرض النّبي ﷺ و علم النّاس بهذا في يثرب إلى أن وافته المنيّة و كان مشهد توديعه صعبا، و ثقل هذا الخبر على بعض الصّحابة رضي الله عنهم و كأنّهم لم يتقبّلوه لحبّهم الشّديد للنّبي ﷺ ، و شكّك عمر رضي الله عنه في وفاته و قام يخطب

1- الدّيوان، ص168.

النّاس ويتوعّد من قال أنه قد مات بالقتل و القطع، و كان ابن أم مكتوم رضي الله عنه قائم في مؤخر المسجد يقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ اِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ اِلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ اَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَّنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اَ۬للَّهَ شَيْـًٔاۖ وَسَيَجْزِے اِ۬للَّهُ اُ۬لشَّٰكِرِينَ﴾ [آلعمران:144]، وبعدها جاء أبو بكر رضي الله عنه و خطب النّاس فذكرهم بالموت وأنّ كلّ النّاس آيلون إليه حتى لا يبقى إلا الله وحده عزّ و جلّ وقرأ الآية :﴿وَمَا مُحَمَّدٌ اِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ اِلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ اَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَّنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اَ۬للَّهَ شَيْـًٔاۖ وَسَيَجْزِے اِ۬للَّهُ اُ۬لشَّٰكِرِينَ﴾ [آلعمران:144]، حينها استقرّ خبر وفاة النّبي ﷺ عند عمر رضي الله عنه و صدق الخبر"[1]. و هكذا دفن النّبي ﷺ في غرفته و حجرته النّبوية، حينها علم من شكّ في موته ﷺ أنّ الموت حتمي على كلّ البشر وغيرهم، نبيّ وغير نبيّ، فالله سبحانه وتعالى قال:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ اُ۬لْمَوْتِۖ﴾[آل عمران:185]. فالموت موعد كل ذي روح إلا أنّ الفقيد جلل و عظيم وهو موت النّبي ﷺ.

ج- الموضوع الثّانوي:

انتقل الشّاعر من لبّ الموضوع وأساسه إلى موضوع فرعيّ في القصيدة.

1- اعتراف الشّاعر بذنوبه :

أَمَـا أَنْ يُعْـفَى مُسيءٌ قَـدْ اِعْتَدَى   يَعـضُّ يَـدَيْهِ حَسْـرَةً وَ تَـنَدُّمَا

فَدَهْرِيَ فِي لَهْـوٍ وَ قَـلْبِيَ فِي عَمَى   وَ عُمْـرِيَ فِي نَقْصٍ وَ ذَنْبِيَ فِي نَـمَا

أَتَيْتُ ذُنُوبًا لَيْسَ تُحْصَى وَ كَيْفَ لِي   بِعُذْرٍ وَ قَدْ أَصْبَحْتُ بِالذَّنْبِ مُلْجَمَا[2]

فالشّاعر ينتقل من الموضوع الأساس إلى الموضوع الثّانوي فيعترف بتقصيره في العبادة و يعترف بذنوبه فيذكر هذا الأمر تمهيدا للدّعاء لنفسه ويختم القصيدة به.

1- دلائل النّبوّة، ج7، ص219/217.

2- الدّيوان، ابن خلوف القسنطيني، ص168.

د- خاتمة القصيدة :

لا شكّ أنّ خاتمة كل قصيدة مولديّة أو المديح يختم بدعاء؛ إمّا أن يدعو الشّاعر لنفسه أو يدعو للسّلطان بعد مدحه و الشّاعر ابن خلوف في قصيدته التي درسناها ختمها بالدّعاء لنفسه والنّبي ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم، فقال :

فَيَا رَبِّ يا أللَّـــهُ يا سَامِعَ الدُّعَا ... أَجِبْ دَعْوَةَ المُضْطَرِّ وَ الْطُفْ بِهِ كَمَا

وَ يا رَبِّ يَا اللَّهُ كُنْ لِي وَ لاَ تَكُنْ ... عَلَيَّ فَقَدْ ضاقَ الفَضَاءُ وَ أَظْلَمَا

سَأَلْتُكَ بِالهَادِي أَجِبْ دَعْوَتِي وَجُدْ ... بِمَا أَرْتَجِي يَا مَالِكَ الأَرْضِ وَالسَّـــمَا

وَ مُـــنَّ بِعِتْقِ اِبْنِ خَلُّوفَ وَ جازِهِ ... بِجُودِكَ فِي الدَّارَيْنِ وَ اِرْحَمْ تَكَرُّمَا

وَ سَامِحْ وَ نَعِّمْ وَالِـــدَيَّ تَطَوُّلاَ ... وَ لاَ تَحْرِقْ اللَّهُـــمَّ بِالنَّارِ مُسْلِمَا

وَ صَلِّ عَلَى المُخْتَارِ وَ الصَّحْبِ كُلَّمَا ... رَأَى البَـرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا[1]

يدعو الشّاعر في هذه الأبيات باديء ذي بدء للمسلمين فهو يرجو لطف الله عزّ و جلّ بهم، و أن الله يجيب دعوته فهو مضطرّ، ثم يثنّي ذلك بالدّعاء لنفسه و أن يكون الله له لا عليه، يرحمه و يغفر له ذنوبه و أنّ الفضاء ضاق به و أظلم عليه الحال، فلا باب إلا بابه و لا رحمة إلا رحمته، و أن يعتقه يوم القيامة بجوده في الدارين الدّنيا والآخرة، ثم يدعو الشّاعر لوالديه ولسائر المسلمين من جديد أن لا يحرق بالنّار أحدا من المسلمين. ثم يصلي على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم و يدعو لهم بالصلاة عليهم كلما رأى البرق تعبيس الدّجى فظهر و تبسّم.

فبهذه الخاتمة يتمّ الشّاعر قصيدته التي مدح بها المصطفى ﷺ فالتزم في بناء قصيدته بالتّقاليد العربيّة المعروفة مع الإشارة إلى أنّ قصيدة المدح هي قصيدة مركبة كما أسلفنا الذكر من مقدمة ثم الموضوع الرئيس و الثانوي ثم خاتمة.

1- المصدر نفسه ، ص169.

أما عن المقدّمة فقد تنوعت من طلليّة إلى غزليّة و هذين النّوعين من المقدّمات هما اللّذان استعملا كثيرا في هذه القصيدة، و بعد تأتي مقدمة الرّحلة إلى البقاع المقدّسة و مقدّمة يتمّ فيها المزج بين الغزل و الطّبيعة في مقدّمة واحدة، و أخيرا مقدّمة بكاء الشباب والشيب.

يلي المقدمة الموضوع الأساس وهو مدح النّبي ﷺ و ذكر صفاته و مناقبه، ويتناول كذلك الشّعراء جانبا من حياته مع ذكر بعض معجزاته و الإشادة بليلة المولد وما حدث فيها من معجزات له ﷺ .

و إلى جانب الموضوع الذي تدور حوله القصيدة وهو الأساس يصحبه موضوع ثانوي و هو الاعتراف بالذّنوب والتّقصير في العبادة أو مدح السّلطان، وذكر بعض مناقبه و شجاعته هو كذلك، وقد يلجأ الشّاعر أحيانا في هذا الموضع إلى ذكر قوّة الجيش وكثرة العتاد الذي يواجه به السّلطان أعداءه.

أما العنصر الأخير في القصيدة وهي الخاتمة فقد حرص الشّعراء أن يختموها بالدّعاء إما للسّلطان وإما لأنفسهم و والديهم ثم الصّلاة على النّبي المختار وصحابته الأطهار، وهذا تكريم من الشّاعر إذ لم يغفل الدّعاء لنبيّه وصحابته،ثمّ السّلطان وحاشيته ومنهم الشّاعر.

2- النصح و الإرشاد:

و من الشّعر الحضاري الذي نظم في هذا القرن ما قاله يوسف بن يوسف الأحمر حول الصّبر: (الطويل)

خَـلِيلَيَّ مَهْلاً فَالـزَّمَانُ كَمَـا تَدْرِي وَ لاَ بُـدَّ مِـنْ يُسْـرٍ عَـلَى أَثَـرِ العُسْـرِ

فَمَهْمَا دَهَا صَحْوٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ قَطْرٍ وَ مَهْمَا دَجَا* خَطْبٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ فَجْـرٍ[1]

* دجا: ألبس،"لسان العرب"،ج14، ص249، حرف الواو و الياء من المعتل، فصل الدال المهملة، مادة (د ج ا).

1- تاريخ الأدب العربي، فروخ، ج6، ص622.

يناديِ الشّاعر في هذه الأبيات و ينصح خليليه فيقول لهما إنّ مع العسر يسرا ولا بدّ من مجيء اليسر بعد العسر فاصبرا حتى يفرّج الله، و يلجأ الشّاعر إلى التّشبيه وأنّ القحط مهما طال فإن المطر سينزل، و مهما ألبس خطب و جاء الجلل فلا بدّ من زواله وطلوع الفجر، و سيذهب الظّلام و الله سبحانه وتعالى بشّر بهذا فقال:﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح:6] فاليسر يتبع دائما العسرَ، ليس من شدّة إلا بعدها رخاء، و لا رخاء إلاّ بعده شدّة"[1] والرّسول ﷺ قال:" لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، وَ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ" فبالصّبر تكون السّعة و الفرج و ذهاب الكرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء :"يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: خَلَقْتُ عُسْرًا وَاحِدًا وَ خَلَقْتُ يسْرَيْنِ فَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ"[2]. و كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه و هو محصور"(إنّه مهما تنزل بامرىء شدّة، يجعل الله بعده فرجا، فإنه لن يغلب عسر يسرين)"[3] وهذا قول النّبي ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم و المفسرين على أنّ "العسر واحد و اليسر اثنان و في ظاهر التّلاوة عسران و يسران، إلاّ أن المراد عسر واحد، لأنه مذكور بلفظ التّعريف و اليسر مذكور بلفظ التّنكير، فكان كل واحد على الآخر"[4]. فاليسر الأوّل في الدّنيا و الثّاني للمؤمن في الآخرة[5]، و هذا أكبر دليل على أنّ الصّبر يكون به الفرج فهو سلاح العبد في دنياه و لن يستطيع أن يعيش بدونه فهو عدّة قويّة في الدّنيا.

1- تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، 1423ه، ج4، ص490.

2- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الواحدي النيسابوري، تحقيق و تعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1994م، ج4، ص517.

3- المصدر نفسه ، ج4، ص518.

4- المصدر نفسه، ج4، ص518.

5- التّفسير البسيط، أبو الحسن بن علي الواحدي النّيسابوري الشّافعي، تحقيق:15 رسالة دكتوراه بجامعة الإمام مُحَمَّد ابن سعود الإسلاميّة، النّاشر عمادة البحث العلمي للجامعة ، 1430ه، ج24، ص134.

3- الشّعر التّعليمي :

و لأبي بكر بن عاصم أبيات يتكلّم فيها عن القضاء و كيف يكون، و شروط القاضي و غير ذلك، و هذا يعتبر من الشّعر التّعليمي الذي يفيد طالب العلم، و هو لا شكّ مظهر حضاري كبير إذ العلم عمدة الحضارة و أساسها، فهذه الأبيات تبيّن مدى اهتمام الشّعراء بهذا النّوع من الشّعر حيث قال فيها :

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّـــــــذِي يَقْضِي وَ لاَ   يُقْضَى عَلَـيْهِ جَـلَّ شَـأْنًا وَ عَـلاَ

ثُـمَّ الصَّــــــلاَةُ بِــــدَوَامِ الأَبَـدِ   عَلَى الرَّسُـــولِ المُصْطَفَى مُحَمَّدِ

وَ آلِــــــهِ وَ الفِــــئَةِ المُتَّبِـعَهْ   فِي كُـــلِّ مَـا قَـدْ سَـنَّهُ وَ شَـرَعَهْ

وَ بَعْدُ فَالقَــصْدُ بِهَــــذَا الرَّجَـزِ   تَقْرِيرُ الأَحْكَامِ بِلَفْظٍ مُوجَــــزِ

....

سَمَّـــيْتُهُ بِـ : تُحْـفَةِ الحُـــــكَّامِ   فِي نُكَتِ العُقُــودِ وَ الأَحْــــكَامِ

....

(بَابُ القَضَاءِ وَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ)

مُنَفِّذٌ بِالشَّـــــرْعِ لِلأَحْــــكَامِ   لَـــهُ نِيَــابَةٌ عَنِ الإِمَـــــامِ

وَ اُسْتُحْسِنَتْ فِي حَقِّهِ الجَـــزَالَهْ   وَ شَرْطُـهُ التَّكْلِيفُ وَ العَـــدَالَـهْ

وَ أَنْ يَكُونَ ذَكَــــرًا حُــرًّا سَلِمْ   مِنْ فَقْدِ رُؤْيَةٍ وَ سَمْعٍ وَ كَــــــلِمْ[1]

....

1- تاريخ الأدب العربي، ج6 ، ص628/629 .

و يكمل جميع الشروط و الأحكام المتعلقة بهذا الباب بهذه الطريقة حتى يحفظها طالب العلم فيسهل عليه استحضار المسائل و ضبطها و إيرادها فهي طريق جيّد لضبط العلم و استحضار مسائله.

و عليه نقول أنّ الشّعر الحضاري في هذه الفترة لم يكن كثيرا لما ساد في هذه الفترة من ضعف سياسي في المنطقة كلّها فأثّر على الجانب العلمي و الحضاري بشتّى أنواعه، ضعفت الدّول الإسلاميّة و كثرت الصّراعات فيما بينها، وسقوط الأندلس في أيدي المستعمر القشتالي ممّا زاد الطّين بلّة.

كما أنّ الشّعراء في هذه الفترة اعتمدوا في شعرهم الحضاري اعتمادا كبيرا على الكتاب والسّنّة في اقتباس كثير من الأفكار و الأقوال وقد أشرنا إليها في مهدها.

الباب الثّالث:

دراسة فنّية ولغويّة لشعر المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين.

الفصل الأوّل: شعريّة الخطاب

أوّلا- المعجم الشّعري.

ثانيا- التّشكيل المعجمي لشعر المظاهر الحضارية في المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين.

أوّلا- المعجم الشّعري :

إنّ المتأمّل للشّعر والدّارسين له يجد نصّ معجمه الخاص يسعفه في تحديد حقله الدّلالي فيكشف للقارئ والباحث هويّة النّص وطبيعته، فتعبر المفردات التي تشكّل النّص ومفاتيحه ومحاوره التي يدور عليها الموضوع .

وممّا لا شك فيه أن دراسة النّصوص الشّعرية لا بد أن تكون بمعجمها الخاص بها حتىّ يمكن تحديد حقلها الدّلالي، و من خلاله يمكن للقارئ أن يكتشف حقله أو مفرداته حتىّ تكون مفتاحا و محورا يدور عليها كلّ نصّ شعري و بالتّالي يمكن لكل قارئ الوصول إلى مقاصد الشّاعر و مبتغاه، و إن كان المعجم يتأثّر بعوامل خارجيّة منها ما هو اجتماعي أو ثقافي أو سياسي أو ديني، فإن الذّاتية هي كذلك لها دورها في تغيير المعجم و تنويعه فتجعل القصيدة تتّجه إلى مبتغى الشاعر، و ما يناسبه من ألوان تليق بمقام القصيدة ومقصدها، إذ أن هذه المعاجم متعددة منها ما هو ديني و منها ما هو تقليدي، فأمّا الدّيني فيعتمد على القرآن الكريم و الحديث النّبوي الشّريف، ثم يليه المعجم الصّوفي،أمّا التّقليدي فيعتمد على التراث القديم من شعر جاهلي و إسلامي بمختلف عصوره، و سنتطرّق إلى كلّ واحد بما يليق المقام به.

1- المعجم الدّيني :

أ- القرآن الكريم : إنّ القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى الله تعالى بها العرب، فنزل بلسان عربي مبين، كما قال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[يوسف:01]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "وذلك لأنّ لغة العرب أفصح اللّغات و أبينها و أوسعها، و أكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنّفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللّغات، على أشرف الرّسل، بسفارة الملائكة، و كان ذلك بأشرف الأرض وابتدِئ إنزاله في أشرف شهور السّنة و هو رمضان، فكمل من كل الوجوه"(1).

1- عمدة التّفسير عن الحافظ ابن كثير، مختصر تفسير القرآن العظيم، أحمد شاكر، أعدّه: أنور الباز، دار الوفاء للطّباعة و النّشر، المنصورة، مصر، ط2، 1426هـ/2005م، ج2، ص282.

فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي كما وضّح ذلك أهل التفسير، لهذا صار أهمّ مظهر من مظاهر تعامل الشّعراء معه كتراث ديني، كيف لا و قد كان "هذا الأسلوب البالغ الرّوعة الذي ليس له سابقة و لا لاحقة في العربية، هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره فعلى هدْيِه أخذ الخطباء و الكتّاب و الشّعراء يصوغون آثارهم الأدبيّة مبتدئين بديباجته الكريمة و حسن مخارج الحروف فيه و دقّة الكلمات في مواضيعها من العبادات بحيث تحيط بمعناها، و حيث تجلي عن مغزاها مع الرّصانة و الحلاوة، و كان العرب - و لا يزالون - يتحفّظونه، فهو معجمهم اللّغوي و الأدبي الذي ساروا على هداه، ومهما اختلفت أقطارهم أو ابتعدت أمصارهم و أعصارهم".[1]

وإذا استنطقنا الشّعر المدروس و عدنا إليه نجد أن جميع شعراء المديح خصوصا وبعض من كان شعرهم ذا صبغة دينية ممّن مسّتهم هذه الدراسة قد نهلوا من هذا المورد العذب إلاّ أن مستويات الاقتباس منه قد" تفاوتت و تباينت عندهم، بل و تعدّدت عند الشّاعر الواحد فقد تستغل الآية القرآنية المقتبسة بلفظها ومعناها وقد يكتفى فيها باللّفظ دون المعنى أو العكس"[2].

و لعلّ ابن يوسف الثّغري كان في مقدمة هؤلاء الشّعراء الذين نهلوا كثيرا في قصيدتهم المولديّة من القرآن الكريم و من أمثلة ذلك قوله[3] :(الطويل)

وَ أَعْظَمُهَا القُرْآنُ يَهْدِي لَنَا الهُدَى فَيَا حُسْنَ مَا يَهْدِي وَ يَا فَوْزَ مَنْ يَهْدِي

تأثّر الشاعر بالقرآن الكريم لم يكن لمجرد الاقتباس فحسب، بل يتّضح ذلك أيضا في استحضاره أحيانا لعدة آيات قرآنية "مزجها في بوثقة دلاليّة واحدة حملتها لنا هذه الآيات المتوالية"[4].

1- تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج2، ص34.

2- قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، ص112.

3- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص199.

4- المرجع السّابق، ص 113.

فهذا البيت مثلا يحيلنا إلى عدّة آيات منها قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:01]. و قوله تعالى﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:09].

أما ابن الخلّوف فله كذلك أبيات اقتبس فيها من القرآن الكريم،منها قوله:(الطّويل)

نَبيٌّ عَـلاَ فَـوْقَ الـبُرَاقِ إِلَى العُلاَ إِلَى أَنْ تَـوَلَّى غَـيْرُهُ وَ تَقَـدَّمَا[1]

و قوله كذلك في السياق نفسه[2]:(بسيط تامّ)

دَعَاهُ فِي لَيْلَةِ المِعْـرَاجِ خَـالِقُهُ فِي حَضْرَةٍ حَضَرَتْ فِـيهَا السَّـعَادَاتُ

وَ سَارَ مِنْ فُرْشِهِ فَوْقَ البُرَاقِ إِلَى عَـرْشٍ أحـاطَـتْهُ لِلْبَـارِي عِـنَايَاتُ

وَ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى حِينَ خَاطَبَهُ فِي مَشْهَدٍ رُفِعَتْ عَنْهُ الحِجَابَاتُ

هذه الأبيات التي نظمها ابن خلوف تعرضت لمعجزة أو آية الإسراء و المعراج والتي كانت ابتلاء للمؤمنين و تمحيصا للمنافقين، و قد اختصّ بها مُحَمَّد صلّى الله عليه و سلّم دون الأنبياء الآخرين، فقال فيها عزّ من قائل:﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:01]. و قوله تعالى :﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النّجم:07] .

و في هذه الأمثلة بيان كاف و دواء شاف على أنّ شعراءنا في المغرب الإسلامي عموما لجأوا إلى القرآن الكريم و وظّفوه في أشعارهم لبلاغته المتميّزة و نظمه المعجز، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم عليم، فيه الحجج الدّامغة و البراهين القاطعة، يعبّرون عنه في جلّ دفقاتهم الشّعرية، فلم يحيدوا عن سياقه الأصلي.

1- الدّيوان، ص162.

2- ديوان جنى الجنّتين في مدح خير الفرقتين، ابن خلوف القسنطيني، تحقيق: العربي دحّو، منشورات إتّحاد الكتّاب الجزائريّين، الجزائر، دت، ص330.

واكتفيت بهذه النّماذج للذّكرى فقط فإنّها تنفع المؤمنين، وقد ذكرت فيما سبق - في الباب الثّاني- الأدلّة القرآنية على جلّ الاقتباسات الشّعرية التي وظّفها أهل هذا الفنّ في قصائدهم أو مقاطعهم التي تبرز المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين.

ب- الحديث النبوي:

إنّ الأحاديث النّبوية الشّريفة هي كذلك كانت مقصد شعراء المغرب الإسلامي في نظم قصائدهم فحضورها كان قويّا في الشّعر المدروس، و لا بدع في ذلك فجلهم إن لم نقل كلّهم يلجؤون إلى الحديث النّبوي "مستغلّين دلالته و إيحاءاته في التّعبير عن واقعهم الشّعوري فما بالك بغرض ديني يخصّص للحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلا شكّ أنّ صدق الشّعور لا يرتبط بالعواطف القلبيّة فحسب، بل لا بدّ أن يتجسّد أيضا في الأفكار الدّينيّة التي تخزّنت نتيجة هذا الحبّ في أعماقهم و عكسته لنا أشعارهم"[1]. و هذه النّماذج كلّها تعبّر عن المظاهر الحضاريّة المعنويّة وفي هذا المقام يقول أحمد بن ليون أبياتا يحثّ فيها طالب العلم على حسن سؤال العالم عند جهل المسألة، فقال :(السّريع)

شِـفَـاءُ دَاءِ العِـيِّ حُسْـنُ السُّـؤَالْ فَاسْـأَلْ تَنَـلْ عِلْمًا وَ قُـلْ لاَ تُبَـالْ[2]

فالقارئ لهذا البيت ما يكاد ينتهي منه حتّى يستحضر في ذهنه قول رسول الله صلّى الله عليه و سلم:" أَوْ لَمْ يَكُنْ شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ"[3]. فكان هذا ردّا من رسول الله صلّى الله عليه و سلّم على ذلك الأعرابي الذي أفتى رجلا أصيب في رأسه بجرح بأن يغتسل للصّلاة ولا يتيمّم، فلمّا استجاب له و اغتسل أصابه كُزٌّ ومات، عاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم على من أفتاه و لم يسأل أهل العلم و التّخصّص.

و بهذا العرض لجزء الحديث نستطيع أن نقول أنّ ابن ليون قد اقتبس اقتباسا لفظيّا مباشرا منه.

1- قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط، ص116.

2- نفح الطيب، ج5، ص544.

3- صحيح سنن ابن ماجه، ج1، ص 178/177، رقم : 470.

و لابن خلوف اقتباسات حديثية كثيرة خاصة فيما يتعلق بمدح المصطفى صلى الله عليه و سلم و من تلك الأمثلة ذلك التقاطع الموجود في هذا البيت فقال :(بسيط تامّ)

يَا أُسُّ عَـارَضَـهُ فِي وَرْدِ وَجْنَـتِهِ هَلْ زَجْرَفَتْ بِكَ فِي النِّيرَانِ جَنَّاتُ[1]

الشّاعر في هذا البيت يستحضر في ذهنه قول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: "حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَ حُفَّتْ النَّارِ بِالشَّهَوَاتِ"[2]. و الأمثلة على ذلك كثيرة في الشّعر الحضاري؛ وقد أوضحنا ذلك في الباب الثّاني عند شرح الأبيات و بيّنا الاقتباسات الحديثية في شعر المظاهر الحضارية في القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين.

ج- التّراث الصّوفي :

إنّ الفكر الصّوفي انتشر في المغرب الإسلامي انتشارا واسعا تعدّدت طرقه و كثرت فكان له الأثر الواضح على الحياة الاجتماعيّة و الثّقافيّة، مما جعل عدد المشتغلين بأمور الدّين من الفقهاء و العلماء متضاعفا، فحظُوا بشعبيّة واسعة و ".. يكفي لتقدير مدى انتشار التّصوف في المغرب النّظر في كتاب ابن الزّيّات التّادلي (توفي بعد 617هـ) التّشّوف إلى معرفة رجال التّصوّف، إذ نرى عددا هائلا من الأولياء و مشايخ الصوفية المنتشرة في كل أنحاء المغرب"[3].

و ما دامت "المدائح النّبوية بابًا كبيرًا من أبواب الشّعر الصّوفي"[4]، فإنّ العودة إلى الشّعر المدروس يطلعنا على أثر الأفكار و المصطلحات الصّوفية الظّاهرة الواضحة، وإن كانت شذرات إلا أنّها فرضت حضورها فيه، من ذلك ما جاء في قصيدة يوسف الثّغري التي جاءت في الفصل الأوّل من الباب الثّاني، إذ اجتمعت فيها ألفاظ من المعجم الصّوفي نذكر منها جانبا على سبيل التّمثيل لا الحصر:

1- ديوان جنى الجنتين، ص318 .

2- صحيح مسلم، ج4، ص2174، كتاب الجنة و صفة نعيمها و أهلها .

3- المدائح النّبوية، محمود علي كرد، الشّركة المصريّة للنّشر، ط1، 1991م، ص129 .

4- اتجاهات الأدب الصّوفي بين الحلاج و ابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ، ص67 .

(وجدي، الأنس، أيام وصل، الهوى، هند، سر المحبة، هاج شوقي، خدور، وصلهم ياقوتة، صبّ، الشّوق، أشجانه، ساكني، أجلى، الشّهد، شوقا، الورد، الطّيب، روضة..) ما نلاحظه ونلامسه في هذه الألفاظ أنّها كثيرة في قصيدة صغيرة، كلّها ارتبطت بالحبّ المحمّدي، فهي رموز إلى الشّوق و المحبّة إليه صلّى الله عليه وسلّم، و الظاهر أنها قيلت من باب المبالغة و الرّغبة في تقديس المحبوب، و الارتقاء به إلى أعلى المراتب و الدّرجات "إذ هو الشّخصية الكاملة التي تبتعد عن التّصور البشري للرّسول و تقترب من فكرة الإنسان الكامل حسب التّصور الصّوفي"[1]. إضافة إلى استعمال الرّموز التي تشعّ منها معاني الرّوحانيّة و الحنين،"إلاّ أنّ الشّاعر في المولديّات لا يغوص في الرّوحانيّات والرّمزيّة بل سرعان ما يصرّح بأنّ قصده النّسيب هو الرّسول المحبوب الأوّل ثم أماكنه المقدّسة"[2].

و من المعاني أيضا التي بدت ظاهرة من خلال ألفاظ استعملها الشّعراء المتصوّفة ".. التغني بالأماكن الحجازيّة تشوّقا إلى ساكنها عليه السّلام ثمّ التّغنّي بالحقيقة المحمديّة أو النّور المحمّدي.. بالإضافة إلى التّركيز على شخصيّة الرّسول ثم عنصر المعجزات باعتبارها جزء لا يتجزأ من شخصيّته صلّى الله عليه و سلّم، وأخيرا النّداء والتّوسّل والدّعاء و التّشفّع و التّضرع و غيرها من معاني الصّوفية الأخرى"[3]، منها ما جاء في قصيدة ابن خلّوف القسنطيني والتي تناولنا بعضها بالشّرح والتّحليل في الفصل الثّاني نذكر منها : (تنسّم، الرّوض، نوره، الزّهر، جنّة، الورد، الياقوت، ناظر، ذكرى حبيب، نوَّر، بحر من النّور، الشّمس، حبيبا، تشفع، علا، الذّروة، الجوهر، عين الكون، روحا، سما، نور المصطفى، ربع الحبيب..)، أمّا ألفاظ النّدم و التّوسّل فكثيرة منها: (رحمة الله، حسرة تندّما، مسيء، دهري لهو، قلبي في عمى، عمري في نقص، ذنبي في عمى، ذنوبا، ليس تحصى، ملجما، أرجو، عفو، يا رب، يا سامع، المضطر، ألطف، كن لي، عتق، جازه جودك، ارحم، تكرّما، سامح، لا تحرق..).

1- شعر المولديّات في العهد الزّياني، ص172.

2- المرجع نفسه، ص172.

3- بردة البوصيري، سعيد بن لحرش، مطبعة فضالة، المغرب، 1998م، ص538.

هذه المفردات تدلّ على استعمال الشّعراء للمعجم الصّوفي الشّائع بطرق مختلفة ومتعدّدة و متنوّعة تجعل المتلقي يقبل على النّبي صلّى الله عليه وسلّم بشوق ومحبة وإعلان للتوبة وطلب الشّفاعة، فتكون حقّا للموعظة و الإرشاد على طريقتهم في التّوجيه والنّصح وضرورة المبادرة إلى الله والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وذلك قبل فوات الأوان[1].

ثم يذكر الشّعراء الشّيب و الشّباب في قصيدتهم على الطريقة الصّوفية بقصد التّخلي عن أمور الدّنيا و شهواتها و مغرياتها و التّمسك بأمور الدّين والتي توصل إلى الحبيب المصطفى ﷺ و ترضي الرّب عزّ وجلّ قبل سيطرة الشّيب على الرّأس؛ وهذا بلا شكّ لتقديم ما ينجي من غضبه تعالى و يدّخر شفاعته صلّى الله عليه و سلّم لنفسه.

و في مثل هذا المقام قال ابن يوسف الثّغري: (الطّويل)

وَ اشْفِي غَلِيلِي بِالوُرُودِ لــــزَمْزَمَ   فَيَا ظَمَئِي شَوْقًا إِلَى ذَلِكَ الـوِرْدِ

لَئِنْ فَاتَنِي فِيماَ مَضَى مِنْ شَبِيبَتِي   وَلَمْ أَعْتَمِلْ سَيْرًا بِنَصٍّ وَ لاَ وَخْدِ[2]

وذكر الشّباب في الحقيقة هنا لأجل العبرة و الموعظة و أخذ الدّروس حتّى لا تضيع هذه المرحلة فيستثمرها الإنسان فيما ينفع ولا يضرّ إذ أنّها فترة مهمّة في حياته.

و هكذا استثمرت المولديّات ما كان شائعا في هذه الفترة من مصطلحات دينية و صوفية واستندت إلى الكثير من الألفاظ والمعاني التّراثية لتنظّم جوهرة في القلادة الشّعرية العربيّة و تنسجم مع مكوناتها[3] حتّى تصل في نهاية المطاف إلى المبتغى الذي من أجله وضعت هذه القصيدة؛ ألا وهو المدح النّبوي وكذا النّصح والإرشاد للقارئ حتّى يفوز بالدّارين.

1- شعر المولديّات في العهد الزّياني، ص 173.

2- تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان، ص200 .

3- المرجع السّابق، ص176.

- الدّعوة إلى العلم :

و ممّن تأثر كذلك بالمصطلحات الصّوفية و استعملها في شعره ابن ليون التجيبي حيث قال:

زَاحِمْ أُولِي العِـلْمِ حَتَّى   تُعْتَدَّ مِنْهُمْ حَـقِيقَهْ   (المجتث)

وَلاَ يَـرُدَّكَ عَجْـــزٌ عَـنْ   أَخْـــذِ أَعَلَى طَـرِيقَهْ[1]

فقوله "أخذ أعلى طريقه" فالطّريقة المشهورة عند المتصوّفة بأنّها المذهب، والطّرق عندهم كما هو معلوم متعدّدة، لكلّ منطقة طريقة يدرسونها و يتعبّدون بمنهجها إلى الخالق عز وجلّ، و هي لا شكّ أنها تكون منسوبة إلى شيخ معيّن معروف بالعلم عندهم وفي عصرهم، أو يكون قد مات و خلّف تراثا من خلاله ينهلون العلم، ولهذا اشتهرت كلمة طريقة عند الصّوفية و يقصدون بها مذهبا معينا عند شيخ معروف عندهم بالزّهد والعلم والورع. و هذه المفردة استعملها ابن ليون في مقطوعته هذه التي تحثّ على العلم من عند شيخ معيّن بأعلى طريقة أو سند.

هذا ما أمكننا جمعه وذكره من قصائد ومقطوعات في هذه الفترة لشعراء تأثّروا بالمصطلحات الصّوفيّة و استعملوها في شعرهم، ليظهروا من خلالها مظاهر حضاريّة كانت بارزة في هذين القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين خاصّة في شعر المولديّات وبعض المقطوعات التي تحثّ على العلم.

د- المعجم الشّعري التّقليدي :

إنّ الذّات الشّاعرة متأثّرة حتما بعوامل كثيرة مما يجعلها تميل من حين لآخر إلى إحدى المؤثّرات سواء كانت معنويّة أو لفظيّة. إنّ هذه الذّات "بحاجة ماسّة إلى رياح عاتية تجتاح كلّ أقطار الإبداع فيها فتحرّك مشاعر حبّ التّراث لديها و تعصف بها فتدفعها لمعانقة الرّوح القديم دفعا"[2]. و هذا كما أسلفنا الذّكر أنّ النّفس "ليست ذاتا مستقلّة أو مادّة موحّدة و لكنّه سلسلة من نصوص أخرى فالموروث يبرز في حالة التّهيّج و كلّ نصّ حتما

1- نفح الطيب، ج5، ص544.

2- المدائح في العصر الزياني، ص120.

نصٌّ متداخل"[1]. فكلّ شاعر إلاّ و له رواسب سابقة هذا على أقلّ تقدير. "إذ لا وجود لمبدع يخلق لنفسه و إنّما هو مكوّن في جانبه الأكبر من خارج ذاته بوعي أو بغير وعي"[2] و من أكبر الأدلّة على ذلك ما قاله أبو نوّاس الذي يعترف أنه ما نظم شعرا حتى حفظ لستين شاعرا من العرب.

و إن عدنا إلى الشّعر المدروس فسنجد حتما أنّ الشّعراء قد نظروا إلى نصوص غيرهم و بكثرة و جذبوها إلى جوّ نصوصهم الشّعرية إمّا بتقاطع اللّفظ والمعنى معا، أو الاقتصار على أحدهما دون الآخر مع إدخال بعض التّغيير و التّحوير على حسب الحاجة و المقام[3]. و من المواضع التي تشهد على ذلك التّقاطع القوي في قول الثّغري التّلمساني في السّلطان أبي حمّو مادحا إيّاه[4]:(كامل تامّ)

أَعْدَدْتَ لِلْأَعْـدَاءِ عُـــدَّتَهَا الَّتِي بِسِلاَحِهَا يَلْـــقَى العَـدُوَّ فَيُهْزَمُ

فالشاعر هنا تأثّر ببيت الفرزدق في هجائه للأخطل و جرير في قوله[5]:(كامل تامّ)

أَعْدَدْتُ لِلشُّعَــــرَاءِ سُمًّا نَاقِـعًا فَسَقَيْتُ آخِـرَهُـمْ بِكَأْسِ الأَوَّلِ

وإذا تأملنا هذا البيت وجدنا أنّ الثّغري وظّف بعض الألفاظ فقط في بيته وهذا نتيجة إخضاعه لبيت جرير و جعلها توافق الموقف الذي حرص على إبرازه وهو مدى حنكة الخليفة في الحرب وأنّه لا يدخل الحرب إلا بعد عدة قويّة حتى يهزم عدوّه، وفي مثل هذا المقام قال الثّغري بيتا آخر عن الخليفة أبي تاشفين ابن حمّو:(الطّويل)

يُعِـــدُّ إِلَى الأَعْـدَاءِ كُلَّ كَـتِيبَةٍ بِهَا الجُـرْدُ تُرْدِي وَ الفَوَارِسُ كَالأُسْدِ

1- الحطيئة من البنيويّة إلى التّشريحيّة، قراءة نقديّة لنموذج إنساني معاصر، عبدالله الغدامي، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة السّعوديّة، 1985م، ص321.

2- ينظر المدائح في العصر الزّياني، ص120.

3- المرجع نفسه، ص120.

4- الدّيوان، ابن خلوف، ص320. (جنى الجنّتين).

5- الدّيوان ابن خلوف، ص201.

وهذا البيت لهو أكبر دليل على أنّ الشّاعر اعتمد على بعض ألفاظ الفرزدق واستعملها في نفس السّياق فكلمة (أعددت) يعد من قول الفرزدق في بيته فوظّفها الشّاعر الثّغري مرّات عديدة و في سياقات متنوّعة.

ومن الأبيات التي اعتمدت في نظمها على التّراث التّقليدي قول ابن ليون[1] و هو يحث على طلب العلم :(بسيط تامّ)

عَلِمْتَ شَيْئًا وَ غَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ فَأنْظُرْ وَ حَقِّقْ فَمَا لِلْعِلْمِ إِحْصَاءُ

في هذا البيت وظّف الشّاعر فيه شطرا من بيت قاله أبو نوّاس و هو[2] :

قُلْ لِلّذي يَدَّعِي فِي العِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَ غَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

فالشّطر الثّاني من هذا البيت استعمله الشّاعر ابن ليون لشهرته بين القراء، ولفطنته و تحايل على القارئ حتى يجلبه إلى فكرته من خلال إيهامه بالتّوحّد الدّلالي. وكذلك ابن خلّوف القسنطيني استعمل ناصية هذا البيت جلبا للقارئ فقال[3] :(بسيط تامّ)

يَا مُدَّعِي الحُبَّ قِفْ وَاِسْمَعْ حَدِيثَ شَبَحٍ لَهُ عَلَى ظَهْرِ الأَهْوَاء اِشْتِمَالاَتٌ

و إذا تأمّلنا هذا البيت وجدنا معناه يختلف كثيرا عن بيت أبي نوّاس غَيْرَ بداية البيت فقد أذاب ابن خلّوف معظم الألفاظ في فضاء قصيدته نتيجة إخضاعها لخدمة بيته الجديد الذي يدعو إلى الارتقاء بالحب الإلهي، أما أبو نوّاس فقد وجّه أبياته للاستهزاء و السّخريّة من المتفلسف في العلم كونه حفظ شيئا و غابت عنه أشياء كثيرة ، وهي رسالة لمن لا يتيقّن من علمه ومحفوظه ، فيلجأ إلى الفلسفة وعدم التّثبّت من مكتسباته؛ حتّى يهذي في قوله فيهرف بما لا يعرف، وبدون حجّة ولا كتاب مبين .

1- نفح الطيب، ج4، ص544.

2- الديوان: أبو نواس، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دت، ص63.

3- ديوان الثّغري التّلمساني، تحقيق: نوار بوحلاسه، منشورات مخبر الدراسات التّراثية، جامعة منتوري قسنطينة الجزائر، 2004م، ص131.

و بهذا نقول أنّ الأبيات التي مرّت بنا استطاع الشّعراء فيها أن يتدخّلوا في النّص المستدعي للتّحوير مع تفاوت درجات النّأي بين النّص الحاضر الجديد والغائب وأنّ التّراث التّقليدي كان حاضرا في قصائد و مقطوعات المظاهر الحضاريّة في هذين القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين.

ثانيا- التّشكيل المعجمي لشعر المظاهر الحضارية في المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين.

معجم ألفاظ المظاهر الحضارية في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين:

من خلال ما عرضنا من اقتباسات قرآنيّة و أخرى حديثيّة نجد المعجم الدّيني في شعر المظاهر الحضاريّة بارزا و معتمدا اعتمادا كبيرا و يمكننا تصنيفه إلى أربع خانات و إن كانت بدورها تصبّ في حقل دلالي واحد، الخانة الأولى و التي أخذت حظّا وافرا من شعر المولديّات تكون للممدوح و هو المصطفى ﷺ، أما الخانة الثّانية فهي تخضع للمفردات المكانيّة التي يحنّ إليها كل الشّعراء، و هي علاقة وطيدة بالخانة، و إن بحثنا في الخانة الثّالثة فإنّنا نورد فيها الكلمات التي ارتبطت بقيم دينيّة. أما الخانة الرّابعة فخصّصناها للخلفاء والسّلاطين الممدوحين هذا بالنّسبة لشعر المولديّات في القرن الثّامن و التّاسع الهجريين وتكون الخانة الرّابعة في القرن التّاسع للصّحابة رضي الله عنهم عوض معجم الخلفاء، كلّ هذا سنتعرض إليه و نقدّمه بالشّكل الآتي.

أ- معجم ألفاظ شعر المولديّات في القرن الثّامن :

1- معجم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:	2- معجم الأماكن المقدّسة:
شفيع المذنبين، مُحَمَّد صلّى الله عليه و سلّم يشفعه المولى، يشفع في العبد، نبي، أحمدا مُحَمَّدا، أطنب فيه الوحي، خصّ بالسّبع المثاني، نبي جميع الرّسل، له معجزات يهدي لنا الهدى، له انشقّ القمر، البدر، له حنّ الجذع، فاض نمير الماء، بين بنانه، آياته قبل الولادة وبعدها، مولده للخلق أسعد صادق الوعد، خير مرتل، شوقا فيه، سابعه المولد السّامي، سابعه الرّضى، واسطة العقد عليه سلام الله.	زمزم، نجد.
3- معجم الدّين الإسلامي و قيمه:	4- معجم الخليفة:
شيطان الغواية، أبكي لزلاّتي، يهدي الرّشد ذنوبي كثيرة، آثرت غيّي، تعاميت عن الرّشد، الحمد، المدح، القرآن يهدي، الوحي الحشر، اللّحد، جنّة الخلد.	إمام تولّى الله تشييد فخره، كرمه، مجده همام، نصره الله، له السّعد، السّعي الجميل له الجود، أضحى أمّة، له العسكر الجرّار، له أسنّة كالشّهب، له عسكر كسحب، له الصّواهل كالرّعد، يعدّ للأعداء، الفوارس كالأسد، يبيد العدى، يهاب، يرجى في جلال جماله، كليث و غيث، في وعيد و وعد، مالكا يحمي الرّعية، يحييهم بالبذل و العيشة الرّغد، يكفلهم بالعدل و الفضل و النّدى، يشملهم بالجود و الرّفق، جوهر.

ب- معجم شعر المولديات في القرن التّاسع :

1- معجم الرّسول صلى الله عليه و سلم:	2- معجم الدّين الإسلامي و قيمه:
أبو القاسم، الهادي، النّبي المعظّم، بشير نذير، صادق القول، مرسلا، حبيبا خليلا هاشميّا، مقدّما، قفيّا، فقيّا، نبيّ، مبجّلا سراجا، منير، مكرّما، زمزميّا، أضاءت له قصور الشّام، شقّ له إيوان فارس، شرف الله به طيبة، علا فوق البراق، الحبيب حمى الإسلام بكلماته، أناب له الجنّ، قضى الباري بنصر لوائه، شقّ الملائكة صدره هو الذّروة، هو العروة الوسطى، أطعم ألفا روى جيشه من الظّمأ، مقنع، الأسد الضاري، مجيب جواد كريم، صلّ على المختار، أرسله بالحقّ .	سائل، أغنى، خائف، الفعل الجميل، عبّاد المسيح، ستصلوا جهنّما، مغنم، طغوا، بغوا سوّاه الله، سوّى من تراب آدما، غافر الذّنب، ساتر، حليم، عليم، مالك الأرض هدانا، فتنة العمى، ، داعيا الضّلال، آيات الكتاب، حسرة، تندما دهري في لهو، قلبي في عمى، ذنوبا، ملجما سامع الدعاء، أجب دعوة المضطرّ، عتق الدّارين، ارحم، سامح نعمّ،لا تحزن مسلما، يسّر، عسّر، نجوم الهدى، سنّوا التّواضع في العلا، شرّفهم الله بمحمّد.
3- معجم الصّحابة:	4- معجم الأماكن المقدّسة:
السّادة الغرّ، نجوم منيرات، أولي التّقى جاء لهم الكتاب معظّما، نفوسهم سمت، قوم للهيجاء، الدّين، النّدى، القادة، أبصروا نور الهدى، هدوا إلى الحقّ.	أبطحيّا، البيت العتيق، يثرب، بدرا، حنين مكّة، يلملم، الشّعب، ربع حله.

ما نلاحظه في هذه المعاجم الخاصّة بالمولديّات في القرنين الثّامن والتّاسع هو أنّ مفرداتها من خلال نسبها متباينة سيطر فيها معجم الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على باقي المعاجم، صفاته، أخلاقه و كلّ ما يرتبط بشخصيته الإنسانية و النبوية المتوازنة. و هذا بطبيعة الحال مع مقام الموضوع و طبيعته و هو المدح النبوي، بدت الألفاظ متناغمة ومنسجمة مع لب الموضوع و مناسبته و هو الاحتفال بالمولد النّبوي، و لذلك نجدها مرتبطة و محققة لهذا الغرض و هي بلا شك شائعة بصورة واضحة جليّة و غالبة في كلّ المولديّات عبر جميع القرون التي قيل فيها مثل هذا المدح لأنّ شخصيّته صلّى الله عليه وسلّم هي بيت القصيد من هذا النّظم. و إذا ما أضفنا الخانة الثّانية إليها و هي مرتبطة بالأماكن المقدّسة في القرن الثّامن نجد أنّ الشّاعر لم يف بالغرض المطلوب، فأسماء الأماكن التي ذكرها لم تغطّ المستوى المطلوب في هذه القصيدة، إذ تمثّل ارتباطا كبيرا بحياة النّبي صلّى الله عليه وسلم. أمّا في القرن التّاسع فالشّاعر استوفى أماكنا كثيرة تتماشى وحياة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم حيث أنّها تفي بالغرض المرجو و المطلوب، و أسماء هذه الأماكن هي بمثابة الجسر الذي يربطه بالممدوح و بدينه الحنيف.

ثم يلي هذين المعجمين معجم الدّين الإسلامي و هو في الخانة الثالثة و تتعلّق بقيمه الحنيفة؛ إذ هو وفير كذلك من حيث ألفاظه فهو يعدّ في المرتبة الثّانية بعد معجم الرّسول ﷺ، هذا في القرن التّاسع، أما في القرن الثّامن فلم تكن بالوفرة التي ذكرناها إلا أنّه وفّى بالغرض المطلوب ولربّما كان ذلك لصغر القصيدة أو لأنّ الشّاعر أراد أن يبرز شخصيّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الممدوح في القصيدة؛ وهذه هي الغاية من هذه القصيدة لا غير، كمّا أن شخصية الممدوح في هذه المولديّة هي القدوة و الأسوة للمسلمين و هي الحاملة لقيم إنسانيّة وإسلاميّة رفيعة و مبشرة و منذرة فهي التي ينبغي أن تبرز و تظهر أكثر وبنسبة أوفر فهي النّموذج الأمثل .

أما عن الخانة الأخيرة، ففي القرن الثامن، نجد فيها خليفة المسلمين الذي يحمي الشّرع والأمّة الإسلاميّة، فهو لا شكّ أنّ قدوته وأسوته هو المصطفى صلى الله عليه و سلّم وبالتّالي هو كذلك يظهر بمعجم ديني متوسّط، هذا يدل على أن الشّاعر هنا يلتزم بإبراز

شخصيّة الممدوح الأوّل وهو النّبي صلّى الله عليه وسلّم فالقصيدة ما كتبت إلاّ لأجله وحلولا بمناسبة مولده ﷺ، أما المدح الآخر أو الثّاني فهو مدح ثانويّ عارض.

وفي القرن التّاسع قد اختلفت الشّخصية في الخانة الرّابعة واستبدلت بالصّحابة رضي الله عنهم، مناقبهم ومواقفهم، فكان لهؤلاء الأبطال شرف صحبتهم به ﷺ وهي شخصيّات عاشت مع النّبي ﷺ، وامتثلت أوامره و انتهت بنواهيه، فهي شخصيّات مرتبطة به وبالدّين الإسلامي الحنيف، فقد كان لها نصيب وافر في القصيدة المولديّة في هذا القرن.

وإذا أمعنا النّظر في الجدولين نستشف و نلاحظ أنّ الشّاعر في كلّ قصيدة من المولديّات وقف طويلا عند الرّسول ﷺ ذاكرا صفاته و مناقبه و معجزاته و ماله علاقة بنبوته ورسالته، فيعطي النّموذج الأمثل والمتكامل عن القدوة والأسوة لهذه الأمّة محمدٍ ﷺ، فالشّاعر لا يكاد يصفه بصفة إلا و قد كررها بمرادف أو مشتقّ يخدم الحقل الدّلالي للمولديّات، إذ إنّ كثافة المعجم فيها يؤكّد أو يعكس صورة القدوة الكاملة الذي تمّ واكتملت مناقبه، مما يجعله شخصيّة فاعلة و مؤثّرة و بارزة في الأمّة على كلّ المستويات الدّينية والاجتماعيّة والسياسيّة والتّاريخيّة، ويقابله بلا شكّ الحضور الفاعل البارز على المستوى اللّغوي في النّصّ المولدي و هذا يحدث تطابقا بين الشّعر والواقع، فبروز وحضور هذا النّبي بين المسلمين في حياتهم كبير، و في نفسيّة الشّاعر أكبر و وفير و في لغته أكبر بكثير مما يجعل القارئ يعيش لبّ الموضوع، فالمعجم المحمّدي إذن فضاء النّص المولدي، وهي أكبر دلالة على تطابق اللّغة بالموضوع في هذه النّصوص.

إنّ المعاجم الأخرى التي تضمّنتها نصوص المولديّات والتي أشرنا إليها في الخانات الأخرى هي كذلك تتفاعل مع الموضوع الأمّ، فهي تحقق مبدأ التّفاعل و التّواصل معه فمعجم الأماكن المقدّسة مثلا هي بقاع ترعرع فيها النّبي ﷺ و ولدت فيها دعوته، فالإكثار من ذكرها دلالة معنويّة عند الشّاعر لحبّه و اشتياقه إليها و حنينه لها وهو البعيد عنها في المغرب، وهذا شعور لا شكّ ينتاب الشّعراء عند نظمهم لهذا المدح أو المولديّات .

ج- معجم ألفاظ شعر الدّعوة إلى التّعلم:

إنّ الشّعر في هذه الحقبة الزّمنية - القرن الثّامن والتّاسع الهجريين - لم يخل من الدّعوة إلى العلم بل نظموا فيه مقاطع تدعو إلى التّعلم تارة و أخرى تؤسّس له في شتّى العلوم الأدبيّة والشّرعيّة. ومن أولئك الذين نظموا أبياتا أحمد بن ليون التّجيبي وابن الحاج النّميري و كان هذا في القرن الثّامن الهجري، وقد مرّت معنا هذه الأبيات في الفصل الأوّل من الباب الثّاني.

إذا تأمّلنا معجم هذه المقاطع أو مفرداتها نجد أكثرها تتكلّم عن العلم و فضل مجالسة العلماء و المدارسة، والتّعلم ومن تلك الألفاظ : (زاحم، أولو العلم، طريقة، جدّ، العلم قسمان، تدري، لا تدري، العلم بحر، الدّرس، رأس العلم، عزّة العلم، حفظه، كتب الآثار سلسلة عظمى، عجز، سؤالات، علمه في صدره، تحضر العلم، علمت، غابت عنك أشياء، حقّق، إحصاء، جواب، رأي، خطأ، الصّمت، حدّ، حويته، أحصيته، فقير إلى العلم، ضيّع الدّرس، رواية، ذووا الأحلام و الأدب، كتب الآثار، تروى..).

إذا تأمّلنا هذه المفردات فإنّها أكثر ما تدلّ على العلم و الحثّ عليه و السّؤال لأجل التّعلم، و الجلوس و ثني الرّكب عند أهله و عدم التّكاسل في تحصيله، فبتأملنا لهذه الألفاظ نجد أنّها كثيرة مقارنة بتلك المقاطع القليلة، نستشف من ذلك أنّ المفردات الدّالة على العلم وفيرة، ركّز فيها الشعراء تركيزا كبيرا على إبراز هذا الموضوع و لو بإشارات يفهم منها اللبيب معناها و مدلولها، إذ موضوع العلم أساس في بناء الحضارة ونموّها، فعالج الشّعراء هذا الموضوع من جوانب عديدة وتنوّع المعجم في هذه المقاطع فمن تلك المعاجم :

1- معجم ألفاظ طلب العلم:

إنّ المفردات التي تدلّ على هذا المعجم هي: (زاحم أولي العلم، لا يردك عجز، آخذا على طريقة، فاسأل تنل، و اطلب، إليه يقصد، احرص عليه، يرى هاذيا، فزت..) .

هذه المفردات كلّها تحثّ على طلب العلم و مزاحمة أهله و أخذه عنهم، ولا يتكبّر المتعلّم أو يستحي عن سؤالهم حتّى لا يصير هاذيا يهرف بما لا يعرف، ويفوز بالأجور

والحسنات التي تبقى للإنسان دخرا يوم القيامة، فالشّعراء أرادوا أن يبرزوا هذا الموضوع حتى يرغِّبوا طلبة العلم فيه، ويبصّروهم بالطّريق الصّحيح الذي يسلكونه في هذا الطّلب.

2- معجم ألفاظ حفظ العلم و ضبطه:

وممّا حرص الشّعراء على تبيينه للنّاس عموما و لطلبة العلم خصوصا،هو طريقة ضبط العلم و قد تبين ذلك من خلال المفردات الآتية : (حفظه، علمه في صدره، إحصاء حقّق، فقير إلى العلم، العلم ما أنت في الحمام تحضره) .

فهذا المعجم يدلّ دلالة واضحة و بيّنة على أنّ العلم لا بدّ من ضبطه و فهمه و حفظه حتّى يستقرّ في الصدر و يفهمه العقل و يبلغ إلى النّاس فيعمّ النّفع و الفائدة و يكثر الخير ويقلّ الشّر، و لهذا أشار الشّعراء في مقطّعاتهم بمفردات عديدة توصلنا إلى هذا الفهم وتدلّنا عليه.

3- معجم ألفاظ الرّحلة في طلب العلم:

إنّ العلم بحر لا شاطئ له، أهله متوافرون في كل فجّ، و لا بدّ لطالب العلم أن يرحل إليهم لينهل من علمهم حتّى يرفع عن نفسه الجهل و عن غيره . لهذا حثّ الشّعراء على الرّحلة إلى أهل العلم لتحصل هذه الغاية فقد وظّفوا في مقطوعاتهم ألفاظا تدلّ على ذلك منها:(رحلت، نحو دمشق الشّام، إليه يقصد..). و الشّعراء في هذه المقاطع نثروا هذه المفردات ليدلّوا القارئ و السّامع لها و المتأمّل فيها على أنّ طالب العلم لا بدّ له من الرّحلة إلى أهل العلم. فقد نرى أنّ الألفاظ قليلة لأنّ المقطوعات التي كتبت هي أقلّ مقارنة بالمقاطع التي قيلت في أغراض أخرى أو شعر المولديّات .

أمّا المصطلحات التي خصّت الشّعر التّعليمي في القرن التّاسع فأخذنا طرفا عن شعر القضاء و كانت المصطلحات كلها على القاضي و القضاة و شروطه و أركان القضاء و غير ذلك وهكذا يكون الشّعر التّعليمي يدور حول موضوعه المحدّد ولا يستطرد.

د- معجم ألفاظ شعر الأخلاق:

إنّ الأخلاق أمرها مهمّ في المجتمع و بين أفراده لهذا عمد الشّعراء إلى كتابة مقطّعات تحثّ على الأخلاق الفاضلة و تدعو إليها و تنهى عن الأخلاق الفاسدة، ارتأى الشّعراء هذا الأمر في هذين القرنين لما رأوا من انحرافات في المجتمع فحاولوا جاهدين إلى الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، و لهذا بدت بعض المصطلحات و المفردات الأخلاقية في شعرهم و غير الأخلاقية كذلك لنبّهوا منها و من ذلك :

1- معجم ألفاظ التّحذير من هوى النّفس و الشّح و العجب:

ومن المفردات التي ركّزت على التّحذير من الأخلاق الفاسدة : (ثلاث مهلكات هوى، بطالة، شحّ، عجب)، فهذه المفردات تدلّ على أنّ هذه الأخلاق كانت منتشرة في هذا العصر و الشّاعر ذكرها و ركّز عليها حتّى يبيّن خطرها و أنّها تهوي بالنّفس إلى أمور لا تحمد عقباها أو تجعل المجتمع متفكّكا و فاسدا إلى أبعد الحدود.

2- معجم ألفاظ التّحذير من اللّهو و اللّغو و من رفقة السّوء و احتقار الفقير:

زيادة على الأخلاق الفاسدة التي تكلّم عنها الشّاعر في بعض المقاطع التي مضت، عالج أمراضا و أوبئة في مقاطع أخرى ظهرت في المجتمع و كانت سببا في الفتك به و انهيار دولته فعبّر عنها بألفاظ أبانت هذه الأسقام، وهي :(اللّهو، منقصة، احذر، مزلّة، مؤثر، اللّغو نزّه عنه سمعك، لا تجنح له، لا خير في اللّغو، مؤاخاة الدّنيء، عار، يشين، التّضريرا يخبث يلوون عن وجه الفقير وجوههم، يولون الغني كرامة..).

هذه المفردات التي بيّناها هي معجم لمقاطع انقسمت إلى قسمين: قسم تبيّن مكمن الضّرر والمرض والخلق الفاسد، وقسم آخر تبين وتوضّح ما ينبغي للإنسان أن يفعله اتجاهها و هو التحذير منها والبعد عنها وغير ذلك.

فالقسم الأوّل أبان الأمراض والأسقام واستعمل الشّعراء مفردات تدلّ عليها و هي : (اللّهو، اللّغو، مؤاخاة الدّنيء، يلوون عن وجه الفقير، يولون الغني كرامة). فهذه الألفاظ أظهرت الأسقام و سوء الأخلاق التي كان عانى منها المجتمع في تلك الحقبة والتي كانت

منتشرة بقوّة حاول الشّعراء من خلال ما نظموه من مقاطع أن يبيّنوها فركّزوا على المصطلحات التي تبيّنها و تظهرها في صورة ينفر منها النّاس.

أما القسم الثّاني من هذه المفردات التي استعملها الشّعراء في مقاطعهم فهي تدلّ على التّحذير من هذه الأمراض و الأوبئة التي انتشرت في المجتمع حتّى يكون لهم نصيب من الإصلاح فيه، وهذه الألفاظ كالآتي:(منقصة، احذر، مزلّة، مؤثر، عار، يشين، التّضريرا يخبث)، وهي تحذّر أشدّ التّحذير من هذه الأخلاق الفاسدة التي انتشرت في مجتمعهم و غيره بل وصل بالشعراء الحال أنهم استعملوا كلمات يخبث، احذر، عار و غيرها و بهذه المقاطع يكون الشعراء قد أدّوا الذي عليهم نصحا و كانوا من المصلحين.

هـ- معجم شعر الوصف:

إنّ المغرب الإسلامي عرف حضارة عمرانية و مباني فاخرة و قصورا، و بعض الآلات التي كانت تستعمل كآلة النّفط و ناعورة السّقي، فوصف الشّعراء بعضها و أبرزوها في شعرهم، و من أولئك الشعراء يوسف الثّغري حيث وصف بعض المتنزهات المحيطة بقصور أبي حمّو و بروج باب الجياد، ونقل لسان الدّين بن الخطيب أبياتا كانت مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان، وكذلك أبو زكرياء بن هذيل الغرناطي يصف لنا آلة نفط تعمل في هدِّ بعض الجبال، أمّا أبو القاسم السّبتي الغرناطي فقد وصف ناعورة سقي وكان هذا كلّه في القرن الثّامن الهجري، أمّا القرن التّاسع كما أشرنا القول فيه سابقا أننا لم نعثر على وصف القصور والآلات التي كانت مستعملة أو وصف بعض المتنزهات المحيطة بتلك القصور، لما كان فيه من اضطرابات سياسية.. .

1- معجم ألفاظ وصف القصور و المتنزهات المحيطة بها:

إنّ الشّعراء في هذه الفترة الزّمنية من القرن الثّامن وصفوا بعض القصور والمتنزّهات المحيطة بها و لا شكّ أنّ المفردات والألفاظ الدّالة على ذلك واضحة و ظاهرة، وهي : (رياض منضّدات، الرّبى، الوهاد، بروج مشيّدات، باديات السّنا، رقّ فيها النّسيب

وصفا النّهر، و زها الزّهر، الغصون تثنّت، تغنّت، ورق شواد، أنبر كل جدول، حسام عاري الغمد، سندسيّ النّجاد).

2- معجم ألفاظ وصف مدرسة أبي تاشفين:

اعتنى الخليفة أبو تاشفين بالعلم والتّعلم فبنى مدرسة في وسط مدينة تلمسان إلاّ أنّ الشّعراء لم يصفوها بما تستحقّ الوصف به إلاّ نتفا بل مقطعا وجد مكتوبا على جدارها لا نعلم و لا يعلم من نقله إلينا ومن هو صاحبه، فيه بعض المفردات التي تدلّ على جمالها و ما يحيط بها، و من تلك المفردات:(بهجتي، سنائي، بديع إتقاني، حسن بنائي، بديع شكلي نشأتي، تدفق مائي، جسم لطيف، ذائب سيلانه، صاف، كذَوْبِ الفِضَّة، البيضاء، حفّ بي أزهار وشي، نمَّقَت، كمثل الرّوض، غب سماء).

إنّ الوصف الذي اتّضح من خلال هذه الألفاظ عام لا تفصيل فيه هو مجرد مدح في الغالب برزت فيه بعض الألفاظ التي تدلّ على ذلك وهي: (بهجتي، سنائي، بديع إتقاني حسن بنائي، بديع شكلي، نشأتي). هذه المفردات لا تصف لنا شيئا هي مجرد مدح خال من الوصف، إلا في البيتين الأخيرين كان الوصف خفيفا طفيفا استعملت فيه بعض الألفاظ التي تدلّ عليه وهي : (جسم لطيف، ذائب سيلانه، صاف، كذوْب الفضّة البيضاء، حفّ بي أزهار، وشي، نمّقت، كمثل الرّوض). بهذه الألفاظ اتّضح الوصف في الطّبيعة التي تحيط بهذه المدرسة فقط، ماؤها يسيل من حولها، صاف يشبه الفضّة في لمعانه، و حفت الأزهار بها فجمّلت المكان و زخرفته فصارت كمثل الرّوض.

هذا الوصف في الحقيقة لا يفي المكان حقّه من حيث الوصف وعلى كلّ حال ما لا يدرك كله لا يترك جله، و وصف قليل خلّد هذه المدرسة خير من العدم.

3- معجم ألفاظ وصف آلة نفط و ناعورة سقي:

إنّ الوصف في كلّ عصر يشمل أشياء كثيرة، و من المظاهر التي شملها الوصف في هذه الفترة الزّمنية من القرن الثّامن وصف آلة نفط وناعورة، بدت في ذلك الزّمن من العجائب؛ فآلة النّفط قد وصفها الشّاعر بألفاظ في الحقيقة تليق بمقامها مثل: (الرّعد، الصّعق

في السّما، محاق، عجائب، سما هرمس، مهندسة، تأتي الجبال فتنهدّ، يقوى). فالمفردات التي استعملها الشاعر تعبر عن هذه الآلة التي تحدث صوتا كالرّعد أو كالصّاعقة التي تنزل من السّماء لقوّة صوتها التي تحدثه عند هدّ الجبال، فهي من العجائب لا شكّ، و ذلك الزمن لم يكن فيه مثل هذه الآلات إلا نادرا، فالمعجم اللّفظي عبّر عن الحقيقة في هذه الآلة ووصفها بأوصاف الطّبيعة حتّى يقرّب صورتها إلى القارئ .

أمّا النّاعورة هي كذلك من الأشياء التي وصفت فكانت بمثابة صناعة جديدة في ذلك الزّمن و من الألفاظ التي عبر بها الشّاعر في وصفها: (ذات حنين، تستهل دموعها، سجاما يحدو، ركابها الحادي، تريم مكانها، لم تخل، من تأويب، سير، و إساد، أرصدتها في الرّوض، عدّة لدفع المحل، عنه بمرصاد، تخالف ماء المزن، رائح، غادي، ينجد، متهما قذفت). الشاعر في هذه الأبيات أو المقطع استعمل ألفاظا معبرة في وصف الناعورة فقال: ذات حنين؛ أي أنّها تنزل الماء بلطافة و تستهلّه و كأنّها دموع تنزل بلطف، لأنّ حركة دورانها بطيئة و تحنّ إليها النّفس و هكذا، ثم إذا نظرنا إلى المستوى البلاغي في هذه الألفاظ التي استعملها الشّاعر نجدها راقية لا نستطيع فهمها في الغالب إلا إذا استعنّا بمعجم لغوي يفسّر لنا و يوضّح معناها، و قد بيّنا ذلك المعجم و شرحناه في هامش الرسالة. والشّاعر اختار بلا شكّ هذه الألفاظ و انتقاها انتقاء دقيقا، فإذا قرأنا هذه الأبيات بشرحها فكأنها تصوّر لنا صورة هذه النّاعورة بحق فالمفردات كلّها تصبّ في وصفها و ما له علاقة بها فنجد مثلا: يحدو ركابها الحادي و هو يريد أن يصف حال الدّابة التي تدير هذه النّاعورة. و قوله أيضا: تخالف ماء المزن أي إذا انقطع ماء المطر و أصاب القوم القحط والجفاف، استعملت هذه الناعورة حتى تكون أداة سقي للمزروعات فتخرج الماء من البئر إلى السّواقي.

و- معجم شعر النّصح و الإرشاد:

النّصح و الإرشاد هو وسيلة حضاريّة يستعمله النّاصح لأجل إصلاح الفرد و المجتمع و ممّن قال هذا الشّعر في القرن التّاسع الهجري الشّاعر يوسف بن يوسف الأحمر، فقد

نصح خليليه و حثّهما على الصّبر و لا شكّ أنّه استعمل ألفاظا معبّرة، توحي بهذا الغرض منها : (خليلي، مهلا، الزّمان، كما تدري، من يسر، على أثر العسر، مهما دها صحو، لا بدّ من قطر، مهما دجا، خطب، من فجر) .

فالشاعر في هذا المقطع استعمل ألفاظا تدعو إلى التّمهل و التّريّث وعدم الاستعجال، منها : (مهلا، لا بد من قطر، لا بد من فجر)، فهذه الألفاظ تدعو إلى التّريث و الصّبر حتى يأتي النّور و النّهار ويطلع الفجر، و هي رموز استعملها الشّاعر ليعبّر عن الفرج و اليسر و مرور مرحلة العسر.

واستعمل ألفاظا أخرى تدل على العسر و الضّيق، منها: (على أثر العسر، دها صحو دجا خطب)، فالمفردات تدل على البأس و الضيق و إن لم يصبر عليها الإنسان فسيصاب بأساء و ضرّاء أخرى زيادة على ما كان فيه، و الله بشّرنا بهذا اليسر و بطلوع الفجر وبزوغ الشّمس لا محالة.

و بهذا نقول أن معجم ألفاظ الشعر الحضاري في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين كانا متنوّعين حافلين بمفردات تخدم المضمون، و ما كان يهدف إليه الشّعراء في نظمهم، أبرزوا الموضوع الأساس، الذي كان الهدف من هذه الأبيات، فكان معجم ألفاظ الموضوع الرئيس هو الذي طغى في كل المقاطع أو غالبها و كذا القصائد، ثم تبع ذلك مواضيع ثانوية خاصة في شعر المولديات مما زاد المعجم تنوّعا و اتّساعا و تخدم الموضوع الرئيس و لا شكّ أنّ العلاقة به وطيدة .

الفصل الثّاني: البنية الإيقاعيّة

1- الإيقاع الخارجي:

أ- الوزن

ب- القافية

ج- الرّوي

1- الإيقاع الخارجي :

إنّ الإيقاع يعد عنصرا أساسا بل وتدا في بناء الخطاب الشّعري، وهو "من أصعب الآليات المستحكمة في النّصّ الشّعري، لأنه يقوم على دعامة تواز بين المحورين الصّوتي والدّلالي"[1] إذ يعين على إيجاد نوع من التّنظيم و الانسجام، فقيمته الشّعرية الجماليّة تتّضح في مرجعه إلى هذه الصورة الموسيقيّة"[2] من هذا الأساس تكون الدّراسة هنا بحثا عن البنية الإيقاعية - الخارجيّة - للقصائد و المقطّعات المدروسة في الشّعر الحضاري المغربي خلال القرن الثّامن والتّاسع الهجريين.

أ- الوزن:

إنّ الإيقاع الشّعري يقوم على عنصرين أساسين هما الوزن و القافية، إذ المقوّم الأوّل له الصدارة فهو يعدّ الحجر الأساس بالنّسبة للقصيدة العربيّة، لأنّه يمتاز بالشّموليّة والاتّساع، و يرى ابن رشيق أن حدّ الشّعر "يقوم بعد البنية من أربعة أشياء وهي: اللّفظ والوزن والمعنى والقافية"[3].

فالوزن إذن ركن أساس في بناء القصيدة، حيث أنّه يرتبط بالإيقاع، و هو "وحدة النّغمة التي تتكرّر على نحو ما في الكلام أو في البيت، أي توالي الحركات و السّكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام، أو في أبيات القصيدة، أمّا الوزن فهو مجموع التّفعيلات التي يتألف منها البيت"[4]. وكما أسلفنا الذّكر أنّه: "أعظم أركان حدّ الشّعر وأولاها به خصوصيّة و هو مشتمل على القافيّة و جالب لها ضرورة"[5].

و لمعرفة أوزان قصائد الشّعر الحضاري في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين لا بدّ من الكشف عن البحور الشّعريّة التي استخدمها الشّعراء ونسجوا

1- حركيّة الإيقاع في الشعر المعاصر، حسين الغرفي، أفريقيا الشرق، المغرب، 2001، ص06.

2- الشّعر العربي المعاصر، عز الدّين إسماعيل، دار الكتاب العربي للطّباعة و النّشر، القاهرة، 1967، ص124.

3- العمدة، ج1، ص119.

4- النّقد الأدبي الحديث، مُحَمَّد غنيمي هلال، نهضة مصر للطّباعة و النّشر، مصر، 2004، ص453.

5- المصدر السّابق، ج1، ص134.

على منوالها قصائدهم، لأجل ذلك تمّ تقطيع الأشعار الواردة في المدوّنة لمعرفة أهمّ البحور التي استعملها الشّعراء في بناء قصائدهم، و كانت النّتيجة كالآتي : مولديّة الثغري في القرن الثّامن من بحر الطّويل، كذلك مولديّة ابن خلوف في القرن التّاسع كانت على نفس البحر.

و عموما إنّ قصائد المولديّات في هذين القرنين أكثر ما اعتمد الشّعراء فيها على بحور ثلاثة؛ الطّويل و الكامل و البسيط. "مع الإشارة إلى أن مجموع قصائد مولديّات "الثّغري التّلمساني" هو (18) قصيدة، منها (07) قصائد من بحر الطويل، و (07) من بحر الكامل وقصيدتان من بحر البسيط"[1].

أمّا ابن خلوف القسنطيني " فمجموع قصائده في المولديّات هو (31) قصيدة؛ منها (07) قصائد من البحر البسيط، (06) قصائد من البحر الطّويل، و (03) قصائد من الكامل. و باقي قصائد الدّيوان من البحر المتقارب و الخفيف و الوافر و السّريع و بنسب مختلفة"[2]، فالبحر الطّويل هو أكثر البحور استعمالا من قبل الشّعراء، "ليس بين بحور الشّعر ما يضارع البحر الطّويل في نسبة شيوعه فقد جاء ما يقرب من ثلث الشّعر من هذا الوزن"[3] ثم يتبعه في المرتبة الثّانية بحر البسيط و هو من البحور المركّبة أمّا البحر الكامل فيأتي في المرتبة الثّالثة من حيث استعماله، "وفي هذه الفترة فقد استأثر به ديوان الشّعر العربي بنصيب وافر، وكتب غالبيّة الشّعراء لما فيه من قدرة تقنيّة عالية تصلح لمختلف أغراض الشّعر، و يتميّز هذا البحر بالقدرة على ضبط المعاني والتّحكم فيها وبالتّالي نقلها في أبلغ صورها و أعظم دلالتها"[4].

أما المقطّعات التي وردت في المدوّنة و اختلفت عناوينها ما بين الحثّ على طلب العلم وحضور الدّرس والنّصح والإرشاد ووصف المباني و الشّعر التّعليمي وغيرها فقد اختلفت بحورها، فمقطعة أحمد بن ليون مثلا التي قال فيها[5] :

الدَّرْسُ رَأْسُ العِلْمِ فَاحْرِصْ عَلَيْهِ   فَكُـلُّ ذِي عِـــلْمٍ فَـــقِيرٌ إِلَـيْهِ

1- المدائح في العصر الزياني، ص126.

2- المرجع نفسه، ص126.

3- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، دار القلم للطّباعة، بيروت، لبنان، ط4، 1972، ص69.

4- المدائح في العصر الزياني، ص127.

5- نفح الطّيب، ج5، ص545.

مَـنْ ضَـيَّعَ الـدَّرْسَ يُـــرَى هَاذِيًا عِنْدَ اِعْتِبَـارِ النَّـاسِ مَا فِي يَدَيْهْ

فَـــعِـــزَّةُ الـــعَالِـمِ مِـنْ حِـفْظِـهِ كَـعِـزَّةِ المُـنْـفِـقِ فِـيـمَا عَـلَيْهْ

جاء بحرها من السّريع، والأخرى التي حثّ فيها على ترك العجب والهوى والشّحّ إذ قال فيها :[1]

ثَـلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ لاَ مَحَـــالَهْ هَوَى نَفْسٍ يَقُودُ إِلَى البَطَالَهْ

وَ شُحٌّ لاَ يَـــزَالُ يُـطَاعُ دَأْبًا وَ عُجْبٌ ظاهرٌ فِي كُلِّ حَالَهْ

بحرها من الوافر، أمّا ما نقل لسان الدّين بن الخطيب أبياتا كتبت على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان و التي جاء فيها :[2]

أُنْـظُـرْ بِعَيْنِكَ بَهْـجَتِي وَ سَنَـــائِي وَ بَدِيــعَ اِتْقَـانِي وَ حُسْـنَ بِنَـائِي

وَ بَدِيعَ شَكْـلِي وَ اِعْتَبِرْ فِيمَـا تَـرَى مِنْ نَشْـأَتِي بَـلْ مِنْ تَدَفُّــقِ مَـائِي

بحرها من الكامل، إلا أن بحر الشعر التّعليمي في قصيدة أبي بكر ابن العاصم كان رجزا، و التي قال فيها:[3]

الحَـمْدُ لِلَّهِ يَقْــضِي وَ لاَ يُقْضَى عَلَـيْهِ جَلَّ شَـأْنًا وَ عَلاَ

ثُمَّ الصَّـلاَةُ بِدَوَامِ الأَبَـــدِ عَلَى الرَّسُولِ المُصْطَفَى مُحَمَّدِ

ما يمكن قوله في الأخير هو أن استعمال البحور الشّعرية في شعر المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين كان متفاوت الاستعمال ومتعدّدا إذ أكثر ما استعمل من البحور الطّويل ثم تلاه البسيط ثم الكامل، هذا بنسب متفاوتة في

1- نفح الطيب ، ج5 ، ص545.

2 -المصدر نفسه ، ج6 ، ص47.

3- تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ، ج6 ، ص 628، 629.

شعر المولديّات ثم تنوّعت بحور أخرى خاصّة في المقطعات، فقد جاء فيها بحر السّريع والرّجز والوافر وكذلك الطويل والكامل.

ب- القافية:

كلمة القافية مأخوذة من قفا يقفو: تبع الأثر، و سميت بهذا الاسم لأن بعضها يتبع أثر بعض[1]، أما في الاصطلاح فقد حدد معناها الخليل بن أحمد بأنّها آخر حرف في البيت إلى أوّل ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل السّاكن، و القافية على هذا المذهب و هو الصحيح تكون مرّة بعض كلمة و مرة كلمة و مرة كلمتين"[2]، و سمّيت بهذا الاسم لأنّها تقفو إثر كل بيت.

و القافية استعمال ضروري لظاهر الوزن في الشّعر، و من حيث الاصطلاح تنقسم إلى قسمين مطلقة و مقيدة، و هذا متعلق بحرف الروي، مطلقة إذا كان متحرّكا، و مقيّدة إذا كان ساكنا، فالنّوع الأوّل شائع كثير الطّلب عند الشّعراء. أمّا الثّاني فنادر عندهم و عليه فإنّ الشّعر الحضاري في المغرب الإسلامي في هذه الفترة أكثر فيه الشعراء من استعمال القافية المطلقة، و من ذلك قول الثّغري التّلمسانيّ[3]:(الطّويل)

يُنَفِّــرُ شَيْــطَانُ الغِــوَايَةِ نُـورَهُ   إِذَا حَلَّ فِي فَوْدِي وَ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ

إِذَا اِبْيَضَّ فَــوْدِي زَادَ طَبْـعِي رِقَّـةً   كَمَا وَصَفُوا البِيضَ الرِّقَـاقَ مِنَ الهِــنْدِ

وَ لَكِنَّــــنِي أَبْــــكِي لِــزَلاَّتِي الَّتِي   تَجَاوَزْتُ فِيهَا مُنْتَهَى الحَـصْرِ وَ الحَـدِّ

الملاحظ أنّ القافية في قصيدة الثّغري جاءت مطلقة و متواترة، و التّواتر مجيء حرف متحرّك بين حرفين ساكنين (0/0)[4] و هذا كثير في الشّعر، و قد اختار الشّاعر حرف الدّال رويّا لقصيدته في مدح المصطفى ﷺ، اختار القافية المطلقة المتواترة التي كان لها

1- لسان العرب، ج3، ص141.

2- العمدة، ج1، ص151.

3- تاريخ بني زيان، ص198.

4- ينظر جامع الدروس العروضية، الدوكالي محمّد نصر، منشورات جامعة ناصر الخمس، 1997، ص157.

إيقاع متناغم عند سماعها، و هذا لا شكّ أنّه سيسهم إلى حدّ كبير في أداء المعنى المرجو الذي هدف إليه الشّاعر، و هي طلب مغفرة الله و رحمته الواسعة المطلقة.

أمّا ابن خلوف فقد استعمل في قصيدته الميميّة قافية مطلقة هو كذلك و لكن من نوع آخر، يطلق عليها لقب المتدارك و سميت بهذا الاسم لمجيء حرفين متحركين بين حرفين ساكنين[1] (0//0) حيث قال فيها[2]:(الطويل)

وَ تَغْرِيدُ قُمْرِيٍّ عَلَى عَطْفِ بَـانَةٍ طَرِبْتُ لِنَجْـوَاهُ فَغَنَّى وَ زَمْـزَمَا

وَ كَحَّلَ بِاليَاقُوتِ جَفْنًا وَ نَاظِرًا وَ خَضَّبَ بِالحِنَّاءِ كَفًّا وَ مِعْصَمَا

....

بَشِيرًا نَذِيرًا صَادِقَ القَوْلِ مُرْسَلاً حَبِيـبًا خَـلِيلاً هَـاشِمِيًّا مُقَـدَّمَا

قَـفِـيًّا فَـقِـيًّا أَبْطَحِـيًّا مُبَـجَّلاَ سِــرَاجاً مُـنِيرًا زَمْـزَمِـيًّا مُكَـرَّمَا

استعمل الشّاعر القافية المطلقة من نوع المتدارك لينقل للمتلقي الصورة التي أحدثها قدوم النّبي صلى الله عليه و سلّم بشيرا و نذيرا صادق القول، فتدارك هذه الأمة و العالمين برسالته لينقذهم من ظلمات الشّرك إلى نور التّوحيد، فالقافية المطلقة أسهمت إلى حدّ بعيد في أداء المعنى.

ومن أمثلة القافية المطلقة أيضا ما ورد من أبيات لأحمد بن ليون يقول فيها[3]:(بسيط تامّ)

عَلِمْتَ شَيْئًا وَ غَابَتْ عَنْكَ أَشْـيَاءُ فَأُنْظُـرْ وَ حَـقِّقْ فَـمَا لِلْعِلْمِ إِحْصَاءُ

لِلْعِلْمِ قِسْمَانِ: مَا تَدْرِي وَ قَوْلُكَ لاَ أَدْرِي، وَ مَنْ يَدَّعِي الإِحْصَاءَ هَذَّاءُ

1- جامع الدروس العروضية ، ص 156.

2- الدّيوان، ص159.

3- نفح الطّيب، ج5، ص544.

فالشّاعر اختار لهذه المقطّعة قافية مطلقة متواترة (0/0) حتى يؤدي المعنى المراد و المقصود إذ العلم مطلق و بحر لا شاطىء له، و هذا يتناسب مع المقام.

فجلّ المقطعات التي وردت في مظاهر الشّعر الحضاري في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين كانت قافيتها مطلقة متواترة إلا بعض الأبيات التي جاءت فيها مقيدة مترادفة (/00) منها ما قاله ابن ليون و هو يحثّ طالب العلم على سؤال العلماء[1]:(السّريع)

شِفَاءُ دَاءِ العِيِّ حُسْنُ السُّؤَالْ فَاسْأَلْ تَنَلْ عِلْمًا وَ قُلْ لاَ تُبَالْ

وَ اُطْلُبْ فَالاِسْتِحْيَاءُ وَ الكِبْرُ مِنْ مَوانِعِ العِلْمِ فَمَا إِنْ يُنَالْ

الشّاعر في هذه الأبيات اختار القافية المقيّدة المترادفة و"التي ليس بين ساكنيها أيّ متحرّك فالتقى فيها السّاكنان"[2] وكونه استعمل القافية المقيّدة لأنّ تعلّم العلم مفيد ومقيّد بسؤال العلماء و الجلوس عندهم و هذه إشارة أبدع الشّاعر في توظيفها.

و قوله أيضا[3]:(وافر تامّ)

ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ لاَ مَحَالَهْ هَوَى نَفْسٍ يَقُودُ إِلَى البِطَالَهْ

وَ شُحٌّ لاَ يَزَالُ يُطَاعُ دَأْبًا وَ عُجْبٌ ظَاهِرٌ فِي كُلِّ حَالَهْ

في هذين البيتين الشّاعر استعمل القافية المقيدة المتواترة (0/0) حتى يوصل فكرة هي أنّ هذه الثّلاث هوى النّفس والشّح والعجب مهلكات، فمن وقع في إحدى هذه الثلاث قيدته إلى سوء الأخلاق و أفسدته، ولا شكّ أنّ المعاصي تقيّد صاحبها كما قال الحسن البصري وتبعده عن الطّاعة، فنوع القافية لها دلالة معنويّة وأبعاد فكريّة.

1- نفح الطّيب، ج5، ص544.
2- جامع الدّروس العروضيّة، ص157.
3- المصدر السّابق، ج5، ص545.

و من خلال ما سبق نخلص القول إلى أنّ القافية المطلقة هي أكثر الأنواع استخداما عند شعراء المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين، لما لها من دور في تحديد المعنى و نقله بصورة واضحة للمتلقّي، مع الاستعانة من حين لآخر بالقافية المقيّدة و يبقى للقافية عموما دور مهمّ و مميّز في إيضاح المعنى و إضفاء نغم موسيقي على القصيدة فالصّوت الذي تحدثه القافية "هو صوت يتجاوب مع إيقاع القصيدة و إيقاع النّفس فهو صوت يتلاحم مع المعنى و يتعاضد معه"[1].

ج- الرّويّ :

الرّويّ هو الحرف الذي يكون أبرز الحروف في القافية و هو الذي يلزم تكراره في كل بيت، و تنسب إليه القصيدة فيقال ميمية أو بائية أو دالية.. "[2].

و الملاحظ أنّ شعر المظاهر الحضاريّة في القرن الثّامن والتّاسع الهجريين قد جاء متنوّعا من حيث استخدام شعرائه لحرف الرّوي إذ أنّ هناك تفاوتا في نسبة استخدامهم للحروف، حيث يفضّلون حروفا دون الأخرى، و أبرز الحروف التي اعتمدوها هي كالآتي: الميم، الراء، الباء، الدال... فحروف هذه المجموعة هي الأكثر استخداما خاصّة في شعر المولديّات، إذ قصائدها كانت كثيرة في هذه الفترة، فقد بلغت الميميات 17 قصيدة و الرائيات 08 قصائد، و اللاّميّات 07 قصائد، أما البائيّات و الدّاليات فقد بلغت 06 قصائد أمّا الحروف الأخرى فيستخدمها الشعراء لكن بنسبة أقل.[3]

و الجدير بالذّكر أنّ الحروف التي استخدمها الشّعراء بكثرة رويّا في هذه الفترة هي حروف مجهورة و هي عبارة عن وحدات صوتيّة يوفّر انتشارها في النّص الشّعري ظلالا من المعاني تتّصف بالتّفخيم لأنّ الأصوات المجهورة تثير انتباه السّامع ، أمّا الحروف التي قلّ استعمالها فهي حروف مهموسة لم تنل حظّا وفيرا من قبل الشّعراء و من الحروف المجهورة

1- قراءة في النّص الشّعري الجاهلي، موسى ربابعة، مؤسّسة حمادة، دار الكندي، الأردن، 1998، ص30.

2- البناء العروضي للقصيدة العربية، مُحَمّد حماسة عبداللّطيف، دار الشّروق، بيروت، 1420هـ/1999م، ص186.

3- المدائح في العصر الزّياني ، ص 134،133. -

التي سنقدّم لها أنموذجا شعريّا حرف الميم، أو ميميّة لمولديّة ابن خلوف القسنطيني حيث قال فيها[1]: (الطّويل)

وَ أَرْسَـــلَهُ بِالحَقِّ لِلْحَقِّ دَاعِيًا فَزَلْـزَلَ أَرْكَانَ الضَّـلَالِ وَ هَدَّمَا

وَ أَظْهَرَ آيَاتِ الكِتَابِ شَوَاهِدًا عَلَى مَا اِدَّعَاهُ حِين أَبْدَى المُكَتَّمَا

إِلَيْهِ قَطَعْتُ البِيدَ وَ البِيدُ جَمْرَةٌ يُلَظِّي الهَوَادِي رَمْلُهَا الـمُتَضَرِّمَا

يَمُـوجُ عَلَـيْهَا الآلُ حَتَّى كَـأَنَّهَا بِهِ نَافِضٌ إِذْ مَسَّهُ الذُّعْرُ فَارْتَمَى

و من الحروف المستعملة كثيرا في شعر المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة حرف الدّال أو داليّة الثّغري التّلمساني إذ قال فيها[2] :(الطّويل)

نَـبِيٌّ تَـسَمَّى أَحْمَـدًا وَ مُحَمَّـدًا وَ أَطْنَبَ فِيهِ الـوَحْيُ بِالـمَـدْحِ وَ الحَمْدِ

نَبِيٌّ جَمِـــيعُ الرُّسْلِ تَحْتَ لِوَائِهِ وَ قَـدْ خُصَّ فَضْلاً دُونَهُمْ بِلِـوَا الحَمْدِ

كَمَا خُصَّ بِالسَّبْعِ المَثَانِي كَـرَامَةً مِنَ اللَّهِ وَ هِيَ السَّبْعُ مِنْ سُـورَةِ الحَمْدِ

لَهُ مُعْجِـزَاتٌ مَـاثَلَتْ كُلَّ مَا أَتَى بِهِ الرُّسْــلُ مِنْ آيٍ وَ أَرْبَتْ عَلَى العَدِّ

وَ أَعْظَمُهَا القُرْآنُ يَهْدِي لَنَا الهُدَى فَيَا حُسْنَ مَا يَهْدِي وَ يَا فَوْزَ مَنْ يَهْدِي

أمّا عن اللاّمية التي وردت في شعر هذه الفترة فكانت مولديات و كذا مقطّعات منها ما قاله أحمد بن ليون[3] :(السّريع)

شِـــفَاءُ دَاءِ العِيِّ حُسْنُ السُّؤَالِ فَاسْأَلْ تَنَلْ عِلْمًا وَ قُلْ لاَ تُبَالْ

وَ اُطْلُبْ فَالاِسْتِحْيَاءُ وَ الكِبْرُ مِنْ مَـــوَانِعِ العِلْمِ فَـمَا إِنْ يُـــنَالْ

فاللاّم حرف جهوري بين الرّخاوة والشّدة يتميز بالقوة و هو قويّ الوقع على السّمع.

1- الدّيوان، ص167، 168.

2- تاريخ بني زيان، ص198، 199.

3- نفح الطّيب، ج5، ص544.

و للرّائية حظّ وفير في الشّعر المغربي الحضاري و من ذلك ما قاله أحمد بن ليون يحذر من مصاحبة الدّنيء[1]:(كامل تامّ)

إِحْذَرْ مُؤَاخَـاةَ الدَّنِيءِ فَإِنَّـهَا   عَارٌ يَشِـينُ وَ يُورِثُ التَّضْرِيرَا

فَالـمَاءُ يَخْبُثُ طَعْمُهُ لِنَجَاسَةٍ   إِنْ خَالَطَتْهُ وَ يُسْلَبُ التَّطْهِيرَا

هذين البيتين من مقطعة ابن ليون و هي رائية وهو حرف جهوري قوي مفخّم إذا انفتح ولا شكّ أن هذا يوحي بدلالة معنوية وهي التّحذير من صحبة الأشرار.

وإذا ما رجعنا و تكلمنا عن الحروف المهموسة التي لا تستعمل إلا قليلا في الرّوي فنجد أن حرف الهاء الأكثر استعمالا بعد الحروف المجهورة، فقد ورد في ثلاث قصائد عند الثّغري وهي مولديّات أمّا ابن خلوف فلم يستعمله إلا في قصيدة واحدة[2]وسنورد نموذجا منه في مقطعة قالها أحمد بن ليون يحث فيها طالب العلم على حضور الدّرس:[3] (السّريع)

الدَّرْسُ رَأْسُ العِلْمِ فَاحْـرِصْ عَلَـيْهِ   فَكُـلُّ ذِي عِـلْمٍ فَـقِيرٌ إِلَـيْهِ

مَـنْ ضَـيَّعَ الـدَّرْسَ يُـرَى هَـاذِيًا   عِنْدَ اِعْتِبَـارِ النَّـاسِ مَـا فِي يَدَيْهِ

فَـعِـزَّةُ الـعَالِمِ مِـنْ حِـفْظِـهِ   كَـعِـزَّةِ المُـنْـفِـقِ فِـيـمَا عَـلَيْهِ

و كما أسلفنا الذّكر أنّ الهاء حرف مهموس، مرهف رقيق و كأنّ الشّاعر يشفق على طالب العلم إذا لم يحضر الدّرس حتى لا يضيّع أجر ذلك المجلس و فضله و فائدته، خاصّة في بداية الطّلب فإذا ما ذاق طالب العلم طعمه حرص عليه كما يحرص على غذائه ولا يضيّعه أبدا. أمّا المقطّعات التي بقيت و لم نمثل لها في هذا الفصل فهي إمّا واويّة أو داليّة تدخل تحت النّماذج التي مثّلنا لها.

1- نفح الطّيب، ج5، ص545.

2- المدائح في العصر الزّياني، ص136.

3- المصدر السّابق، ج5 ، ص545.

و خلاصة القول أن الحروف المجهورة هي التي أخذت الحظّ الأوفر من شعر المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين، و ذلك لما تمتاز به من قوّة و شدّة على السّمع فهي إذن تؤثّر في نفسيّة المتلقّي و تثير انتباهه "فأربعة أخماس الكلام في اللّغة العربيّة يتكوّن من حروف مجهورة"[1].

و نختم القول في هذا الباب و نقول أن الوزن و القافية و الرّوي هي عناصر مهمّة في البنية الإيقاعيّة للشّعر، و زيادة على هذا فإنّ عنصر التّوازنات الصّوتية لا تقلّ أهميّة عن ما تكلمنا عنه و سيأتي في هذا الباب لاحقا.

1- خصائص الخطاب الشّعري في ديوان أبي فراس الحمداني، ص99.

الفصل الثّالث: التّوازنات الصّوتيّة

أوّلا: الإيقاع الدّاخلي

1-التّجنيس

2-التّصريع

3-التّصدير

4-التّكرار

5-الطّباق

ثانيا: الصّور الشّعريّة

1-الصّور البلاغيّـة

2-الصّور الحسّيّـة

أوّلا- الإيقاع الدّاخلي :

إنّ الموازنة الصوتيّة لا تعدو أن تكون التّعادل و التّقابل بين الأنساق الزّمنية القائمة على الكمّ المشخّص المتجلي في الأنساق التّرصيعيّة القائمة على التّقابل بين أنواع الحركات والمدّ، و تشمل أيضا أنواع التّجنيس الذي يقوم هو الآخر على توازن طرفين لغويين في صوامتهما و وقوعهما في مواقع متقاربة تحقق المقابلة [1]، وهذا ما يعرف بالإيقاع الدّاخلي.

1- التّجنيس :

الجناس من فنون البديع اللّفظية وقد اهتمّ علماء البلاغة بهذه الظاهرة الفنيّة لوجودها كثيرا في الشّعر العربي قديمه و حديثه، وهذا يدلّ على أنّ الشّعراء هم كذلك اهتموا به ووظّفوه في أشعارهم ممّا يوحي بأنّ" كثرة الشّواهد الشّعرية دليل على حبّ العرب لهذا النّوع من الموسيقى الكلاميّة"[2] .

وإذا تأمّلنا في أنواع الجناس التي وظّفت في شعر المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين نجد فيه الجنّاس التّام والمصحّف والجناس اللاّحق والمقلوب و غيرها من أنواع الجناس.

أ- الجناس التّام أو المماثلة : "و هي أن تكون اللّفظة واحدة باختلاف المعنى"[3]؛ ومن ذلك ما قاله ابن خلوف في مولديّته [4]:(الطّويل)

خَلِيلَيَّ هَلْ صَافَحْتُمَا رَاحَـةَ الهَوَى   بِرَاحَـةِ مُغْرًى بِالصَّبَابَةِ مُغْــرَمَا

الملاحظ هو الاتفاق في اللفظ و تشابهه واختلاف في المعنى بين حروف كلمتي "راحة" في موضعين، الأولى: تعني راحة اليد وقد استعار لها الشاعر كلمة الهوى، أمّا

1- الموازنات الصوتيّة في الرّؤية البلاغيّة و الممارسة الشعرية نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، مُحَمَّد العمري أفريقيا الشرق، المغرب ، 2001، ص18/ 19.

2- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، ص202.

3- العمدة، ج1، ص321.

4- الديوان، ص 159.

الثّانية: فمعناها الرّاحة التي يستريح بها الإنسان و أضاف لها كلمة مغري و هو الشيء الذي يغري، فالشّيء الذي يغري المرء و يقتنيه لا بدّ أن يريحه، و قد أضفت هذه الصّورة توضيحا للمعنى و تجسيده، كما زادت البيت الشّعري نغما موسيقيّا.

ب- التّجنيس المصحّف : هو اختلاف الكلمتين من حيث النّقط[1]، ومن النّماذج الشّعرية التي تدلّ عليه قول مُحَّد بن يوسف الثّغري في مولديّته[2]:(الطّويل)

هُوَ الوَحْيُ أَجْلَى مِنْ سَنَا الشَّمْسِ فِي الضُّحَى   سَنَـــاهُ وَ أَحْلَى حِينَ يُتْلَى مِنَ الشَّهْدِ

و للمتأمّل في هذا البيت يظهر له الجناس المصحّف بين كلمتي: (أجلى/ أحلى) فشكلهما متشابه و لكن الاختلاف واضح في النّقط مما أدّى إلى اختلاف في المعنى فالكلمة الأولى: أجلى يعني أظهر، و الثّانية أحلى تعني شدّة الحلاوة، إذ زيادة المبنى تؤدي حتما إلى زيادة المعنى.

ج- التّجنيس المحرّف : "هو ما اتّفق فيه اللّفظان في عدد الحروف و ترتيبها و اختلفا في الحركات فقط"[3]، ومن هذا النّوع من التّجنيس قول الثّغري التّلمساني[4]:(الطّويل)

وَ أَعْظَمُهَا القُرْآنُ يُهْدِي لَنَا الهُدَى   فَيَا حُسْنَ مَا يَهْدِي وَ يَا فَوْزَ مَنْ يَهْدِي

حيث يظهر الجناس المحرف بين كلمة (يُهْدِي) التي تعني الهديّة، و الثّانية (يَهْدِي) من الهداية، فاختلاف الحركات أدى إلى اختلاف المعنى إذ المشاكلة في الحروف موجودة، ممّا أضفى نغما موسيقيّا مميزا على البيت الشّعري. و من هذا النّوع أيضا نذكر قول الثّغري[5] :

وَ دُونَكَ رَوْضًا مِنْ ثَنَائِكَ عَاطِرًا   فَمَا لِثَنَاكَ العَاطِرِ النَّدِّ مِنْ نِدِّ   (الطّويل)

1- ينظر علوم البلاغة، أحمد مصطفى المراغي، مطبعة مُحَّد مُحَّد بالعتبة الخضراء، مصر، 1335ه/1917م ص353.
2- تاريخ بني زيان، ص199.
3- مدخل إلى البلاغة العربيّة، يوسف مسلم أبو العدوس، دار المسيرة للنّشر و التّوزيع، 1427ه/2007م ص278.
4- المصدر السّابق، ص199.
5- تاريخ بني زيان، ص202 .

فما نلاحظه أن هناك تشابها من حيث الشّكل بين كلمتي "نَدّ" إذ الاختلاف في الحركات ظاهر، فالأولى بفتح النّون و معناها الرّائحة الطّيّبة، و الثّانية بكسر النّون وتعني المثيل و النّظير، و المعنى العام أنّ أثر كلامه ﷺ طيّب لا نظير له و لا مثيل.

د- التّجنيس المقلوب: هو اختلاف في ترتيب الحروف و يكون بقلب البعض أو الكلّ[1]، و من ذلك قول ابن خلوف القسنطيني[2] :(الطّويل)

قَفِـيًّا فَقِـيًّا أَبْطَـحِـيًّا مُبَجَّـلاً   سِـرَاجًا مُـنِيرًا زَمْزَمِـيًّا مُكَـرَّمَا

فالكلمة الأولى قفيّا تشاكل تماما فقيّا، لكن تختلفان في النّقط فالحرف الأوّل من الكلمة الأولى هو القاف والثّاني هو الفاء و في الكلمة الثّانية عكس ذلك، ولا شكّ أنّ هذا له وقعه في السّماع وأثره في الدّلالة و المعنى .

هـ- الجناس اللاّحق: "و هو ما اختلف فيه اللّفظان المتشابهان في نوع حرف واحد منهما غير متقاربين في النّطق، في الأوّل أو الوسط أو الآخر"[3]، ومن ذلك ما قاله ابن خلوف القسنطيني:(الطّويل)

رَأَى البَرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا   وَ صَـافَحَ أَزْهَـارَ الرُّبَا فَتَنَسَّـمَا[4]

ما نلاحظه هو كلمة تبسّما تشاكل كلمة تنسّما، لكن الاختلاف في حرف واحد هو الحرف الثّاني من الكلمتين : الأولى جاء فيها حرف الباء والثّانية حرف النّون، وهذا ما أدّى إلى اختلاف في المعنى والدّلالة، تبسّم من التّبسّم و تنسّم من التّنسّم أي التّنفّس و فرق بين التّبسّم و التّنسّم .

1- ينظر علوم البلاغة (البديع و البيان و المعاني)، مُحَمَّد أحمد قاسم/ محي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان، 2003، ص117.

2- الدّيوان، 160.

3- البلاغة العربيّة أسّسها و علومها و فنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الدّار الشّامية بيروت ، 1416هـ/1996م، ج2، ص495 .

4- المصدر السّابق، ص158.

و- الجناس المضارع : "و هو ما اختلف فيه اللّفظان المتشابهان في نوع حرف منهما مع تقاربهما في النّطق في الأوّل أو الوسط أو الآخر."[1] ومن ذلك قول ابن خلوف: (الطّويل)

جَوَادٌ كَرِيمٌ غَافِرُ الذَّنْبِ سَاتِرٌ   حَلِيمٌ عَلِيمٌ مَالِكُ الأَرْضِ وَ السَّمَا[2]

الملاحظ أنّ "حليم" و "عليم" تشاكلا في البنية و اختلفا في الحرف الأوّل و بالتّالي افترقا في المعنى و الدّلالة، و إن كان الحرف الأوّل من مخرج واحد هو الحلق.

ز- الجناس المزدوج: و يسمّى أيضا المكرّر والمردّد، "و هو أن يلي أحد المتجانسين الآخر"[3] ومنه قول ابن خلوف :(الطّويل)

نَبِيٌّ بِهِ مُوسَى اِرْتَقَى مُرْتَقًى سَمَا   وَ خَصَّصَهُ المَوْلَى وَ عَزَّ وَ كَرَّمَا[4]

حيث الجناس المزدوج أو المكرّر في كلمتي "ارتقى" و "مرتقى" فالأولى تعني العلوّ و الثّانية تعني المكان الذي ارتقى فيه .

2- التّصريع:

التّصريع عنصر جوهري يساعد في نسج النّظام العام للقصيدة و قد عرّفه ابن رشيق بقوله : "هو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، و تزيد بزيادته"[5]. و هو ظاهر بلاغية صوتيّة تضفي نغما موسيقيّا، ذلك أنّ التّصريع في البيت الأوّل هو أوّل ما يقرع السّمع. فشعراء القرن الثّامن و التّاسع الهجريين وظّفوا التّصريع في قصائدهم بغية تجميل و تحسين أشعارهم و منهم مُحَمَّد بن يوسف الثّغري في قصيدته المولديّة[6] :(الطّويل)

فَرِفْقًا بِصَبٍّ فِي يَدِ الشَّوْقِ مُفْرَدٍ   بِأَشْجَانِهِ يَا سَاكِنِي العَلَمِ الفَرْدِ

1- البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ج2، ص494.

2- الديوان، ص168.

3- المرجع السّابق، ج2، ص496 .

4- المصدر السّابق، ص162.

5- العمدة، ج1، ص173.

6- تاريخ بني زيان، ص196.

تمثّل التّصريع في هذا البيت في عروضه عند قوله "مفرد" التابع لضربه "الفرد" مما أحدث تناغما موسيقيا بين صدر البيت و عجزه.

و قوله أيضا[1]:(الطّويل)

وَ مَـوْلِدُهُ لِلْخَلْقِ أَسْعَـدُ مَـوْلِدٍ   فَهُمْ مِنْهُ فِي ظِلٍّ مِنَ الأَمْنِ مُمْتَدِّ

التّصريع هنا بين كلمة "مولد" و كلمة "ممتدّ" و الذي أضفى جرسا موسيقيّا عذبا.

و قول أيضا في آخر قصيدته[2]:(الطّويل)

لِيَهْنِكَ مَا جَدَّدْتَ مِنْ عَهْدِ مَـوْلِدٍ   وَ سَـابِعِهِ أَكْـرِمْ بِـذَلِكَ مِـنْ عَهْدٍ

بدا التّصريع في هذا البيت بين كلمة "مولد" و "عهد" و بهذا يحدث إيقاعا صوتيا متميزا أو استثارة العواطف و استحضار الهواجس الشّعرية و يزيد من السّلاسة التّعبيريّة .

ومن التّصريع أيضا ما قاله يوسف الأحمر في شعر النّصح والإرشاد وهو شعر حضاري يدعو فيه إلى الصّبر، فقال[3]:(الطّويل)

فَمَهْمَا دَهَا صَحْوٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ قَطْرٍ   وَ مَهْمَا دَجَا خَطْبٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ فَجْرِ

و التّصريع واضح بين كلمتي "قطر" و "فجر".

و أما الشّعر التّعليمي فلأبي بكر بن عاصم قصيدة نظم فيها نكتا عن العقود و الأحكام فابتدأت بالتّصريع وتوسّطت به اختتمت به كذلك فقال[4]:(رجز مشطور)

الحَمْـــدُ لِلَّهِ الذي يَقْــضِي وَلاَ   يُقْضَى عَلَيْهِ جَلَّ شَأْنًا وَ عَـلاَ

....

1- تاريخ بني زيان، ص199.

2- المصدر نفسه، ص201.

3- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج6، ص622.

4- المرجع نفسه، ج6، ص628/629.

سُمِّيَتْ بِتُحْفَةِ الحُكَّامِ فِي نُكَتِ العُقُودِ وَ الأَحْكَامِ

فالتّصريع في آخر كل شطر من هذه الأبيات جلي، في الأوّل ينتهي باللاّم و في الثّاني بالميم و هكذا كان هذا في القرن التّاسع.

3- التّصدير:

"هو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره فيدلّ بعضه على بعض و يسهل استخراج قوافي الشّعر إذا كان كذلك و تقتضيها الصّنعة، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبّهة و يكسوه رونقا و ديباجة و يزيده مائية و طلاوة"[1].

إذن التّصدير نوع من التّكرار الصّوتي يلزم الكلمة الثّانية و المكرّرة موضعا وموقعا محدّدا هو "الضرب"؛ و هذا النّوع من ألوان البديع شائع بشكل واضح في قصائد القرن الثّامن و التّاسع الهجريين خاصّة المولديّات في المغرب الإسلامي، و رجع هذا إلى أهميته كأداة فاعلة في الجانب الفنّي و الجمالي و ذلك باعتباره محسّنا لفظيّا. و يتجلّى هذا النّوع في البيت الذي نظمه محمّد بن يوسف الثّغري[2] :(الطّويل)

وَ لَمْ أَبْكِ أَطْلاَلاً **لِهِنْدٍ** مَوَائِلاَ بِذِي الأَثْلِ لَكِنِّي بَكَيْتُ عَلَى **هِنْدِ**

و قوله أيضا[3]:(الطّويل)

وَ أَعْظَمُهَا القُرْآنُ يَهْدِي لَنَا الهُدَى فَيَا حُسْنَ مَا يَهْدِي وَ يَا فَوْزَ مَنْ **يَهْدِي**

و هناك نوع آخر من التّصدير و هو الذي يكون فيه تحديد الموقع متعلقا بالطّرف الثّاني من التّصدير، أمّا الأوّل فله أن يشغل أيّ حيّز في أيّ موقع آخر داخل فضاء البيت الشّعري و من الأمثلة على ذلك قول الثّغري[4]:(الطّويل)

لَهُ **السَّعْدُ وَ السَّعْيُ** الجَمِيلُ مُلاَزِمٌ وَ نَاهِيكَ مِنْ **سَعْيٍ** جَمِيلٍ وَ مِنْ **سَعْدِ**

2- العمدة، ج2، ص03.

3- تاريخ بني زيان، ص196.

4- المصدر نفسه، ص199.

1- المصدر نفسه، ص200.

و قوله أيضا[1]:

جَوَاهِرُ **عِقْدٍ** مِنْ نَسِيبٍ وَ **مَدْحِهِ** وَ **مَدْحُ** رَسُـولِ اللَّهِ وَاسِطَةَ **العِقْدِ**

و بقي نوع آخر من التّصدير و هو الذي يكون فيه التّوافق بين أوّل كلمة من البيت و آخرها، و منها قول ابن خلوف[2]:(الطّويل)

وَ **أُعْجِمُ** بِالتَّغْـرِيدِ أَحْرُفَ نَقْطِهِ وَ أُعْرِبُ بِالتَّلْحِـينِ مَا كَانَ **أُعْجِمَا**

و قوله أيضا[3]:(الطّويل)

وَ **يَمَّمْتُ** تُـرْبَ الدَّارِ أَلْـثُمُ تُرْبَهَا وَ مَـنْ لَمْ يَجِـدْ إِلاَّ الـتُّرَابَ **تَيَمَّمَا**

من خلال ما مضى يتّضح لنا أنّ التّصدير يختلف من نوع لآخر و ذلك باختلاف توزيع ركنيه و هذا يؤدّي إلى تحقيق تناسب إيقاعي في القصيدة كما له أثره الجمالي وتأثيره في نفس الـمتلقّي

4- التّكرار:

و التّكرار "هو إعادة اللّفظ الواحد بالعدد أو النّوع في القول مرّتين فصاعدا و هو اسم محمول يشابه به شيء شيئا في جوهره المشترك لهما"[4].

و هو لا يقوم فقط على مجرّد تكرار اللّفظة في السّياق و إنّما لأثره من انفعال في نفس المتلقّي و هذا يعكس جانبا من الموقف النّفسي و الانفعالي، و هو يمثّل إحدى الأدوات الجماليّة التي تساعد على فهم المشهد أو الصّورة أو الموقف و توجيه ذهنه نحو الصّورة المستحضرة، كما يترتّب عنه قيمة صوتيّة إلى جانب الفائدة المعنويّة، و يكون مفتاحا لولوج عالم النّصّ الدّاخلي.

1- تاريخ بني زيان، ص203.

2- ، الدّيوان، ص159.

3- المصدر نفسه، ص159.

4- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبي مُحَمَّد القاسم الأنصاري السّجلماسي، تقديم و تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، المغرب،1401هـ/1980م، ص476.

و قد أبان شعراء القرن الثّامن والتّاسع الهجريين في المغرب الإسلامي أهميّته وما يضفيه من نغم موسيقي و تأكيد للمعنى و توضيحه، فوظّفوه في قصائدهم و بشكل واضح ومن ذلك ما قاله الثّغري في مولديّته[1]:(الطّويل)

يُكَلِّفُ عَـرَّافَ اليَـمَامَةِ بُـرْءَهُ   وَ يَعْـلَمُ أَنَّ الـبُرْءَ فِي عَلَمَيْ نَجْـدِ

الملاحظ أنّ الشّاعر كرّر لفظ "برء" لتأكيد المعنى و لخلق تناسب صوتي و إيقاع موسيقي.

و يتحقق التّكرار عبر عدّة أنواع : تكرار حروف بعينها في الكلام، و تكرار اللّفظة و تكرار الجملة أو العبارة.

أ- تكرار الحرف:

أمّا تكرار الحروف فما ورد في مولديّة الثّغري أيضا:[2] (الطّويل)

....

لَقَدْ اِنْشَقَّ بَدْرُ التَّمِّ عِنْدَ كَمَالِهِ   فَشَـاهَـدَهُ مَنْ كَانَ بِالقُـرْبِ وَ البُعْـدِ

لَهُ حَنَّ جِذْعُ النَّخْلِ عِنْدَ فِرَاقِهِ   حَنِيـنًا شَـكَى مِـنْ شَـوْقِهِ أَلَمَ الفَـقْـدِ

فَـاضَ نَمِـيرُ الـمَاءِ بَـيْنَ بَنَـانِهِ   إِلَى أَنْ تَرَوَّى الجَيْشُ مِنْ ذَلِكَ الوِرْدِ

وَ آيَـاتُهُ قَبْلَ الـوِلاَدِ وَ بَعْـدَهُ   لِكَـثْرَتِهَا لَـمْ تُحْصَ فِي القَـبْلِ وَ البَعْـدِ

وَ مَوْلِدُهُ لِلْخَـلْقِ أَسْعَدُ مَـوْلِدٍ   فَـهُـمْ مِـنْهُ فِي ظِـلِّ الأَمْـــنِ مُمْـتَـدِّ

1-تاريخ بني زيان، ص197.

2- المصدر نفسه ، ص 199.

يزيد تكرار حرف الهاء الشّديد المجهور المنفتح في هذه القصيدة من قيمة التّركيب الصّوتي ويتحقّق ذلك من خلال جرس الحروف (كماله،فراقه،شوقه،بنانه،بعده مولده..) فتنسجم وتتلاءم الأصوات بتموّجاتها شدّة ولينا وهمسا، وبهذا تكتسب القصيدة إيقاعها الذي يتجاوب مع الحالة الشّعوريّة للشّاعر، ثم تنتقل إلى القارئ المتذوّق مرهف الحسّ.

كلّما استخدم الشّاعر العنصر التّكراري بكثرة كلّما ازداد الإيقاع قوّة وكثافة من سطر إلى آخر. و الحرف إذا تكرّر يعد من أبسط أنواع التّكرار، بل وأقلّها أهمية في الدّلالة و الشّاعر لدوافع شعوريّة و لتعزيز الإيقاع يلجأ إليه، في محاولة منه لمحاكاة الحدث الذي يتناوله[1]، وربّما يأتي عفويّا أو دون وعي منه.

ب- تكرار الكلمة:

تمتع الكلمة بإيقاع خاص له تأثيره في الخطاب الشّعري و هو ما يعرف بالجرس اللّفظي، فإذا كان تكرار الحرف و ترديده في اللّفظة الواحدة يكسبها نغما و جرسا ينعكسان على الحركة الإيقاعية للقصيدة، فإنّ تكرار اللّفظة في التّركيب اللّغوي لا يمنحها النّغم فحسب، إنّما الامتداد والاستمراريّة والتّنامي في قالب انفعالي متصاعد جرّاء تكرار العنصر الواحد.

فتكرار الكلمة من أبسط ألوان التكرار و يعد أكثر شيوعا بين أشكاله، وهو ما قصده القدماء وأفاضوا في الحديث عنه فيما أسموه بالتّكرار اللّفظي شريطة أن يكون هذا الأخير وثيق الصّلة بالمعنى العام للسّياق الذي يرد فيه.

و قد أدرك شعراء المغرب الإسلامي في هذه الفترة أهميّة التّكرار فوظّفوه في قصائدهم المولديّة و غيرها ويشمل بعض النّماذج الشّعرية منها،والبداية تكون من أحمد بن ليون وهو يحث على حضور الدّرس فقال[2]:(السّريع)

الدَّرْسُ رَأْسُ **العِلْمِ** فَاحْـرِصْ عَلَـيْهِ   فَكُـلُّ ذِي **عِـــلْمٍ** فَـــقِيرٌ إِلَـيْهِ

1- ينظر الشّعر العربي المعاصر، عمران خضير الكبيسي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1982م، ص144.

2- نفح الطّيب، ج5، ص545.

مَـنْ ضَـيَّعَ **الـدَّرْسَ** يُــرَى هَاذِيًا   عِنْدَ اِعْتِبَـارِ النَّـاسِ مَـا فِي يَدَيْهِ

فَــعِــزَّةُ الــعِلْمِ مِـنْ حِـفْظِهِ   كَـعِـزَّةِ المُـنْـفِـقِ فِـيـمَا عَـلَيْهِ

و قوله أيضا[1]:(كامل)

اللَّهْـوُ مَنْقَـصَةٌ بِصَـاحِبِهِ   فَاحْذَرْ مَزَلَّةَ مُؤْثِرِ **اللَّهْوِ**

وَ **اللَّغْوَ** نَزِّهْ عَنْهُ سَمْعَكَ لاَ   تَـجْنَحْ لَهُ لاَ خَيْرَ فِي **اللَّغْوِ**

و قد نظم أبو زكرياء بن هذيل الغرناطي أبياتا منها[2] :(الطّويل)

وَ ظَنُّوا بِأَنَّ **الرَّعْدَ وَالصَّعْقَ** فِي السَّمَا   مُحَاقٌ بِهِ مَنْ أَيَّدَهُ **الصَّعْقُ وَالرَّعْدُ**

فما نلاحظه في قول الشّعراء و نظمهم أنّ هناك ألفاظا تكررت، ففي الأبيات الأولى من قول ابن ليون ترى كلمة "العلم" و "الدّرس" ذكرتا مرتين، و في الأبيات الثّانية أعيدت لفظة "اللّهو"و"اللّغو" مرتين، أما عن الأبيات الثّالثة فنلاحظ أنّ كلمة "الرّعد"و"الصّعق" تكررتا كذلك، و بالجملة فإنّ هذه الألفاظ ما أعيدت مرّتين إلا لتأكيد المعنى أوّلا ثم خلق تناسب صوتي و إيقاع موسيقي "فالشّاعر بهذا التّكرار يعيد بعض الصّور من جهة، كما يستطيع أن يكثّف الدّلالة الإيحائيّة للنّص من جهة أخرى"[3]، كما أنّه يعتمد على "ما تحييه الكلمة من دلالات شعوريّة تاريخيّة كانت أم تراثيّة، وجدانيّة أم عاطفيّة أو ما تحمله من قيم رمزيّة"[4].

و قد يختلف هذا التّكرار من شاعر لآخر فمنهم من يجنح إلى تكرار اللّفظة في بيت واحد إما الشّطر الأوّل و يعيدها في الشّطر الثّاني، أو يعيد اللّفظة في المقطع عدّة مرات و قد مثلنا لهما إلا أنّه توجد حالة أخرى من التّكرار؛ أن يعيد الشّاعر اللّفظة الواحدة في بداية كل بيت كنحو ما ذهب إليه ابن خلوف في مولديته، فقال:(الطّويل)

1- نفح الطّيب ، ج5، ص545.

2- المصدر نفسه ، ج5، ص493.

3- مقالات في الأسلوبيّة، منذر عيّاشي، منشورات إتّحاد كتّاب العرب، 1990م، ص82.

4- الأعمال الشّعرية و النّثرية، مُحَمَّد بلقاسم حجار، مؤسّسة بوزيّاني للنّشر، الجزائر، 2009، ج1، ص287.

....

نَبِيٌّ بِـهِ غَـاضَتْ بُحَيْرَةُ سَـاوَةَ وَ ضَاءَتْ قُصُورُ الشَّامِ وَ اِعْتَزَّتْ السَّمَا

نَـبِيٌّ لَهُ قَـدْ شُقَّ إِيوَانُ فَارِسَ وَأُخْـمِدَ مِـنْ نِـيرَانِهِ مَـا تَضَـرَّمَا

نَـبِيٌّ شَـرَّفَ اللهُ بِـهِ طَـيْبَةَ كَمَا شَـرَّفَ البَيْتَ العَـتِيقَ الـمُحَـرَّمَا

نَـبِيٌّ عَـلاَ ذفَـوْقَ البُرَاقِ إِلَى العُلاَ إِلَى أَنْ تَـوَلَّى غَـيْرُهُ وَ تَـقَـدَّمَا

نَـبِيٌّ رَقَى السَّبْعَ الطِّـبَاقَ مُجَاوِزًا إِلَى مَشْـهَـدٍ فِـيهِ رَأَى وَ تَكَـلَّمَا[1]

لقد شكّلت كلمة "نبيّ" موقعا رئيسا في بداية كلّ بيت حتّى تكرّرت في القصيدة على التّوالي بثمان و ثلاثين مرّة و هذا يعطي للقصيدة نغما موسيقيّا مع دلالة الجمل، و هذه اللّفظة توحي إلى أنّ الشّاعر متعلّق أشدّ التّعلق بالنّبيّ ﷺ وأنّ مدحه و ذكر مناقبه عليه الصّلاة و السّلام أخذ حصّة الأسد في القصيدة و هذا مناسب لمقامها، إذ المقام للمدح النّبوي، فينبغي أن تتكرّر أسماءه وصفاته ومناقبه ﷺ فهو النّبيّ لا كذب فهو ابن عبد المطلب .

ج- تكرار المجاورة:

هذا النّوع من التّكرار يقوم على أساس التّجاور بين الألفاظ المكرّرة "بحيث يتردّد في البيت لفظتان كلّ واحد منها بجانب الأخرى أو قريبة منها من غير أن تكون في إحداهما لغوا لا يحتاج إليها"[2]؛ فالغاية من هذا التّكرار هو الفائدة وتأكيدها للسّامع أو القارئ وذلك بحسب الحاجة .

1- الدّيوان، ص162.

2- البلاغة والأسلوبيّة، مُحَمّد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة 1994، ص301.

و هذا النّوع من التّكرار وظّفه الشّعراء في هذين القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين و من ذلك ما قاله الثّغري في مولديّته[1] :(الطّويل)

وَ مَا إِنْ ذَمَمْتُ **الشَّيْبَ** أُدْخِلَ مِفْرَقِي فَكَمْ مِنْ يَدٍ **لِلشَّيْبِ** مَشْكُورَةً عِنْدِي

كرّر الشاعر كلمة "الشّيب" حيث وردت في وسط البيت الأول ثم تكررت في وسط البيت الثّاني، فالأولى كانت مقاربة و مجاورة للثّانية، و هذا النّوع من التّكرار أضفى على البيت الشّعري نغما موسيقيّا يتناسب مع إيقاع الشّاعر و يوحي بما يذمّ الشّيب في الشّطر الأوّل و مدحه في الشّطر الثّاني. وقوله أيضا[2]:(الطّويل)

لَأَرْجُو شَفِيعَ المُذْنِبِينَ مُحَمَّدًا **يُشَفِّعُـهُ** المَوْلَى **فَيَشْفَعُ** فِي العَبْدِ

تكرّرت كلمة يشفع في البيت الثاني مرّتين ليؤكّد بأنّها حاصلة للنّبي صلّى الله عليه وسلّم لا محالة.

د- تكرار الاشتقاق:

و هذا النّوع من التّكرار يكون بين الكلمات المشتقّة من الجذر اللّغوي نفسه، وهي ترجع إلى أصل معجمي واحد ومن الأمثلة على ذلك، قول الثّغري التّلمساني في مولديّة له[3] :(الطّويل)

لَأَرْجُو **شَفِيعَ** المُذْنِبِينَ مُحَمَّدًا **يُشَفِّعُـهُ** المَوْلَى **فَيَشْفَعُ** فِي العَبْدِ

نلاحظ أن الشّاعر كرر معنى الشّفاعة في البيت، فاللّفظة الأولى أتى بها اسما على صيغة المبالغة على وزن فعيل، و الثّانية أتى بالفعل يشفع ثم كرره ثانية في البيت الثاني وقد أضفى هذا النّوع من التّكرار نغما موسيقيّا كما زاد في توضيح المعنى، و هذه الكلمات مشتقّة من جذر لغوي واحد (ش ف ع).

1- تاريخ بني زيّان، ص197.

2- المصدر نفسه، ص198.

3- المصدر نفسه ، ص198.

ج- تكرار العبارة :

لا يقتصر التّكرار على الحرف أو المفردة فحسب، بل يمتدّ إلى تكرار العبارة في القصيدة، و ربّما تكون هذه العبارة هي المرتكز الأساس الذي يقوم عليه البناء الدّلالي للنّص فضلا عن التّنغميّة الموسيقيّة التي يؤديها هذا التّكرار. و هذا النّوع من الصّور الشّائعة في الشّعر الحضاري في هذين القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين، و من ذلك ما جاء في قصيدة الثّغري حيث قال[1] :(الطّويل)

لَهُ مُعْجِزَاتٌ مَـاثَلَتْ كُلَّ مَـا أَتَى   بِهِ الرُّسْلُ مِنْ آيٍ وَ أَرْبَتْ عَلَى العَدِّ

....

لَهُ اِنْشَـــقَّ بَـــدْرُ التَّمِّ عِنْدَ كَـمَالِهِ   فَشَاهَدَ مَنْ كَانَ بِالقُــرْبِ وَ البُعْـدِ

لَهُ حَــنَّ جِـذْعُ النَّخْـلِ عِنْدَ فِرَاقِـهِ   حَنِينًا شَكَى مِنْ شَوْقِـهِ أَلَمَ الـفَقْدِ

كـرّر الشّاعر الجار والمجرور "له" في بداية كل اسم مرّات عديدة معمّقا به الرّؤية ومكثّفا الفكرة المعبّر عنها في الجمل الشّعريّة، إذ جمع الشّاعر في هذه الأسطر مجموعة من المعجزات التي حدثت للنّبي ﷺ و هي: (انشقّ البدر، حنّ الجذع)، و نلاحظ أنّ هذا التّكرار وفق الشّاعر فيه لإثارة مشاعر المتلقّي و التّنبيه على أهميّة هذا الأمر.

و أعاد الشّاعر هذا النّوع من التّكرار في مدح الخليفة فقال :[2] (الطّويل)

لَـهُ السَّعْدُ وَ السَّعْيُ الجَمِيلُ مُلاَزِمٌ   وَ نَاهِيكَ مِنْ سَعْيٍ جَمِيلٍ وَ مِنْ سَعْدِ

لَهُ الجُـودُ أَضْحَى أُمَّـةً فِـيهِ وَحْـدَهُ   كَمَـا أَنَا فِي مَـدْحِي لَهُ أُمَّـــةٌ وَحْدِي

لَهُ العَسْكَرُ الجَــرَّارُ يَجْـلُو قَـتَامَهُ   أَسِـنَّتُهُ كَالشُّهْـبِ فِي الظُّـــلَمِ الرُّبْـدِ

1- تاريخ بني زيان، ص199/198.

2- المصدر نفسه، ص 200.

و نلاحظ أن هذا التّكرار للجار و المجرور "له" جاء انسيابيّا متتاليا في القصيدة يؤكّد فيه الشّاعر بعض الصّفات الحميدة التي أثبتها للخليفة: (السّعد، السّعي الجميل، الجود العسكر الجرّار)، و هذا يضفي تناغما موسيقيّا في القصيدة وينسجم مع التّدفّقات الشّعوريّة للمبدع ممّا تجعل المتلقّي مشدودا إليها لما تحمله من رنّة تبعث المتعة في النّفس.

5- الطّباق:

لا شكّ أنّ الشّعر الحضاري المغربي لم يخل من الطّباق إذ هو "الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، و لو إيهاما، ولا يشترط كون اللّفظين الدّالين عليهما من نوع واحد كاسمين أو فعلين، فالشّرط التّقابل في المعنيين فقط، و التّقابل بين المعاني له وجوه، منها ما يلي: تقابل التّضاد و تقابل التّضايف وتقابل التّناقض"[1].

ومن هذه التّقابلات التي وردت في الشّعر الحضاري من القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين:

أ- تقابل التّناقض :

" و النّقيضان هما اللّذان لا يجتمعان و لا يرتفعان"[2] و نمثّل له من قول الثّغري في مولديّته حيث قال[3]:(الطّويل)

لَهُ اِنْشَـقَّ بَـدْرُ التَّمِّ عِـــنْدَ كَـمَالِهِ   فَشَاهَدَ مَنْ كَانَ **بالقُـرْبِ** وَ **البُعْـدِ**

ما نلاحظه أنّ الشّاعر جمع بين متناقضين في آخر البيت و هما: " القرب" و" البعد" وهذا ما يجعل المتقابلات أقرب تخاطرا إلى الأذهان من المتشابهات.

و قوله أيضا[4]:(الطّويل)

يُـــهَابُ وَ يُرْجَى فِي جَـلاَلِ جَمَالِهِ   كَلَيْثٍ وَ غَيْثٍ فِي **وَعِيدٍ** وَ فِي **وَعْـدِ**

1- البلاغة العربية أسسها و علومها و فنونها، ج2، ص377.

2- المرجع نفسه، ج2، ص377.

3- تاريخ بني زيان، ص199.

4- المصدر نفسه، ص201.

الشّاعر في هذا البيت جمع بين متناقضين هما: "الوعيد"و"الوعد"، فالأولى تعني الشّدّة والعقاب إذا خالفه مخالف أو قابله عدوّ، و الوعد يكون في الكرم و العطاء والرّفق والإحسان و اللّين و غيرها من الصّفات الحسنة و هذا جمال في الحقيقة يفضي إلى التلاؤم بين المتقابلات و بين تداعي الأفكار في الأذهان ممّا يجعلها أقرب إلى الإفهام.

ب- تقابل التّضاد:

الضّدّان"هما اللّذان لا يجتمعان ولكن يمكن أن يرتفعا كالأبيض والأسود والقيام و القعود"[1] و مثل ذلك في قول ابن خلوف[2]:(الطّويل)

نَـبِيٌّ أَضَـــاءَ قَـبْلَ العَـوَالِمِ **نُورُهُ** وَ لَـوْلاَ سَـنَاهُ لَاِغْتَدَى الكَـوْنُ **مُظْلِمَا**

و قوله أيضا[3]:(الطّويل)

أَلَـمْ يَعْلَـمُوا أَنْ ضَـلَّلَ اللَّهُ سَـعْيَهُمْ وَ صَيَّرَهُمْ لِلبِيضِ وَ السُّمْرِ مَغْنَمَا

في هذين البيتين نلاحظ أن فيهما طباقا أو تقابل التضاد ففي البيت اتضح في الكلمتين:" نور" و"مظلم" و في البيت الثّاني:" البيض" و" السّمر"، و قد أضفى هذا التّضاد على المعاني الوضوح، و كما قيل بالأضداد تعرف الأشياء و تتّضح.

من خلال ما سبق يمكننا القول أنّ المحسّنات البديعيّة تعدّد في الشّعر الحضاري في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين فبرز في نظم الشّعراء التّجنيس بأنواعه والتّصريع والتّصدير و كذا التّكرار وقد تنوّع هو كذلك والطّباق بنوعيه التّناقض والتّضاد، مما أضفى على القصائد والمقطعات نغما موسيقيّا خاصّا ووضوحا في المعنى والحفاظ على التّوازنات الصّوتية من خلال التّكرار.

1- البلاغة العربية أسسها و علومها و فنونها، ص377.

2- الدّيوان، ص161.

3- المصدر نفسه، ص167.

ثانيا- الصّورة الشّعريّة :

1- الصّورة البلاغيّة:

إنّ التّعبير الشّعري هو صورة يتشابه فيه المنقول و الأصل، إذ الأمر فيه ليس تقريريّا بل صوريّا يستدعي تشابهها، لتكون الحقيقة كامنة، فيعمل الشّاعر و يجتهد في إيصاله للمستمع بما يراه مناسبا من الوسائل اللّفظية مصوّرا حال رؤياه و معتمدا على التّشخيص و المشابهة باعتبارهما أساس تشكيل معظم هذه الصّور.

أ- التّشبيه :

إنّ التّشبيه عنصر فعّال في بناء الصورة الشّعرية، و هو كما قال ابن رشيق: "صفة الشّيء بما قاربه و شاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه كليّة لكان إيّاه"[1].

من هذا التّعريف تبيّن لنا صورة التّشبيه و أنّه متعدّد و متنوّع و أحسنه ما أوقع بين التّشبيهين اشتراكهما في الصّفات أكثر من انفرادهما. و إذا عدنا إلى الشّعر المدروس وجدنا أنّ الصّورة التّشبيهيّة كانت وسيلة بلاغية استعملها الشّعراء ليصوّر للقارئ المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين؛ خاصّة شعر المولديّات وفي قصيدة الثّغري إذ كثر فيها التّشبيه وتَنوَّع؛ ومن ذلك التّشبيه:"المفصّل"[2] في قوله[3]:(الطويل)

إذَا اِبْيَضَّ فَـوْدِي زَادَ طَـبْعِي رِقَّـةً كَمَا وَصَـفُوا البِيضَ الرِّقَـاقِ مِنَ الهِـنْدِ

فالشّاعر شبّه بياض فوْده بالسّيوف اللاّمعة و هي المشبّه به، أما وجه الشّبه فهي الرّقّة إذ صار طبعه أكثر رقّة كرقّة البيض الهنديّة وهي صورة جسّدت لنا إحساس الشّاعر برقة قلبه و رجوعه إلى الله وتوبته من الذّنوب، فالشّيب علامة دنوّ الأجل وقربه وهذا ما

1- العمدة، ج1، ص286.

2- تشبيه ذكر فيه أركانه الأربعة. البلاغة الواضحة مع دليلها، مصطفى أمين و علي الجارم، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر، دت، ص35.

3- تاريخ بني زيان، ص198.

يجعل الإنسان إن كان له قلب حيّ يعود إلى خالقه فيرجو رحمته و يخاف عذابه، فقوّة التّشبيه بالبيض الرقيقة توحي لنا بتلك الصورة القويّة التي بدونها ما استطاع التّعبير العادي لينقلها إلينا و يقربها لنا.

و قوله أيضا[1]:(الطّويل)

لَهُ العَسْكَرُ الجَـرَّارُ يَجْلُو قَتَامَهُ   أَسِـنَّتُهُ كَالشُّهْبِ فِي الظُّلَـمِ الرَّبْدِ

كَرَوْضٍ وَ لَكِنَّ السُيُوفَ جَدَاوِلٌ   وَ سُمْرَ القَنَا الخَطَى كَالقُضْبِ المَـلْدِ

كَسُحْبٍ وَ لَكِنْ السُّيُوفُ يَرُوقُهَا   إِذَا مَا انْتَضَوْهَا وَالصَّوَاهِلُ كَالرَّعْدِ

هذه المقطوعة اجتمعت فيها كثرة التّشبيهات، فبراعة تعبير الشّاعر و دقّة التّصوير تنمّ عن شعر أصيل حيث صوّر جيش الخليفة بصورة متعدّدة، فحين يحملون سيوفهم و القتام محيط بهم، كأنّها شهب في ظلم مكدّرة، وحين يمشون كأنّهم روض منتشر وهي السّيوف تحيط بهم من كل جانب و سهامهم كالقضب الليّنة ثم زاد على ذلك و شبّه الجيش بالسّحب و سيوفهم إذا أخرجوها و قاتلوا بها كأنّها برق للمعَانِها، و خيولهم رعد لشدّة وطئها الأرض و هذا تشبيه تمثيلي[2] أراد به الشاعر أن يأخذ بمجامع القلوب والأفئدة ويشدّ انتباه القارئ والسّامع لهذه الأبيات، فالثّغري بعد كلّ هذا التّصوير أراد البلوغ بممدوحه و هو الخليفة مكانة عليّة، فيصوّره أمام أعدائه على أنّه سلطان يهابه الأعداء وهذا من لطيف الصّدف أن يجتمع ملك حكيم عادل رشيد في سياسته بشاعر عظيم بارع يضمن للملك المكانة اللائقة به فخلّد لنا أروع الكلمات على أعظم الملوك و الخلفاء.

و قول الثّغري أيضا[3]:(الطّويل)

فَمِنْكَ أَجَـدْنَا القَـوْلَ فِيكَ إِجَـادَةً   وَ مَا طَابَ مَاءُ الوَرْدِ إِلاَّ مِنَ الوَرْدِ

1- تاريخ بني زيان، ص201/200.

2- التّشبيه التّمثيلي: إذا كان وجه الشّبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، البلاغة الواضحة مع دليلها، مصطفى أمين و علي الجارم، ص35.

1- المصدر السّابق، ص202.

هذا البيت أراد فيه الشّاعر أنّ يضمّن مدحه للخليفة حيث أرجع إجادته في نظم هذه الأبيات إلى الممدوح نفسه، فلمّا كان الممدوح من أفضل النّاس كانت هذه الأبيات من أفضل ما قيل فيه، فالطّيب لا يقال فيه إلا طيّبٌ، كماء الورد لا يخرج إلاّ من الورد وهذا تشبيه ضمني[1] فهو يفيد إلى أنّ الحكم الذي أسند إلى المشبّه ممكن و هذا لا شكّ فيه فالخليفة أهل للطّيب و لا يستحق هذا المدح إلاّ من كان كذلك.

أمّا عن التّشبيه البليغ[2] فلم يستغن الثّغري عنه في قصيدته حيث مثّل به فقال[3]:

جَـوَاهِـرُ عِـقْدٍ مِنْ نَسِيبٍ وَ مَـدْحِهِ وَ مَـدْحُ رَسُولِ اللَّهِ وَاسِطَـةُ العِـقْدِ (الطّويل)

فالمتّأمل في هذا البيت يطلعنا على أنّ الشّاعر جعل مدح الخليفة كعقد الجوهر وآثر أن يعبّر عن أفضليّة مدح النّبي ﷺ وأنّه واسطة العقد و يجعلهما في مستوى واحد وذلك على سبيل التّشبيه البليغ بحذف الأداة و وجه الشّبه.

و من التّشبيه البليغ أيضا ما قاله ابن خلوف في ميميّته[4]:(الطّويل)

فَأَنْتَ الهُمَامُ اللَّيْثُ فِي مَعْرِكِ الوَغَى إِذَا شَـابَتْ الهَيْجَا وَ شَبَّتْ ضِـرَامُهَا

فالشّاعر يمدح الخليفة ويصفه بالقوّة و الشّجاعة في أرض المعركة كالأسد الضّرغام الذي لا يخاف في المواجهة، فالشّاعر لاهتمامه بشجاعة ممدوحه استعمل هذا النّوع من التّشبيه لخدمة هذا الأمر و إبراز هذه الصّفة فيه.

و لـمّا أراد الشّاعر أن يصوّر جود و كرم الخليفة للمبالغة و غلوّ في تعظيمه التفت إلى التّشبيه المقلوب الذي أدّى له ما يريده فقال أيضا[5]:(الطّويل)

1- التّشبيه الضّمني: تشبيه لا يوضع فيه المشبّه و المشبّه به في صورة من صور التّشبيه المعروفة بل يلمحان في التّركيب. البلاغة الواضحة مع دليلها، ص47.

2- التّشبيه البليغ: هو ما حذف منه الأداة و وجه الشبه. المرجع نفسه، ص25.

3- تاريخ بني زيان، ص203.

4- الدّيوان، ص171.

5- المصدر نفسه، ص171.

وَ لاَ الغَيْثُ أَنْدَى مِنْ مَوَاهِبِكَ الَّتِي　　يَجُودُ عَلَيْنَا صَوْبُهَا وَ هِيَامُـهَا

إذا تأملنا هذا البيت وجدنا أنّ الشّاعر بالغ وغلا في تشبيه ممدوحه بصفة الكرم والجود حتّى صوّره بأنّه أجود و أندى من الغيث وكأن الشّاعر ما وجد ضالّته في التّشبيه المفصّل و البليغ و الضّمني في إبراز هذه الصفة في ممدوحه بل زاد الأمر مبالغة بهذا التّشبيه المقلوب.

أمّا إذا انتقلنا إلى المقطّعات الّتي وصفت المظاهر الحضاريّة في المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة فنجد فيها أنّ الشّعراء لم يتخلّوا عن استعمال التّشبيه ومن ذلك ما قاله أحمد ابن ليون وهو يحثّ على حفظ العلم[1]:(السّريع)

فَعِزَّةُ العَالـمِ مِـنْ حِفْظِهِ　　كَعِزَّةِ المُنْفِقِ فِيمَا عَـلَيْهِ

الشّاعر في هذا البيت يدعو إلى حفظ العلم فهو دين عليه وذلك عزّة للعالم كعزّة المنفق بأن يسدّد ما عليه من دين؛ فشبّه عزّة العالم في حفظ العلم بعزّة المنفق فيما عليه من دين فاستعمل الأداة وحذف وجه الشّبه، على سبيل التّشبيه المجمل.

و من التّشبيه الذي وظّفه الشّعراء أيضا في هذه الفترة في نظمهم التّشبيه الضّمني في قول أحمد بن ليون[2]:(كامل تامّ)

إِحْـذَرْ مُـؤَاخَـاةَ الدَّنِيءِ فَـإِنَّهَا　　عَـارٌ يَشِينُ وَ يُورِثُ التَّضْرِيرَا

فَالـمَاءُ يَخْبُثُ طَعْمُهُ لِنَجَاسَةٍ　　إِنْ خَـالَطَتْهُ وَ يُسْلَبُ التَّطْهِيرَا

إذا تتبّعنا هذين البيتين وجدنا أنّ الشّاعر لمّح إلى أنّ مؤاخاة الدّنيء تجلب العار و الضّرر و الحال هذه كحال الماء الطّاهر إذا خالط النّجس فإنّه ينجس مثله و يتضرّر فضمّن هذا التّشبيه و لم يضع المشبّه و المشبّه به في صورة التّشبيه المعروف، فهذه الصّور التي يستعملها الشّعراء يقربون بها المعاني و بالمثال يتّضح المقال.

1- نفح الطيب، ج5، ص545.

2- المصدر نفسه، ج5، ص545.

و قبل أن نسدل السّتار على التّشبيه نقول إنّ استعمال الشّعراء لهذا اللّون البلاغي بصورة ظاهرة في إبراز مظاهر الحضارة في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، لم يسم أشعارهم بالنّقص أو التّقليد بل إنّ المواضيع التي تطرقوا إليها هي التي فرضت عليهم هذا التّكثيف فنوّعوا من التّشبيه ما بين مفصّل و بليغ و مجمل، وكان هذا بحسب المقام و لتقريب المقصود والمعنى بالصّورة التي رسموها بهذا التّشبيه.

ب- الاستعارة :

إنّ الاستعارة في التّراث النّقدي و البلاغي هي" أن يكون للّفظ أصل في الوضع اللّغوي المعروف تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضِع، ثم يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل و ينقله إليه نقلا غير لازم"[1].

إنّ تقديم التّشبيه على الاستعارة لا يعني الحط من قدرها و التّقليل من شأنها، و إنّما يرجع ذلك إلى كونه أساس الاستعارة، و إذا كان التّشبيه ذا مكانة عالية عند الشعراء واستعمله أكثرهم أو جلّهم إن لم نقل كلّهم، فإنّ الاستعارة تنتج صورا عميقة تفوق الصّور التي يؤدّيها التّشبيه فهي تمثّل مرحلة الدّقة الفنّيّة، "و تعتمد أيضا على التّشخيص[2] الذي يعد ضروريّا، ذلك أنّ الأدباء عموما يلجؤون إليه قصد التّعبير و هو يحتاج إلى ملكة خاصّة متميّزة مستعدّة للخلق و الإبداع في مختلف الرّموز والمعاني المجرّدة نسبتها إلى مختلف الأشكال سواء كانت مجرّدة أو محسوسة و بذلك يقصد تصويرها كما تقع في الحسّ والشّعور و الخيال، و هذا ما يجعلنا ندرك كلّ الصّور الاستعاريّة"[3].

و إذا قلنا آنفا بأن الاستعارة تعتمد أساسا على "تشبيه حذف أحد طرفيه و العلاقة المشابهة دائمًا فهي تنقسم إلى قسمين: تصريحيّة و مكنيّة"[4] و لا شكّ أن شعراء المغرب

1- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، منشورات مُحَّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1، 1422هـ/2001م، ص31.

2- التّشخيص: هو إحياء المواد الحسّيّة الجامدة و إكسابها إنسانيّة الإنسان و أفعاله، الصّورة الفنّيّة في شعر أبي تمام المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، دط، 1978م، ص210.

3- المدائح في العصر الزّياني، ص157.

4- البلاغة الواضحة، ص77.

الإسلامي في هذه الفترة وظّفوا هذين النّوعين في قصائدهم و مقطوعاتهم و من ذلك قول الثّغري في قصيدته :(الطّويل)

وَ مَا إِنْ ذَمَمْتُ الشَّيْبَ أُدْخِلَ مَفْرِقِي فَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلشَّيْبِ مَشْكُورَةً عِنْدِي[1]

فالشّاعر في هذا البيت شبه الشّيب بالإنسان ثم حذف و رمز إليه بشيء من لوازمه و هي "اليد" على سبيل الاستعارة المكنيّة و لقرينة إثبات "يد للشّيب" و أراد بها الشّاعر أن يثبت نعمة الشّيب عليه حتّى يتذكّر و يتفكّر في أمره ويعود إلى باريه ورشده والشّيب شيء ملموس و محسوس استطاع الشّاعر أن يضيف إليه خاصيّة إنسانيّة قصد تصوير حالة الإنسان المذنب، فالشّيب كأنّه شخص حريص كل الحرص على عدم إغماض العين والتّغافل فيوقظ غيره ويخرجهم من الغفلة التي يتخبّطون فيها. وقوله أيضا[2]:(الطّويل)

عَلَيْهِ سَــلاَمُ اللَّهِ مَـا رَبَتِ الــرُّبَى وَمَا صَافَحَتْ رِيحُ الصَّبَا قُضُبَ الرَّنْدِ

إذا تأمّلنا هذا البيت وجدنا أن الشاعر شبه مصافحة الإنسان بمصافحة ريح الصّبا للقضب الرّند، فحذف المشبّه به وهو الإنسان و صرّح بلفظ المشبّه فالاستعارة مكنيّة والقرينة "صافحت" أراد الشّاعر أن يثبت مصافحة الرّيح للقضب عند هبوبها؛ فملامسة الرّيح للقضيب جعلها مصافحة له فهذه المشابهة زادت الصّورة جمالا و تحول المستحيل ممكنا فالشّاعر جعل عناصر الطبيعة المحسوسة ترقى لدرجة الإنسان.

أمّا ابن خلوف فلم تخل قصيدته من الاستعارات بل أكثر منها، و على سبيل المثال لا الحصر قوله[3] :(الطّويل)

رَأَى الـبَرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا وَ صَــافَحَ أَزْهَــارَ الرُّبَــى فَتَنَسَّــمَا

وَ لاَحَ جَبِينُ الصُّبْحِ فِي طُرَّةِ الدُّجَى فَخِلْتُ بَيَـاضَ الثَّغْرِ فِي سُمــرِ اللَّمَا

1- تاريخ بني زيان، ص197.

2- المصدر نفسه، ص203.

3- الدّيوان، ص158.

وَ رَقَّ لِـوَاءُ الـبَرْقِ لَمَّا تَلاَعَبَـتْ   سَوَابِقُ خَيْلِ الرِّيحِ فِي حَلْبَةِ السَّمَا

وَ أَوْتَـرَ رَامِي الجَـوِّ قَـوْسَ سَحَـابَةٍ   وَ أَرْسَلَ نَحْوَ الأَرْضِ بِالقَـطْرِ أَسْهُمَا

وَ قَدْ بَلَّ أَرْدَانَ الـثَّرَى دَمْعُ مُزْنَـةٍ   تَنَـاثَرَ فِي أَسْـلاَكِهَا فَتَنَظَّـمَا

إذا تأمّلنا أبيات ابن خلوف نرى أنّ الشّاعر له قدرة كبيرة على التّشخيص؛ فجعل عناصر الطّبيعة المحسوسة ترقى لدرجة الإنسان" البرق يرى"، "صافح أزهار الرّبا". وربّما ظلّ ابن خلوف لافتا النّظر في قصيدته عند المعالجة الفنّيّة للصّورة الاستعاريّة مما يجعلها موضع الاهتمام، ويحقّ لنا أن نقول بأنّ الاستعارة عنده أصبحت فنّا له خصائصه ومميّزاته.

وإذا أمعن القارئ النّظر لهذه الأبيات سرعان ما يجد نفسه أمام لوحة فنّيّة استقت معطياتها و دقائقها من الطّبيعة المختلفة و التي جعلها الشّاعر و كأنّها حيّة متحرّكة تشابه الإنسان و الكائنات الحيّة وتستقي حيويّتها منها، صار البرق يرى، والصبح له جبين ولواء البرق رقّ، والريح خيل، رامي الجوّ، قوس سحابة، دمعة مزنة، تناثر في أسلاكها.. تشخيص المجرّدات صار سمة في شعر ابن خلوف فكثرت فيه الاستعارات المكنيّة التي صيّرت الجمادات حيّة وكأنّها ترى و لها جبين و غير ذلك، فالقصيدة عمّها هذا النّوع من الاستعارات والأمثلة كثيرة .

وما يجدر الإشارة إليه كذلك هو تشخيص المجرّدات الذي ورد في قصيدة ابن خلّوف حيث قال[1] :(الطّويل)

خَلِيلَيَّ هَلْ صَافَحْتُمَا رَاحَةَ الهَـوَى   بِرَاحَـةِ مُغْرًى بِالصَّبَابَةِ مُغْرَمَـا

فجماليّة هذه الصّورة أكسبتها من تشخيص الشّاعر للشّيء المجرّد (الهوى) ما يجعله إنسانا يملك جسما يتصرّف فيه كيف ما شاء، و منه الرّاحة التي يصافح بها الإنسان من شاء، فصوّر لنا الشّاعر أنّ للهوى راحة، وهذا التّشخيص الذي يدعمه الإيحاء فيجعله أكثر قوّة و تميّزا، صرّح الشّاعر بلفظ المشبه "الهوى"و حذف المشبه به وأشار إلى القرينة الدّالة عليه و هي "راحة" على سبيل الاستعارة المكنيّة .

1- الدّيوان، ص159.

ما نخلص القول إليه هو أنّ شعراء المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين وصفوا لنا المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة ولم يخل شعرهم من الاستعارات كما أنّهم شخّصوا لنا بعض المحسوسات والمجرّدات في صور عديدة مثّلنا لها في هذا البحث .

ج- الكناية :

إنّ شعراء المغرب الإسلامي الذين اهتمّوا بوصف الحضارة في القرنين الثّامن والتّاسع لم يكتفوا بتوظيف التّشبيه والاستعارة فحسب بل استندوا قصد التّعبير عن أفكارهم ومعانيهم على نوع بلاغي آخر ألقى بظلاله على الصّورة الفنّية لديهم ألا وهي الكناية.

و رغم أنّ الكناية لم يكن لها حظ وفير إذا ما قورنت بسابقتها التّشبيه و الاستعارة إلاّ أنّ موقعها في خطابهم الشّعري كان باديا وواضحا فكانت أداة التّشكيل الفنّي للصّورة البلاغيّة و"هي أن يعبّر عن شيء لفظا كان أو معنى بلفظ غير صريح في الدّلالة عليه لغرض من الأغراض كالإبهام على السّامع" [1].

و من المواضع التي نجد فيها هذا النّوع البلاغي ماثلا قول الشّاعر الثّغري[2]:(الطّويل)

وأَيَّـــامِ وَصْـلٍ كُـلُّهُنَّ أَصَـائِلٌ   وَ مَـاضِي زَمَـانٍ كُـلُّهُ زَمَـنُ الوَرْدِ

إذا تأملنا هذا البيت الشعري لاحظنا أنّ الصّورة الكنائية وردت في عبارة"زمن الورد" وقد وضّحت لنا جمال ذلك الزّمن و أنّ الشّاعر معجب به و يتمنى أن يعود حتّى يلقى من يتغزّل بها و يتكلّم عنها، فهي أيّام حلوة يتمنّى كلّ إنسان أن لا تنقضي وتفوت يروّح بها عن نفسه ويرتاح لذكراها .

و ممّا لا ريب فيه أنّ الشّاعر نهج هذا المسلك للهرب من الذّات و من اللّغة العادية بما تقوم عليه من تصريح، وهو ما يحظى به التّلميح في المتلقي من قوّة التّأثير وتوكيد المعاني

1- معجم التّعريفات، علي بن محمّد السّيد الشّريف الجرجاني، تحقيق ودراسة: محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة باب الكاف (الكاف مع الميم و النون)، ص157.
2- تاريخ بني زيان، ص196.

في نفسه التّواقة و التي تنجذب إلى كلّ ما هو جديد فالأسلوب المباشر صار معتادا ومؤتلفا و شائعا مما يجعله أقرب إلى الشّؤم والملل، و في هذا قال أيضا[1]:(الطّويل)

وَ يَــهْنِكَ أَبْـنَاءٌ بَنَـوْا بِكَ مَجْدَهُـمْ　　وَ لاَحُـوا نُجُـومًا فِي سَمَا ذَلِكَ الـمَجْدِ

يمدح الشّاعر في هذا البيت الخليفة أبا تاشفين و يهنيه بفرح رعيته به وأنّهم بنوا مجدهم به، و صاروا نجوما فعلت مكانتهم؛ الشّاعر لم يعبّر عن هذا المعنى بهذه البساطة و إنّما كنّى هذا التّعبير بكلمتين" لاحوا نجوما" حتّى يصل إلى هذا الهدف بصورة غير مباشرة وبإشارة و إيحاء إليه على سبيل الكناية، و يقول ابن خلوف القسنطيني أيضا[2]:

ويَا رَبِّ يَا أَللَّهُ كُنْ لِي وَلَا تَكُنْ　　عَلَيَّ فَقَدْ ضَاقَ الفَضَاءُ وَأَظْلَمَا　　(الطّويل)

الشّاعر في هذا البيت يطلب من الله تعالى العفو والغفران والرّحمة وأن يكون معه فيدخله الجنّة و لا يكون عليه فيعذّبه و يدخله النّار؛ وكنّى هذا بقوله : "كُنْ لِي وَ لَا تَكُنْ عَلَيَّ".

ثم قال على سبيل الكناية "فقد ضاق الفضاء و أظلما" وقصد بذلك كثرة ذنوبه وحسرته عليها هي التي جعلت صدره ضيقا حرجا كأنّما يصّعَّدُ إلى السّماء فأظلمت عليه الدّنيا.

بالرّغم من أنّ شاعرنا وظّف الكناية وكان قطرة من غيث الشّعراء الذين استعملوها إلا أنّ حسن توظيفه لها و جعْلِها متناسقة في روح بيته الشّعري كانت إبداعا منه.

أمّا الكنايات التي وردت في مقطعات وصف المظاهر الحضارية من شعر المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة فنورد منها قول أحمد بن ليون و هو يحث على حفظ العلم[3]:

العِلْمُ مَا أَنْتَ فِي الحَمَّامِ تَحْضُرُهُ　　وَ مَا سِوَى ذَلِكَ التَّكْلِيفُ وَ الكَمَدُ

1- تاريخ بني زيان، ص202 .

2- الدّيوان، ص169.

3- نفح الطّيب، ج5، ص545 .

الشّاعر في هذا البيت وظّف تلميحات لطالب العلم بأنّه لا بدّ أن يكون في الصّدر و معك أينما كنت أو ارتحلت على سبيل الكناية و بألفاظ وجيزة. أمّا أبو جعفر ابن مُحَمَّد ابن جزي فقد نبّه النّاس عن عدم احتقار الفقراء فقال :(الطّويل)

أَرى النَّاسِ يُـولُونَ الغَنِيَّ كَرَامَةً وَ إِنْ لَمْ يَكُـنْ أَهْلاً لِرِفْعَةٍ وَ مِقْدَارِ

....

بَنُو الدَّهْرِ جَاءَتْهُمْ أَحَادِيثُ جَمَّةٌ فَمَا صَحَّحُوا مِنْهَا إِلاَّ حَدِيثَ ابْنَ دِينَارِ[1]

الشّاهد من هذين البيتين ما جاء في الشّطر الثّاني من البيت الأخير هو كناية عن اهتمام النّاس الكبير بالغني و احتقارهم للفقير؛ أي أنّ الأحاديث التي جاءت في فضله لا يأخذونها بعين الاعتبار بل يردّونها طوعا لأهوائهم .

الكناية إذن وظّفها شعراء المغرب الإسلامي خلال القرنين الثّامن والتّاسع في وصف بعض المظاهر الحضاريّة و إن كانت قليلة مقارنة بالتّشبيه والاستعارة إلاّ أنّ بصمتها كانت حاضرة، إنّ التّشبيه كان جليّا خاصّة في شعر الثّغري التّلمساني، أمّا الاستعارة فقد أكثر منها ابن خلوف القسنطيني في مولديّاته.

2- الصّور الحسّيّة :

هي تلك الصّور التي ندركها عن طريق الحواس فتنبهر عيوننا بالألوان و أنوفنا بالعطور وأسماعنا بحلو النّغم و لساننا بالمذاق العذب و أصابعنا بالنّاعم.

فالحواس هي المنبع الأوّل الذي تستمدّ منه الصّور أبعادها، و المنظار الذي يلتقط الشّاعر من خلاله صور العالم الخارجي لتشكيل المادّة الأساس التي يعبر من خلالها الشّاعر عن عواطفه و أحاسيسه، فيختار منه ما ينسجم مع تجربته، "فالحواس كلّها هي

1- تاريخ الأدب العربي، عمر فرّوخ، ج6، ص559 .

الوسائل التي تغذّي ملكة التّصور و الخيال و تنقل إليها مجتمعة أو متفردة الصّورة بشتّى مصادرها و طبائعها"[1].

أ- الصّورة البصريّة :

هي صورة نلحظها و ندرك أبعادها بواسطة حاسّة البصر و التي "ترتبط ارتباطا وثيقا بالرّؤية الوصفيّة الخارجيّة للأشياء، فهي أقرب إلى السّطح منها إلى أعماق الشّاعر ذاته"[2].

فحاسّة البصر من أكثر الحواس التي أدرك الشّاعر من خلالها الموجودات وظّفها في صور شعريّة لإيصال فكرة وأحاسيس وما يؤرقه، فهي تعدّ أداة للتّعبير. فالصّورة البصريّة يندرج تحت لوائها صور تخدمها وفي طليعتها الصّور الحركيّة والصّور اللّونيّة.

1- الصّور الحركيّة:

إنّ الحركة في الشّعر العربي ساهمت بقدر كبير في تشكيل الصّورة البصريّة، وإذا أمعنّا النّظر في الشّعر المدروس وجدنا فيه صورا متحرّكة ومتموّجة، بل حتى الصّور الجامدة حوّلت و صيّرت صورا حيّة في غالبها ونابضة بالحياة، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصيدة الثّغري حيث قال[3]:(الطّويل)

بُدُورٌ طَوَتْهَا حِينَ جَدَّتْ بِهَا النَّوَى ... خُدُورٌ كَمَا يُطْوَى الكِمَامُ عَلَى الوَرْدِ

فَجُدْتُ بِرُوحِي حِينَ ضَنُّوا بِوَصْلِهِمْ ... وَ عَادَتْ دُمُوعِي مِثْلَ مُنْتَثِرِ العِقْدِ

إنّ الشّاعر يبكي على الأيّام الحلوة التي مرّت به مع محبوبته، ويتباكى على الأيّام الحلوة التي مرّت عليه ويقول أنّها انطوت ولم تَعد، و هو يريد أن يسعى جاهدا كي يعيدها مرّة أخرى؛ فوظّف بعض الأفعال التي توحي بالحركة (طوتها، يطوي، عادت) ومن الأسماء

1- بناء الصّورة الفنّيّة في البيان العربي موازنة و تطبيق، كامل حسين البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1987، ص123/124.

2- تطوّر الشّعر العربي الحديث في العراق، إتّجاه الرّؤيا و جماليّات النّسيج، علي عباس علوان، منشورات وزارة الإعلام، 1975، ص47.

3- تاريخ بني زيان، ص197.

كذلك (وصْلهم، منتثر) . و هذه الصّور الحركيّة تجسّدت بهذه الأفعال والأسماء والتي بيّنت لنا بأنّ زمن الورد طوى أيّامه، ودموعه عادت إلى خده، ثمّ تناثرت من جديد وكرّر الفعل طوى و فيه دلالة و إيحاء على أنّ هذا الحبّ اختفى و طوى أيّامه كما تطوى الكمام. و قول الثّغري أيضا في مدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم[1]:(الطّويل)

لَأَرْجُو شَفِيعَ المُذْنِبِينَ مُحَمَّدًا   يُشَفِّعُهُ المَوْلَى فَيَشْفَعُ فِي العَبْدِ

....

لَهُ حَنَّ جِذْعُ النَّخْلِ عِنْدَ فِرَاقِهِ   حَنِينًا شَكَى مِنْ شَوْقِهِ أَلَمَ الفَقْدِ

فَاضَ نَمِيرُ المَاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ   إِلَى أَنْ تَرَوَّى الجَيْشُ مِنْ ذَلِكَ الوِرْدِ

في البيت الأوّل يثبت الشّاعر الشّفاعة للنّبي ﷺ فاستعمل أسماء تدلّ على الحركة منها (شفيع) و هي صيغة مبالغة لأنّه هو الوحيد الذي خصّ بالشّفاعة لأمّته، ثم ذكر أفعالا تدلّ على الحركة كذلك من جنس هذا الاسم و مشتقة منه و هي (يشفّعه، يشفع) ليؤكّد هذا المخصوص، ثم ذكر بعض معجزاته ﷺ في البيتين الثّاني و الثّالث .

المعجزة الأولى هي حنين جذع النّخلة له ﷺ فاشتكت له ألم الفراق، و قد تشكّلت هذه الصّورة الحركيّة من خلال عنصر الحركة في الفعل (اشتكى) الذي جسّد لنا حركة النّخلة بالشّكوى، و أمّا الاسم (فراقه) فقد جسّد هو كذلك حركة النّبي ﷺ بالمفارقة لها ممّا يمكننا القول بأنّ الحركة هنا تعدت حدود الدّلالة الظّاهرة و نفذت إلى دلالة هي وجدانيّة مختزنة في أعماق النّخلة و هو الحنين.

أمّا المعجزة الثّانية الواردة في البيت الثّالث دلّ عليها الفعل (فاض) الذي يشير إلى صورة حركيّة جسّدت لنا صورة نبوع الماء من بنانه ﷺ .

و لأحمد بن ليون أبيات يصوّر لنا فيها الطّالب كيف ينال حظّه من العلم فيقول[2] :

1- تاريخ بني زيان، ص199.

2- نفح الطّيب، ج5، ص544.

وَلاَ يَـرُدَّكَ عَجْـــزٌ عَنْ أَخْـذِ أَعْـلَى طَـرِيقَـهْ (المجتث)

فَإِنَّ مَـنْ جَـدَّ يُعْــطَى فِيمَا يُحِبُّ لُحُـــوقَهْ

إنّ شاعرنا يوجّه طالب العلم حتّى لا يأخذه العجز و الفتور في نيل العلم و تحصيله للوصول إلى أعلى مراتبه و طرقه، و الصّورة البصرية الواردة في هذين البيتين دلّت عليها العبارة (لا يردّك عجز) الذي يشير إلى حدوث حركة تدفع بطالب العلم إلى الاجتهاد في تحصيل العلم و أكّد ذلك الأفعال: (أخذ، جدّ، يعطي) و هذه الصّورة الحركيّة ذات وجهة أماميّة من خلال عنصر الحركة المتمثّل في (لا يردّك) الذي جسّد التّقدم الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم حتّى يكون له ذلك العطاء المبتغى و المرجو منه، فيلحق مرتبة عالية في الدّنيا و الآخرة .

2- الصّورة اللّونيّة :

إنّ تشكيل الصّور البصريّة تعدّى إلى الألوان، فقد أسهمت في تبيان كثير من المعاني والأفكار التي أراد شعراؤنا التّعبير عنها، فإذا استقرأنا الشّعر المدروس تبيّن أنّ اللّونين الأبيض والأسود كانت لهما حصّة الأسد في الألوان، و قد تشابه فيهما الحسّ الفنّي لدى شعرائنا، فتنوّعت ريشتهم في رسم لوحات فنيّة، و من ذلك التّعبير عن الثّنائيّة الحربيّة (السّيوف، الرّماح) بالثّنائية اللّونية (البيض، السّمر) و كان هذا في شعر المولديّات بالدرجة الأولى، و إذا أمعنّا النّظر في نظم شاعر البلاط المريني ابن خلّوف خاصّة عند قوله[1] :(الطّويل)

وَ أَبْيَضَ بَسَّامَ الفِرِنْدِ مُجَوْهَرًا وَ أَسْـمَرَ مَصْقُـولَ السِّـنَانِ مُقَـوَّمَا

نجد أنّه عبّر عن السّيف بلفظة (أبيض) في الشّطر الأوّل، كما عبّر عن الرّمح بلفظة (أسمر) و كان هذا في الشّطر الثّاني. و لا شكّ أنّ هذه الزخرفة اللونيّة من البياض تمنحه نصاعة و بياضا زيادة عن كونه هنديّا من أحسن الأسلحة و أجودها و أمضاها، أمّا نسبة صفة السّواد إلى الرّمح الحاد تمنحه تميّزا أكبر إلى جانب السّيف و بهذا تتبيّن الدّلالة على

1- الدّيوان، ص160.

هذين اللّونين على أنّهما رمز للقوّة في العتاد وبهما يكون إرهاب العدوّ وإخافته وهذا أمرلا بدّ منه في سياسة هذا الفنّ العسكري. والحقيقة أنّ هذا تأكيد من الشّاعر وإدراك منه بأهميّة الألوان،ثمّ أعاد ابن خلوف هذه الثّنائية في موضع آخر من قصيدته فقال[1] : (الطّويل)

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْ قَدْ ضَلَّلَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ   وَ صَيَّرَهُمْ لِلْبِيضِ وَ السُّمْرِ مَغْنَمَا

الشّاعر خاطب النّصارى الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا، وظنّوا بدينهم المحرّف أنّهم يحسنون صنعا و سَيصُولُون و يجُولُون على المسلمين حتى يقضوا عليهم و على دينهم فهذا حلم يقظة لا شكّ و سيصلون نارا، و سيكونون غنيمة للمسلمين و لكن الشّاعر عبّر عن هذا الأخير بقوله: " و صيّرهم للبيض و السّمر مغنما."

ففي هذه الصورة وظّف الشّاعر اللّونين الأبيض و الأسمر ضدّ الأعداء ليبيّن لهم صورة قوّة جيش المسلمين فيرعبهم و يرهبهم.

و إذا تأمّلنا البيت من جهة أخرى وجدنا أن البياض هو "ضدّ السّواد على الحقيقة وإذا كان كلّ واحد منهما كلّما قوي زاد بعدا من صاحبه، و ما بينهما من الألوان كلما قوي زاد قربا من السّواد، فإن ضعف زاد قربا من البياض، وأيضا فلأن البياض منصبغ لا يصبغ والسّواد صابغ لا ينصبغ وليس سائر الألوان كذلك لأنّها كلّها تصبغ و تنصبغ"[2].

و في المقام نفسه نظم الثّغري بيتا يمدح فيه الخليفة أبا تاشفين و يصف جيشه فيقول[3]:(الطّويل)

لَهُ العَسْكَرُ الجَرَّارُ يَجْلُو قَتَامَهُ   أَسِنَّتُهُ كَالشُّهْبِ فِي الظُّلَمِ الرُّبْدِ

إذا أمعنا النّظر في هذا البيت لاحظنا أنّ الثّغري يصوّر الأسنّة في الظلام شهبا بيضاء إلاّ أنّ اللّونين الأسود و الأبيض لم يذكرهما تصريحا، بل أشار إليها تلميحا مرّة بالظّلم التي يراد بها اللّون الأسود و مرّة أخرى بالشّهب و يراد به اللّون الأبيض فجمع الشّاعر بين

1- الدّيوان، ص167.

2- العمدة، ج2، ص11.

3- تاريخ بني زيان، ص200.

ثنائيّة متضادّة الألوان و الغرض من ذلك إظهار قوّة الجيش و سرعة تحرّك أسنّته كأنّها شهب سريعة، وبهذا نقول أنّ استعمال هذه الألوان تعطي النّص و تضفي عليه بعدا دلاليّا.
و قد قال أيضا في مقدمة قصيدته[1] :

وَ لاَحَ جَبِينُ الصُّبْحِ فِي طُرَّةِ الدُّجَى فَخِلْتُ بَيَاضَ الثَّغْرِ فِي سُمْرَةِ اللَّمَا

إنّ صورة الثّغر في هذا البيت هي من أهمّ الصّور التي تكشف نفسيّة الشّاعر وما يعانيه لفقدانه محبوبته، فاللّون الأبيض لم يأت في صورته المعهودة الصّفاء والنّقاء بل جاء في صورة سمرة ممّا تعكس نفسيّة الشّاعر، "وهذا أمر مستساغ إذا كان هناك رصيد نفسي ووجداني يهب هذه الألوان بواسطة التّشبيه والاستعارة المعنى الداخلي الذي يحرّك الشّاعر"[2]. و هذا يشير به إذ لم يصل إلى محبوبته فنفسيّته مكدّرة لا صفاء فيها ولا نقاء .

و إذا تتبعنا الصّورة اللّونيّة في الشّعر المدروس نجد الشّعراء قد صوّروا لنا صورا لونيّة ولكن هذه المرّة ليست من قبل الثّنائيات وإنمّا صور مفردة، ومن ذلك قول الثّغري في قصيدته الدّالية[3] :(الطّويل)

إِذَا ابْيَضَّ فَوْدِي زَادَ طَبْعِي رِقَّـةً كَمَا وَصَفُوا البِيضَ الرِّقَاقِ مِنَ الهِنْدِ

و لا يصادفنا بياض الشّيب إلا في سياق واحد قام فيه الشّاعر بعمليّة تمويه فأراد أن يجعله من ملامح القوّة والحيويّة فيبتعد به عن هوى النّفس و يسعى جاهدا إلى الإكثار من الطّاعات فيجعل حيويّته و نشاطه في هذا الجانب حتى يقلب ضعفه فيه إلى قوّة فيتوب إلى الباري عزّ وجلّ، فيرقّ طبعه كرقّة السّيوف الهنديّة القويّة، فأراد الشّاعر أن يحوّر هذا الضعف و الرّقة إلى قوّة وصلابة.

1- الدّيوان، ص158.

2- دراسة: جماليّات اللّون في القصيدة العربيّة، ذياب حافظ محمّد، مجلّة فصول، القاهرة، م5، ع2، 1985، ص45.

3- تاريخ بني زيان، ص198.

و قد لجأ شعراء المغرب الإسلامي في هذه الفترة إلى استخدام صورة اللّون الأصفر و من أولئك الثّغري حيث قال[1]:(الطّويل)

هُوَ الوَحْيُ أَجْلَى مِنْ سَنَا الشَّمْسِ فِي الضُّحَى سَنَاهُ وَ أَحْلَى حِينَ يُتْلَى مِنَ الشَّهْدِ

في هذا البيت صوّر لنا الشّاعر أنّ وضوح ضوء الشّمس في الضّحى و بزوغه هو بيّن تصفو به السّماء و تظهر واضحة لكلّ راء و مع هذا كلّه فإنّ الوحي الذي جاء به النّبي صلّى الله عليه وسلّم هو أوضح و أبين و أجلى لكلّ عاقل صاحب فطرة سليمة، فالأوامر التي جاءت فيه و النّواهي لا تخالف فطرته و خلقته، فهي جليّة لأولي النّهى و الألباب، فلون الصّفرة في هذه الصّورة كان له دور صفاء الأشياء و جلائها.

ب - الصّورة السّمعيّة :

إنّ الصّور السّمعيّة تعدّ أحد أنواع الصّور الحسّيّة وهذه الأخيرة تنضوي تحت الصّورة الفنيّة، ولا يقوم هذا النّمط من الصّور إلا على حاسّة السّمع، فيحاول الشّاعر أن يرسم له صورة عن طريق أصوات الألفاظ فتعتمد على الصّلة التي تنشأ بينها و بين الخيال و على تصور الأصوات و إيقاعها و فعلها في النّفس.

وقد وظّف شعراء المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين هذا النّمط من الصّور، ومن ذلك ما ورد في دالية الثّغري حيث قال[2]:(الطّويل)

كَسُحْبٍ وَ لَكِنَّ السُّيُوفَ بُرُوقُهَا إِذَا مَا اِنْتَضَوْهَا وَ الصَّوَاهِلُ كَالـرَّعْدِ

إذا تأمّلنا هذا البيت نجد أنّ الشّاعر اختار الألفاظ المناسبة التي تشكّل صورة سمعيّة حيث ينبثق منها الصّورة والإيقاع والحركة الحيويّة التي توحي بالفكرة و الصّورة إيحاءً قويّا، فخيول جيش الخليفة أبي تاشفين لقوّتها حين تصهل تحدث صوتا كأنّه الرّعد و هذا يوحي بقوّتها و صبرها على تحمّل متاعب الحرب، وهذا الامتداد في النّسيج اللّغوي المعتمد على تشبيه من شأنه أن يساعد على توسيع الصّورة و تناميها، و جماليّتها لدى المتلقي وذلك

1- تاريخ بني زيان، ص199.

2- المصدر نفسه، ص201.

لوجود مساحة مديدة من الإيحاء"[1] الذي يؤكّده الانسجام بين المشبه "الصواهل" والمشبه به "الرّعد" فهي تؤكّد لا شكّ الجانب الصّوتي للصّواهل أو الأحصنة وكذلك صوت الرّعد.

وللثّغري بيت آخر يصف فيه القصور وما يحيط بها من ورد وأشجار فقال[2]: (الطّويل)

وَ زَهَا الدَّهْرُ وَ الغُصُونُ تَثَنَّتْ   وَتَغَنَّتْ عَلَيْهِ وُرْقٌ شَـوَادِ

فالشّاعر في هذا البيت يوظّف الصّورة والصّوت قصد إعجاب القارئ والتّأثير فيه فالصّورة السّمعية وردت في الشّطر الثّاني ودلّت عليها القرينة "تغنّت" فلم يكتف الشّاعر في الشّطر الأوّل بالصّورة البصريّة بل راح يضيف الصّوت و النّغمة لهذه الأوراق كي يملك على السّامع كلّ مشاعره والذي يعزو فيه هذا المشهد الجميل المخضر بأشجار وألوان الزّهر المجانب لهذه القصور، وبهذه اللّوحة الفنيّة البديعة حاولت ريشة فنّان أصيل وصف هذا المشهد الذي جمع بين الصّورة البصريّة والسّمعيّة "فالصّورة الشّعريّة محاكاة عند الشّاعر من حيث هي قصدٌ مراد، وهي تخييل عند القارئ من حيث هي الفهم المحصّل"[3].

أمّا ابن خلوف القسنطيني فنجده يبني الصّورة السّمعية على الصّوتية كذلك فقال[4]: (الطّويل)

وَ تَغْـرِيدُ قُمْرِيٍّ عَلَى عَطْفِ بَـــانَةٍ   طَرِبْتُ لِنَجْـوَاهُ فَغَـــنَّى وَ زَمْـزَمَا

يبين لنا الشّاعر صورة عصفور" قمري"وهو على غصن بانة يغرّد، يطرب له فأعجبه غناؤه فحنّ له و ركن إلى ناحيته و كأنّه يشتكيه بعد الحبيب و فرقته.

1- بنية الصّورة الفنّية في النّص الشّعري الحديث (الحرّ)، نازك الملائكة أنموذجا، رائد وليد جرادات، مجلة الجامعة دمشق، م29، ع (أ+2)، 2013، ص566.

2- نفح الطّيب، ج7، ص121.

3- الصّورة الشّعريّة من التّشكيل الجمالي إلى جماليّات التّخييل، بسّام دهينة، مجلّة كلّيّة الآداب و اللّغات، خيضر محمّد بسكرة، جانفي/جوان 2012، ص254.

4- الدّيوان، ص159.

أمّا الشاعر أبو زكرياء الغرناطي وصف آلة نفط تهد الجبال فصور لنا صورة بصريّة و أخرى سمعيّة فقال[1]:(الطّويل)

وَ ظَنُّوا بِأَنَّ الرَّعْد وَالصَّعْق فِي السَّمَا   مُحَاقٌ بِهِ مَنْ أَيَّدَهُ الصَّعْقُ وَالرَّعْدُ

صوّر لنا الشّاعر الرّعد يصعقه في السّماء وما تحدثه الآلة من أصوات الصّعق و الرّعد فشبّه صورة الرّعد السّمعية والبصريّة في السّماء بصورة آلة نفط وهي صورة سمعيّة بصريّة و لكنّها في الأرض.

و هكذا نجد أنّ الصّور السّمعيّة تعدّدت في الشّعر في هذه الفترة، فقد تفنّن الشعراء في إبداعها ورسمها بريشة فنّان أصيل تبرز فيها كلّ الدّقائق والتّفاصيل و ذلك لشدّة تأثيرها في النّفس.

ج - الصّورة الشّمّيّة :

إنّ مجال هذا النّوع من الصّور يظهر جليّا من خلال الرّوائح أو ما هو مصدر للرّوائح كالأزهار و غيرها، و حينئذ تبنى الصّورة على ما يمكن شمّه، و تقترن هذه الصّورة بالطّيب و الثّناء الجميل للممدوح أو المرثي ولا شكّ أنّ هذه الصّورة معبّرة حسّيّة، فهي صورة و علامات لها دلالات من خلال هذه الحاسّة لدى الإنسان ولا ريب أنّ شعراء المغرب الإسلامي في القرنين الثّامن و التّاسع الهجريين خاصة الذين اعتنوا بالشّعر الحضاري لم يخل شعرهم من الصّورة الشّميّة ومن أولئك الثّغري التّلمساني حيث قال وهو يمدح الخليفة أبا ثابت[2]:(الطّويل)

فَمِنْكَ أَجَدْنَا القَـوْلَ فِيـكَ إِجَادَةً   وَ مَا طَابَ مَاءُ الـوَرْدِ إِلاَّ مِنَ الوَرْدِ

وَ لاَ غَرْوَ أَنْ حَيَّتْكَ بِالطِّيبِ رَوْضَةٌ   تَجُـودُ لَهَا بِالصَّيِّبِ الطَّيِّبِ العَهْدِ

فالشّاعر في البيت الأوّل يثني على الخليفة و يمدحه و يعزو هذا الحسن من القول و الإبداع بحسن الخليفة و يشبّهه بماء الورد - وهي صورة شمّيّة - الذي تفوح منه رائحة

1- نفح الطّيب، ج5، ص493.

2- تاريخ بني زيان، ص202.

طيّبة أصلها و مرجعها و معدنها الورد، أمّا في البيت الثّاني فيبلغه التّحيّة من الرّوضة النّبويّة الطّيّبة التي عهده بها وو جوده الموصول كالمطر الذي لا ينقطع .

الشّاعر دائما يحيي و يمدح بالطّيب الذي ينمّ عن دلالات نفسيّة كثيرة نقلتها هذه الصّورة. أمّا الصّورة الشّمية عند ابن خلّوف فقد تنوّعت ومن ذلك ما جاء في داليّة الثغري أيضا [1] :(الطّويل)

وَ عَانَقَ مِنْ خُوطِ الأَرَاكَةِ مِعْطَفًا   وَ قَبَّل مِنْ زَهْرِ الأَقَاحَةِ مِبْسَمَا

من خلال الاستعارة استطاع ابن خلوف أن يقدّم صورة شعريّة شمّيّة كونه يشخّص الطّبيعة و يجعل من شجر الأراك معطفا يعانق، وكذلك جعل من زهر الأقاحي إنسانا يقبل و كلاهما يفوح منها ريح طيّب يوحي بمكانة هذا المحبوب.

و من الصّور الشّمية التي ذكرها في داليته أيضا[2] :

جَرَى هَارِبًا بِالبَرْقِ وَ الرِّيحِ مُسْرِعًا   فَدَارَكَ مَا قَدْ نِيلَ أَدْنَاهُ أَحْجَمَا

تَضِخُّ بِالكَافُورِ وَ المِسْكِ وَ اِرْتَدَى   رِدَاءَ ظَلاَمٍ بِالصَّبَاحِ تَسَهَّمَا

الشّاعر يشتكي بعد حبيبته عنه إذ أكثر من البحث عنها في الظّلام القاتم وهو كالبرق يضيء كي يجدها و كالرّيح مسرعا وراءها عساه أن يجد لها أثرا يدلّه عليها، ورائحتها الفوّاحة يشمها بين الحين والآخر و يتذكّرها وهي المسك والكافور ولكن لم يجدها وكأنّه في ظلام لا يرى فيه أحدا.

أمّا عن وصفه لمظاهر الطّبيعة فقد شكّل فيها ابن خلوف كلّ الصّور و جعلها تختلط و تتداخل بحاسة الشّم. و قد يرجع ذلك إلى طبيعة الصّورة الفنيّة التي تدلّ على تجربة ذاتيّة، إذ "الشّمّ حصيلة واحدة من الحواس الخمسة وسيلتها الأنف إلى الرّئة، فالجهاز العصبي الذي يقوم بعملية التّقرير يحكم على كلّ أنواع المشموم مشتركا مع الحواس الأخرى

1- الدّيوان، ص158.

2- المصدر نفسه، ص160.

التي هي بمجموعها وسائل للإدراك من جملة الوسائل"[1]. ومن ذلك ما جاء في مقدّمة قصيدته أيضا حيث قال[2] :(الطّويل)

رَأَى الـبَرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا   وَ صَافَحَ أَزْهَـارَ الرُّبَـى فَتَنَسَّمَا

وَ لاَحَ جَبِينُ الصُّبْحِ فِي طُرَّةِ الدُّجَى   فَخِلْتُ بَيَاضَ الثَّغْرِ فِي سُمْرِ اللَّمَا

وَ رَقَّ لِــوَاءُ الـبَرْقِ لَمَّا تَلاَعَبَتْ   سَوَابِقُ خَيْلِ الرِّيحِ فِي حَلْبَةِ السَّمَا

وَ أَوْتَرَ رَامِي الجَــوِّ قَوْسَ سَحَـابَةٍ   وَ أَرْسَلَ نَحْوَ الأَرْضِ بِالقَطْرِ أَسْهُمَا

....

وَ تَغْرِيدُ قُمْرِيٍّ عَلَى عَطْفِ بَــانَةٍ   طَرِبْتُ لِنَجْــوَاهُ فَغَـــنَّى وَ زَمْــزَمَا

إنّ المتأمّل في هذه الأبيات يجد أنّ الشّاعر ذكر معظم الحواسّ وجعلها متداخلة متشاكلة فيما بينها بما في ذلك حاسّة الشّمّ حيث يتعطّر بأزهار الرّبى، و يرى بياض الصّبح و هو ينجلي ويظهر وينغلق من سواد الدّجى، ويرصد حركة الرّياح ويسمع صوت القمري و هو يغني ويغرّد.

د- الصّورة الذّوقيّة :

و تعتمد هذه الصّورة على ما يتذوّق الإنسان بهذه الحاسّة فيكون هذا الأخير أساسا في الصّورة الشّعريّة، و قد كان لهذه الحاسّة أهميّة عند شعراء المغرب الإسلامي في هذه الفترة خاصّة في شعر المولديّات.

و من ذلك قول الثّغري في قصيدته[3] :(الطّويل)

هُوَ الوَحْيُ أَجْلَى مِنْ سَنَا الشَّمْسِ فِي الضُّحَى   سَـنَاهُ وأَحْلَى حِينَ يُتْلَى مِنَ الشَّـهْدِ

1- اللّمس في الشّعر العربي، علي شلق، دار الأندلس للطّباعة و النّشر و التّوزيع، 1984،ص05.

2- الديوان، ص158.

3- تاريخ بني زيان، ص199.

فقراءة القرآن هي أحلى من الشّهد الذي يستخرج منه العسل، الصّورة التي استعملها الشّاعر في هذا البيت هي ذوقيّة و الحقيقة أنه قال من ذاق حلاوة تلاوة القرآن عرف أنّها أحلى من العسل.

و قد صوّر لنا ابن خلوف هذه الصّورة الذّوقيّة في قصيدته الدّالية حيث قال[1] :(الطّويل)

خَلِيلَيَّ هَلْ صَافَحْتُمَا رَاحَةَ الهَوَى   بِرَاحَةِ مُغْرًى بالصَّبَـابَةِ مُغْـرَمَا

وَ هَلْ ذُقْتُمَا كَاسَاتِ حُبٍّ شَرِبْتُهَا   عَلَى ثِقَةٍ أَنْ لَيْسَ يَعْتَادُ فِي ظَمَا

يخاطب الشّاعر خليليه و يخبرهما أنّ كأس الحبّ الذي شرب منه، لا يظمأ بعده و هذا الذي جعله يهيم وراء حبيبته، و في هذا البيت استعمل الشّاعر هذه الصّورة الذوقية في قوله : " ذقتما كاسات حبّ شربتها ".

و لابن ليون التجيبي أبيات يصوّر لنا فيها الصّورة الذّوقية في بيت له عن رفقة السّوء فيقول[2] :(كامل تامّ)

إِحْذَرْ مُوَّاخَـاةَ الدَّنِـيءِ فَإِنَّهَا   عَارٌ يَشِينُ وَ يُورِثُ التَّضْرِيرَا

فَالـمَاءُ يَخْبُثُ طَعْمُهُ لِنَجَاسَـةٍ   إِنْ خَالَطْتَهُ وَ يُسْلَبُ التَّطْهِيرَا

الشّاهد في هذا البيت "يخبث طعمه" إذ يصوّر الشّاعر في هذا البيت الذي يخالط الدّنيء يصير مثله؛ كالماء إذا خالطته نجاسة صار نجسا، فذوق الماء لا يبقى على حاله الذي كان عليه قبل مخالطة النّجاسة و إنما يتغيّر إلى حال سيّئة وذوق لا يطاق .

هـ- الصّورة اللّمسيّة:

إنّ حاسة اللّمس" تتعلق بأطراف الأصابع أوّلا ثم سائر جسد اللاّمس و تتجاوز ما ذكرت إلى سائر الحواس فيشترك بعضها مع بعض فيقال عطر ناعم مخملي، و صوت رقيق و طعم لذيذ طري،.. فوق هذا التّلامس ربّما قريبا أو بعيدا. و ذلك عملا بقانون الجاذبيّة

1- الدّيوان، ص159.

2- نفح الطيب، ج5، ص545.

الذي نرى آثاره في الأفلاك وعندئذ يبدو الوجود كله حقل تلامس يوجد الممالك والأشياء فيها على اختلاف مظاهرها و جواهرها"[1].

إن مساهمة الصّورة اللّمسيّة في الشّعر المدروس كان قليلا، ومن الذين وظّفوه في قصائدهم الثّغري حيث قال[2]:

وَ كَمْ كَاتِمٍ سِرَّ الـمَحَبَّةِ قَدْ وَشَى   بِهِ مُهَـرَاقُ الدَّمْـعِ فِي مُهْرَقِ الخَـدِّ

إنّ الصّورة اللّمسية الشّعرية الواردة في هذا البيت قد تشكلت بالعناصر اللّمسية المتمثّلة في "مهراق الدّمع" الذي لامس "مهرق الخدّ" فتوقّعت صورة ملامسة الدّموع للخدّ.

ومن الصّور الشّعرية الحسّيّة اللّمسيّة التي وردت في قصيدة الثّغري قوله[3]:(الطّويل)

عَلَيـهِ سَـلاَمُ اللَّهِ مَا رَبَتِ الـرُّبَى   وَ مَا صَافَحَتْ رِيحُ الصَّبَا قُضُبَ الرَّنْدِ

فالصّورة الحسّيّة الواردة في هذا البيت في الشّطر الثّاني منه وهي من عناصر الطّبيعة اللّمسيّة المتمثّلة في "صافحت ريح الصّبا" "قضب الرّند" فكانت الصّورة اللّمسيّة جليّة في مصافحة الريح و لمسها للقضب، و لا شكّ أنّ هذه الصّورة قد أسهمت في إجلاء المعنى و توضيحه، إذ الشّاعر يريد بذلك الإكثار من الصّلاة على المصطفى ﷺ لكثرة ورود هذه الرّيح الطّيّبة من شجر الرّند و هو يريد أيضا بذلك أن يبعث بسلام طيّب إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

أمّا في قصيدة ابن خلّوف القسنطيني فقد وردت صور عديدة حسّيّة لمسيّة ومن ذلك قوله[4]: (الطّويل)

رَأَى الـبَرْقُ تَعْبِيسَ الدُّجَى فَتَبَسَّمَا   وَصَـافَحَ أَزْهَـارَ الرُّبَـى فَتَنَسَّـمَا

1- اللّمس في الشّعر العربي، علي شلق، ص05.

2- تاريخ بني زيان، ص197.

3- المصدر نفسه، ص203.

4- الدّيوان، ص158.

وَلاَحَ جَبِينُ الصُّبْحِ فِي طُـرَّةِ الدُّجَى   فَخِلْتُ بَيَـاضَ الثَّغْرِ فِي سُمْرِ اللَّمَا

وَ رَقَّ لِـوَاءُ الـبَرْقِ لَمَّـا تَلاَعَبَتْ   سَوَابِقُ خَيْـلِ الرِّيحِ فِي حَلْبَةِ السَّمَا

وَ أَوْتَـرَ رَامِي الجَـوِّ قَـوْسَ سَحَـابَةٍ   وَ أَرْسَلَ نَحْوَ الأَرْضِ بِالقَطْرِ أَسْهُمَا

إنّ الصّور الحسيّة اللّمسيّة ذات البنية الاستعاريّة في هذه الأبيات شُكّلت كلّها من تشخيص الطّبيعة، ففي البيت الأوّل صوّر لنا الشّاعر هذه الصّورة بدنوّ البرق ومصافحته للأزهار وملامسته لها بضوئه، والثّانية ملامسة الصّبح اللّيل، وملامسة بياض الثغر بسمرة اللّما، وفي البيت الثّالث ملامسة الرّيح للبرق في حلبة السّماء، أمّا البيت الرّابع فالصّورة اللّمسيّة تمثّلت في ملامسة المطر للأرض.

ونخلص القول إلى أنّ الصّور اللّمسيّة في شعر المظاهر الحضاريّة في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين قد تعدّدت و تنوّعت خاصّة في مولديّة ابن خلّوف و الذي استقى جلّ هذه الصّور من الطّبيعة وشخّصها باستعارات بديعة أضفت على الخطاب الشّعري معان قويّة واضحة وبيّنة تقرب للقارئ كلّ بعيد. ولاشكّ أنّ الصّور الحسّيّة بأنواعها تعدّدت في شعر المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة فقد لامسها الشّعراء في قصائدهم ومقطوعاتهم على اختلاف الأغراض والمضامين .

خـــــاتمة

إذا ما جئنا بفضل الله و نعمته إلى آخر مراحل هذا البحث، أخذتنا الرّغبة في حمد الله و شكره كلّ مأخذ، غير أنّه امتثالا لمنهجيّة الكتابة في مثل هذا المقام، آلينا على أنفسنا إلا أن تكون هذه الخاتمة معرضا لأهمّ النّتائج التي أمكن الوصول إليها من خلال ما تمّ تسليط الضّوء عليه من نماذج شعريّة منتمية للأدب المغربي الإسلامي طيلة القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، و التي تبحث في مضمونها عن المظاهر الحضاريّة الماديّة و المعنويّة، إذ لا غنى لباحث في الأدب المغربي عنها لما حملته من كنوز علميّة وأدبيّة أسهمت إسهاما كبيرا في صنع شخصيّة مستقلّة للأدب المغربي القديم عموما و الجزائري خصوصا.

وقبل أن نتطرّق لأهمّ النّتائج عن تجلّيات الحضارة في شعر المغرب الإسلامي نتكلّم عن أهمّ الأغراض التي برزت في ذلك العصر و هي كالآتي :

1- أمّا عن شعر المظاهر الحضاريّة في القرن الثّامن فنبدأ بأوّلها وهو شعر المولديّات أو المديح النّبوي، فقد تعدّد في هذه الفترة و كثر و شاع بسبب الاحتفال بالمولد النّبوي فكان الشّعراء ينظمون قصائدهم و يعدّونها لهذا الاحتفال و يلقونها بين يدي السّلطان، إلاّ أنّ هذه القصائد قد تنوّع مضمونها، ينتقل الشّاعر فيها من المقدّمة الطلليّة أو الغزليّة أو النّسيب أو ذكر البقاع المقدّسة والحنين إليها، و ذكر الشّيب والشّباب و غير ذلك إلى التّخلّص ليجعله الشّاعر فاصلا بين المقدّمة و الموضوع الرّئيس فيكون تمهيدا لهذا الأخير.

2- الموضوع الرّئيس مواضيعه متعدّدة، يبدأ الشّاعر غالبا فيه بذكر مناقب الرّسول ﷺ، و معجزاته، ثم يذكر أصحابه رضي الله عنهم، وبعد هذا كلّه ينتقل الشّاعر إلى الموضوع الثّانوي في القصيدة؛ ويكون فيه مدح السّلطان هذا إذا ألقيت القصيدة بين يديه، ثم يذكر فيه أبناءه و يمدحهم كذلك و يعدّد من صفاتهم ومناقبهم. وفي خاتمة القصيدة المولديّة يدعو فيها الشّاعر لنفسه وللسّلطان ويصلّي ويسلّم على أشرف المرسلين.

3- نقول إنّ المولديّات في هذه الفترة كانت قصائدها مركّبة، نحا شعراؤها فيها طريق القدامى في بناء القصيدة و أوزانها ولم يخرجوا عن القصيدة العربية.

4- أمّا عن شعر المظاهر الحضاريّة في غير المولديّات، فنجد شعر الأخلاق إذ هي أسّ من أسس بناء الحضارة، يحثّ فيه الشّاعر النّاس على التّحلّي بها حتّى يتخلّقوا ويكونوا قدوة وأسوة لغيرهم، فيعمّ الخير والنّفع بينهم، وإن لم يكن هذا الشّعر كثيرا لكنّه نظم ولم ينعدم أو ينقطع، وما لا يدرك كلّه لا يترك جله.

5- ممّا لا شكّ فيه أنّ الشّعر الذي يحث النّاس على العلم و التعلّم بل والتّأليف فيه ونظم الشّعر التّعليمي لأجله كان موجودا، فلا تخلو الحضارة الإسلاميّة من هذا أبدا لأهمّيّته وإنّ سبيل بناء حضارة قويّة متينة تؤهّل أهلها إلى الرّيادة و القيادة .

ثم تلا ذلك بعض المظاهر الحضاريّة الأخرى مثل وصف المباني و دور التّعليم و العلم وكذلك بعض الآلات التي كانت مستعملة في تلك الفترة مثل آلات النّفط وناعورة الماء فهذه الوسائل كانت تعدّ مظاهر حضاريّة تعبّر عن اهتمام أهلها بالعلوم التّكنولوجية والمظاهر الماديّة، وإن كان هذا الوصف قليلا بل أقلّ من ذلك، إذ كان بالإمكان أن يصفوا قصور الملوك والسّلاطين في تلك الفترة، لكن الشّعراء لم يهتموا به كثيرا.

6- إنّ القرن التّاسع قد قل شعره الحضاري كثيرا خاصّة في الجانب العلمي والأخلاقي منه، وكذا وصف القصور والمباني، أما شعر المولديّات أو المدح النّبوي فقد كتبت فيه قصائد، وأشهر من نظم في هذه الفترة أبو القاسم ابن خلّوف القسنطيني الأندلسي وله ديوان في ذلك. أمّا عن منهجيّة كتابة قصائده فإنّها لا تختلف عن سابقاتها: مقدّمة طلليّة..، تخلّص، و موضوع رئيس، ثم ثانوي فخاتمة .

7- شعر المظاهر الحضاريّة في هذه الفترة استنبط لغته الشّعرية من معاجم متعدّدة معجم ديني تمثل في الكتاب والسنة، ومعجم صوفي ومعجم تقليدي، كما امتاز المعجم الشّعري بجزالة اللّفظ وقوّة السّبك وغلبة الألفاظ الغريبة غير المألوفة، فغلب بذلك وهيمن المعجم الدّيني.

8- شعراء المظاهر الحضاريّة في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين أدركوا أهميّة التّكرار في بناء القصيدة ومدى تأثيره على المتلقي و أنّ أهمّيّته تكمن في توضيحه و تأكيده للمعنى والحفاظ على التّوازنات الصّوتية للقصيدة.

9- إنّ الشعراء في هذه الفترة لم يخرجوا عن تقاليد القصيدة العربيّة المعروفة فيما يخصّ البنية الإيقاعيّة من حيث الوزن و القافية، و كانت أكبر نسبة في استعمال البحور للطّويل ثمّ البسيط والكامل، أما البحور الأخرى فلم يستعملها الشّعراء في هذه الفترة إلاّ قليلا ومنها: السّريع، الرّجز، الوافر و المتدارك، أمّا القافية فقد اعتمد الشّعراء على المطلقة المتواترة ثم تبعها المقيدة، و من حيث الرّوي فإن الميم هو الأكثر استعمالا ثم الرّاء والباء والدّال ثم تنوّع الرّوي بحروف أخرى .

9- من حيث التّوازنات الصّوتيّة قد حرص شعراء هذه الفترة على توظيف التّجنيس بأنواعه و التّصريع و التّصدير و هذا من أجل إضفاء نغم موسيقي جميل بما يتناسب مع المعنى المراد تحقيقه.

10- لقد وظّف شعراء هذه الفترة الصّور الشّعرية الحسيّة القائمة على المشابهة من خلال استخدام التّشبيه و الاستعارة و الكناية في التّصوير لبيان الغرض و توضيح المعنى وتقريبه إلى القارئ، فعمدوا إلى التّصوير بأنواعه، الصّور البصريّة والسّمعيّة واللّمسيّة والذّوقيّة والشّميّة، وهذا بغية الإيضاح و البيان والإفصاح عمّا يكنّونه في صدورهم .

إنّ شعراء المغرب الإسلامي الذين وصفوا المظاهر الحضاريّة في هذه الحقبة قد أدركوا أنّ الشّعر فنّ تصويريّ لا تقريري فحسب بل عمدوا إلى توظيف الصّور الشّعريّة بأنواعها المختلفة لأجل وصف هذه المظاهر التي كانت في مجتمعهم خلال قرنين من الزّمن الثّامن والتّاسع الهجريين.

هذا ونسأل الله التّوفيق والسّداد في القول والعمل.

تَـمَّ الكَلاَمُ وَ رَبُّنَا مَحْمُودُ وَلَـهُ المكَارِمُ وَالعُلاَ وَالجُـودُ (الكامل)

ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيّ مُحَمَّدٍ مَا صَاحَ قُمْرِيٌّ وَأَوْرَق عُـودُ.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

القـرآن الكـريم : برواية ورش عن نافع .

1) الإحسان تقريب صحيح ابن حبّان، أبو حاتم مُحَمَّد بن حبّان بن أحمد الدّارمي البستي، ترتيب: علاء الدّين علي بن بلبان الفارسي، حقّقه و خرّج أحاديثه و علّق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1408ه/1988م.
2) أخلاق النّبي و آدابه، أبو مُحَمَّد عبدالله بن مُحَمَّد بن جعفر بن حيّان الأنصاري المعروف بأبي الشّيخ الأصبهاني، تحقيق: صالح بن مُحَمَّد الونيان، دار المسلم للنّشر و التّوزيع، ط1، 1998م.
3) أزهار الرّياض في أخبار عياض، شهاب الدّين أحمد بن مُحَمَّد المقري، ضبطه و حقّقه وعلّق عليه: مصطفى السّقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، طبعة دار لجنة التّأليف و التّرجمة و النّشر، القاهرة، دط، 1359ه/1940م.
4) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، دار الكتب المصريّة القاهرة، دط، 1341م/1922م.
5) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن مُحَمَّد بن عبد البّر تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412ه، 1992م.
6) أعلام النّبوّة، أبو الحسين علي بن مُحَمَّد بن حبيب البصري البغدادي الشّهير بالماوردي، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1409ه.
7) الإعلام بما في دين النّصارى من الفساد و الأوهام و إظهار محاسن الإسلام، شمس الدّين أبو عبدالله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السّقا، دار التّراث العربي، القاهرة، دط، دت.
8) الإعلام بمن حلّ مراكش و أغمات من الأعلام ، عبّاس بن إبراهيم السّملالي مراجعة : عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكيّة الرباط ، ط2 ، 1998/1419.
9) إكمال الإعلام بتثليث الكلام، ابن مالك الجيّاني، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي جامعة أمّ القرى، مكّة، السّعودية، ط1، 1404ه/1984.

10) أنوار التّنزيل و أسرار التّأويل، ناصر الدّين أبو سعيد بن مُحَمَّد الشّيرازي البيضاوي تحقيق: مُحَمَّد عبدالرّحمن المرعشلي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.

11) الأنوار في شمائل النّبي المختار، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفراء البغوي الشّافعي، تحقيق: إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1416هـ/1995م.

12) أوصاف النّاس في التّواريخ و الصّلات، تليها الزّواجر و العظات، لسان الدّين ابن الخطيب السلماني(713هـ-776هـ) تحقيق مُحَمَّد كمال شبانة، طبع تحت إشراف اللّجنة المشتركة لنشر التّراث الإسلامي بين المملكة المغربيّة و دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.

13) البارع في اللّغة، أبو علي القالي، تحقيق: هشام الطّعان، دار الحضارة، بيروت ط1، 1975م.

14) البحر المحيط في التّفسير، أثير الدّين أبو حيّان مُحَمَّد بن يوسف بن حيّان الأندلسي تحقيق: صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر، بيروت، ط1420هـ.

15) البحر المحيط، أثير الدّين أبو عبدالله مُحَمَّد بن يوسف أبو حيّان التّوحيدي، تحقيق: عبد الرّزاق مهدي، دار إحياء التّراث، بيروت، لبنان، دط، دت.

16) البداية والنّهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط8، 1410هـ/1990م.

17) بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، أبو زكريّا يحيى بن الحسين ابن خلدون، مطبعة بيير فونطا الشّرقية، الجزائر، دط، 1321هـ/1903م.

18) بغية الوعـاة في طبقات اللّغويين و النّحاة ، جلال الدّين السّيوطي ، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريّة بيروت لبنان ، دط ، دت.

19) البلغة في تراجم أئمّة النّحو و اللّغة ، مجد الدّين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق: مُحَمَّد المصري، دار سعد الدّين دمشق ، ط1، 1421هـ/2000م.

20) تاج العروس من جواهر القاموس، مُحَمَّد مرتضى الحسيني الزّبيدي، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، راجعه: أحمد مختار عمر- عبد اللطيف مُحَمَّد الخطيب، التّراث العربي الكويت، ط1، 1421هـ/2000.

21) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 1983م.

22) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النّفيس، حسين بن مُحَّد بن الحسن الدّيار بكري دار صادر، بيروت، دط، دت.

23) تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني زيان)، مُحَّد بن عبدالله التنيسي، حققه و علق عليه: محمود آغا بوعياد، موفم للنّشر الجزائر، دط، 2011.

24) تذكرة السّامع و المتكلّم في أدب العالم و المتعلّم، بدر الدّين مُحَّد بن سعد الله الكناني الشّافعي، اعتنى به: مُحَّد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية،ط3،1433هـ،2012م

25) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير و أساس البلاغة، الطاهر أحمد الزّاوي، دار الفكر، ط3، دت.

26) ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض ابن موسى بن عياض السّبتي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المملكة المغربية، ط2 1403هـ،1983م.

27) التّفسير البسيط، أبو الحسن بن علي الواحدي النّيسابوري الشّافعي، تحقيق:15 رسالة دكتوراه بجامعة الإمام مُحَّد بن سعود الإسلامية، النّاشر عمادة البحث العلمي للجامعة، ط1، 1430هـ.

28) تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاري و مسلم، مُحَّد بن فتوح بن عبد الله الأزدي، تحقيق: زبيدة مُحَّد سعيد عبدالعزيز، مكتبة السّنة، القاهرة، مصر، ط1 1415هـ/1995م.

29) تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التّراث، بيروت، ط1، 1423هـ، ج4، ص490.

30) تقييد العلم، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، إحياء السّنة النّبوية، بيروت.

31) التّكملة و الذّيل و الصّلة لما فات صاحب القاموس من اللّغة، مُحَّد مرتضى الحسيني الزّبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، مراجعة: عبد السّلام هارون، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، 1408هـ/1988م.

32) التّمهيد لما في الموطأ من المعاني و الأسانيد، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد ابن عبد البّر النمري الأندلسي، حققه وعلّق حواشيه وصحّحه: مصطفى بن أحمد العلوي محمّد عبد الكبير البكري،دط،1387هـ،1967م.

33) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، زين الدّين بن زين العابدين الحدّادي المناوي القاهري، عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 1410هـ/1990م.

34) جامع بيان العلم و فضله، أبو عمر يوسف بن عبد البرّ، تحقيق: أبو الأشبال الزّهيري، دار ابن الجوزي، الدّمام، ط1، 1414هـ،1994م.

35) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله مُحَمَّد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البرذوني إبراهيم اطفيش، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م.

36) جمهرة اللّغة، ابن دريد أبو بكر مُحَمَّد بن الحسن الأزدي البصري، مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيد آباد، دار صادر، ط1، 1345هـ.

37) جوامع السّيرة النّبويّة، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي، دار الكتب العلميّة، بيروت، دط، دت.

38) الحاوي في الفتاوي، جلال الدّين أبو بكر بن عبد الرحمن السّيوطي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، 1403هـ/1983م.

39) الحضارة الإسلاميّة في المغرب و الأنـدلس في عصر المرابطين و الموحّدين، حسن علي حسن، مكتبة الخانجي مصر، ط1، 1980م.

40) الحنائيات (فوائد أبي القاسم الحنائي)، أبو القاسم بن الحسين الدّمشقي، تحقيق : خالد رزق مُحَمَّد و جبر أبو النّجا، أضواء السّلف، ط1، 1428هـ/2007م.

41) درّة الحجال في أسماء الرّجال، أبو العبّاس مُحَمَّد المكناسي، تحقيق: مُحَمَّد الأحمدي أبو النّور، النّاشر المكتبة العتيقة، دار التراث، القاهرة، دط، 1391هـ/1971م.

42) الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة، ابن حجر العسقلاني.

43) دلائل النّبوّة و معرفة أحوال صاحب الشّريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي وثّق أصوله و خرّج أحاديثه و علّق عليه: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ،1988م.

44) الدّيباج المذهب في معرفة علماء المغرب: إبراهيم بن نور الدّين المعروف بابن فرحون المالكي، دراسة و تحقيق: مأمون بن محيي الدّين الجنان، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان ط1، 1417هـ،1996.

45) ديوان ابن زمرك الأندلسي، مُحَمَّد بن يوسف القريحي، حقّقه: مُحَمَّد توفيق النّيفر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1997م.

46) ديوان أحمد بن أبي القسم الخلّوف الأندلسي: المطبعة السّليميّة، بيروت، لبنان دط، 1972م.

47) ذمّ الكلام و أهله، أبو إسماعيل بن عبدالله الأنصاري الهروي، تحقيق: عبدالرّحمن ابن عبدالعزيز الشبل، مكتبة العلوم و الحكم، المدينة المنوّرة، ط1، 1418هـ/1998م.

48) الذيل و التّكملة ، المراكشي ،تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثّقافة بيروت لبنان دط ، دت.

49) زاد المسير في علم التّفسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرّحمن بن مُحَمَّد بن الجوزي تحقيق: عبد الرّزاق المهدي، النّاشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ.

50) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيّم الجوزيّة، و حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه و علّق عليه: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان ط3، 1418هـ، 1998م.

51) سنن الدّارمي، أبو مُحَمَّد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي السّمرقندي، حقّق نصّه و خرّج أحاديثه و فهرسه: فوّاز أحمد زمرلي ـ خالد السّبع العلمي، صحّح هذه النّسخة بكلّ دقة: معراج مُحَمَّد، مطبعة الرّحماني، دهلي، دط، دت.

52) السّيرة النّبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام جمال الدّين، تحقيق: مصطفى السّقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ الشّلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط2 1375هـ/1955م.

53) السّيرة النّبوية لابن هشام، علّق عليها و خرّج أحاديثها و صنع فهارسها: عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، 1410هـ/1990م.

54) شرح السنة، أبو مُحَمَّد الحسين بن علي بن خلف البربهاري، دراسة وتحقيق،أبي ياسر خالد بن قاسم الردادي، مكتبة الغرباء الأثريّة،المدينةالمنوّرة،السّعوديّة،1414هـ، 1993م.

55) شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني تحقيق: حسين بن عبدالله العمري و مطهر بن علي الإرياني و يوسف مُحَمَّد عبدالله، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق سوريّة، ط1، 1420هـ/1999م.

56) صحيح البخاري، أبو عبدالله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، دار التّأصيل، مصر لبنان، ط1، 1433هـ،2012م.

57) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النّيسابوري، تحقيق و دراسة : مركز البحوث و تقنيّة المعلومات، دار التّأصيل، لبنان، مصر، ط1، 1435هـ 2014م.

58) صحيح مسلم، ترقيم و ترتيب : مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار التّقوى للنّشر و الطّبع و التّوزيع، ط1، 1434هـ/2012م.

59) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو مُحَمَّد بدر الدّين العيني الحنفي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، دط، دت .

60) العمدة في محاسن الشّعر و آدابه و نقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي حقّقه و فصله و علّق حواشيه : مُحَمَّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل للنّشر و التّوزيع و الطّباعة، بيروت، لبنان.

61) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري، أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني، رقّم كتبه و أبوابه و أحاديثه : مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وأشرف على طبعه : محبّ الدّين الخطيب، قرأ أصله تصحيحا و تحقيقا: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز، المكتبة السّلفية، دط، دت.

62) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب، شرف الدّين حسين بن عبدالله الطّيبي تحقيق: إياد مُحَمَّد الغوج، النّاشر جائزة دبي الدّولية للقرآن الكريم .

63) فراهة الأنظار في عجائب التّواريخ و الأخبار، محمود مقديش، تحقيق: علي الزاوي/ مُحَمَّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.

64) فضائل الأندلس وأهلها، ابن حزم وابن سعيد الشّقندي، تحقيق: صلاح الدّين المنجد ، دار الكتاب الجديدة مصر ، ط1 ، 1968م.

65) القاموس المحيط، مجد الدين مُحَّد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق بإشراف: مُحَّد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط8، 1426هـ/2005م.

66) كتاب الصّناعتين الكتابة والشّعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق: علي مُحَّد البجاوي، مُحَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2 دت، ص474.

67) كتاب العين، مرتّبا على حروف المعجم، تصنيف: الخليل بن أحمد الفراهيدي ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط 1419هـ/1999م.

68) الكتيبة الثّامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثّامنة، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، ط1983م، دت.

69) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين مُحَّد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، دط، دت.

70) مجمع بحار الأنوار في غرائب التّنزيل و لطائف الأخبار، جمال الدّين علي الصّديقي الهندي الفتني الكجراتي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، ط3، 1387هـ/1967م.

71) مجمل اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس اللّغوي، دراسة و تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط2، 1406هـ/1986م.

72) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو مُحَّد عبدالحق بن عطيّة الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبدالسّلام عبدالشّافي مُحَّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422هـ.

73) المحكم و المحيط الأعظم، ابن سيده (ت458هـ)، تحقيق مجموعة من المحقّقين، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ط2، 1424هـ/2003م.

74) المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد، تحقيق: مُحَّد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف بغداد، ط1، 1395هـ، 1975م.

75) مختار الصّحاح، مُحَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، دط 1986م.
76) المسند الصّحيح، مسلم بن الحجاج القشيري النّيسابوري، تحقيق: مُحَّد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت .
77) المسند للإمام أحمد، المحقّق: أحمد مُحَّد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط1 1416ه/1995م.
78) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض بن موسى اليحصبي السّبتي، دار التّراث دط، دت.
79) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحّدين، عبد الواحد المراكشي، ضبطه وصحّحه وعلّق على حواشيه : مُحَّد سعيد العريان و مُحَّد العربي دار الاستقامة القاهرة، 1368ه/1949م.
80) معجزات النّبي ﷺ ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق و تعليق: السّيد إبراهيم أمين مُحَّد، المكتبة التّوفيقيّة، دط، دت.
81) معجزات النّبي المختار من صحيح الأخبار، ابن خليفة عليوي، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط1، 1411ه،1991م.
82) معجم ديوان الأدب، أبو إبراهيم بن الحسين الفارابي، تحقيق: أحمد مختار عمر مراجعة : إبراهيم أنيس، دار الشّعب، القاهرة، 1424ه/2003م.
83) معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السّلام مُحَّد هارون، دار الفكر، طبع بإذن خاص من رئيس المجمّع العلمي العربي الإسلامي: مُحَّد الدّاية دط، 1399ه/1979م.
84) المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور موهوب بن أحمد ابن مُحَّد الجواليقي، تحقيق: أحمد مُحَّد شاكر، ط3، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1955م.
85) المغرب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدّين المطرزي، تحقيق: محمود فاخوري و عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، سوريا، دط، 1979م.

86) المغرب في حليّ المغرب ، ابن سعيد المغربي ، تحقيق و تعليق: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة ، ط4، دت.
87) مقدّمة ابن خلدون، ولي الدّين عبد الرحمن بن مُحَمَّد، حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه و علّق عليه: عبد الله مُحَمَّد الدّرويش، دار البلخي، دمشق، ط1، 1425هـ/2004م.
88) منهاج البلغاء و سراج الأدباء، أبو الحسين حازم القرطاجنّي، تقديم و تحقيق: الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دط، دت.
89) المواهب اللّدنية بالمنح المحمديّة، العلاّمة أحمد بن مُحَمَّد القسطلاّني، تحقيق: صالح أحمد الشّامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ/2004م.
90) المورد في عمل المولد، تاج الدّين الفاكهاني، تحقيق: علي حسن الحلبي الأثري، دار المعارف، الرياض، ط1، 1407هـ.
91) موسوعة شروح الموطأ للإمام مالك بن أنس، التّمهيد و الاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، القبس لأبي بكر مُحَمَّد بن عبد الله بن العربي المالكي تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التّركي بالتّعاون مع مركز هجر للبحوث و الدراسات العربية و الإسلاميّة، المشرف عليه: عبد السّند حسن يمامة، ط1، 1426هـ، 2005م.
92) موطّأ الإمام مالك، مالك بن أنس الأصبحي المدني، صحّحه و رقمه و خرّج أحاديثه: مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت، 1406هـ/1985م.
93) الموطأ، مالك بن أنس برواية يحيى بن يحيى اللّيثي، تحقيق: كلال حسن علي مؤسّسة الرّسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1434هـ، 2013م.
94) نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف بن مُحَمَّد تحقيق: مُحَمَّد رضوان الدّاية، دار الثّقافة للنّشر و التّوزيع، بيروت، دط،1967م.
95) نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب،أحمد بن محمّد المقّري التّلمساني، حقّقه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،لبنان، دط،دت.
96) نقد الشّعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ط1 1302هـ .

97) النّهاية في غريب الحديث و الأثر، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري ابن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، الناس المكتبة الإسلامية، ط1 1383ه، 1963م.

98) النّهاية في غريب الحديث و الأثر، مجد الدّين بن الأثير الجزري، تحقيق: أحمد الزّاوي و محمود الطّناحي، المكتبة العلميّة بيروت، 1399ه/1979م.

99) الهداية إلى بلوغ النّهاية في علم معاني القرآن و تفسيره و أحكامه و جمل من فنون علومه، أبو مُحَمَّد مكّي القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي.

100) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الواحدي النّيسابوري، تحقيق و تعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي مُحَمَّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1994م.

المراجع:

1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبدالقادر الجكني الشّنقيطي، دار الفكر للطّباعة و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1415ه/1995م.

2) الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدّين الزّركلي، دار العلم بيروت، لبنان، دط.

3) البستان، عبد الله البستاني اللّبناني، مطبعة الأمير كافية، بيروت، دط، 1927م.

4) بنية قصيدة المولد النّبوي في الأندلس والمغرب حتّى القرن التّاسع الهجري عبدالحليم حسين الهروط، دط، دت، مخطوط.

5) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النّجار، دار المعارف مصر، ط5، دت.

6) التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة، عبد الرّحمن علي حجي دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1402ه/1981م.

7) تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن بن مُحَّد الجيلالي، مكتبة الشّركة الجزائريّة، الجزائر مرازقة وأبو داود وشركاؤهما، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2 1385ه/1965م.

8) التّاريخ المغربي لمدينة سبتة ، إدريس أحمد خليفة ، المطبعة الأمنيّة المغرب ، ط1 1408ه/1999م.

9) التّجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، مُحَّد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 2009م.

10) ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض ابن موسى بن عياض السّبتي، وزارة الأوقاف و الشّؤون الإسلاميّة، المغرب، ط2 1403ه/1983م، ج7، ص102/103).

11) التّصنيف اللّغوي والأدبي في عصر المرابطين و الموحّدين، فاتن كوكة، منشورات الهيئة العامّة السّورية للكتاب، وزارة الثّقافة دمشق،2012، دط.

12) تفسير التّحرير و التّنوير، مُحَّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسية للنّشر، تونس دط، 1984م.

13) تلمسان في العهد الزّياني، عبدالعزيز فيلالي، موفم للنّشر و التّوزيع، الجزائر، دط 2002م.

14) تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، عبدالرّحمن بن ناصر بن عبّد الله السّعدي، تحقيق: عبدالرّحمن بن معلا اللّويحق، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1 1420ه/2000م.

15) الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم - ، حنّا الفاخوري، دار الجيل بيروت، لبنان ، ط1، 1986م.

16) الجواهر المضيّة، مُحَّد بن سليمان التّميمي النّجدي، دار العاصمة، الرّياض، المملكة العربيّة السّعودية، ط1، 1412ه.

17) حضارة الموحّدين ، مُحَّد المنّـوني ، دار توبقال للنّشر الدار البيضاء ، ط1، 1989.

18) الحيـاة العلميّة في الأندلس ، يوسف العريني، مطبوعات مكتبة عبد العزيز الرياض ، ط1 ، 1416ه/1995م.
19) الخطاب الشعري عند فقهاء المغرب العربي، مُحَّمد مرتاض، دار الأوطان الجزائر،ط2009،1م
20) الدّراسات اللّغوية في الأندلس منذ مطلع القرن السّادس الهجري حتّى منتصف القرن السّابع الهجري، رضا عبد الجليل الطيّـار ط1، 1401ه/1980م.
21) الدّراسات في تاريخ مدينة سبتة ، أمين الطّيبي ، جمعيّة الدّعوة الاسلاميّة العالميّة ط1 ، 1989م.
22) دولة الإسلام في الأنـدلس العصر الثّالث عصر المرابطين و الموحّدين في الأندلس مُحَّمد عبد الله عنّـان ، مكتبة الخانجي القـاهرة ، ط2، 1411ه/1990م.
23) دولة الإسلام في الأندلس،مُحَّمد عبد الله عنان،العصر الرابع، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1417ه/1997.
24) سلسلة الأحاديث الصّحيحة و شيء من فقهها و فوائدها، مُحَّمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1422ه،2002م.
25) الشّعرية العربيّة: دراسة في التّطور الفنّي للقصيدة العربيّة حتّى العصر العبّاسي، نور الدّين السّيـد، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2007م، ج1، ص31.
26) شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكه، أثر الحضارة العربيّة في أوربا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون، كمال دسّوقي، راجعه و وضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط8، 1413ه، 1993م.
27) الشّوقيات: أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1988م.
28) صحيح التّرغيب و التّرهيب، زكي الدّين المنذري، تأليف: مُحَّمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1421ه، 2000م.
29) صحيح سنن ابن ماجه، أبو عبدالله مُحَّمد بن يزيد القزويني، تأليف: مُحَّمد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1417ه،1997م.

30) صحيح سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السّجستاني، تأليف: مُحَّد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1419هـ، 1998م.
31) صحيح سنن التّرمذي، مُحَّد بن عيسى التّرمذي، تأليف: مُحَّد ناصر الدّين الألباني مكتبة المعارف للنّشر و التّوزيع، الرّياض، السّعودية، ط1، 1420هـ،2000م.
32) صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان، أبو عبد الرّحمن بن الحاج نوح نجاتي ابن آدم الأشقودري الألباني، دار الصّميعي للنّشر و التّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعودية، ط1، 1422هـ/2002م.
33) عنوان الأريب عمن نشأ بالبلاد التّونسية من عالم أديب : مُحَّد النّيفر، تذييل و استدراك: ابن المؤلف علي النّيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1 1996م.
34) في الأدب الأندلسي ، جودت الرّكابي، دار المعارف مصر ، دط، دت.
35) قطر المحيط، بطرس البستاني، طبع في بيروت، دط، 1869م.
36) الكوكب الوهّاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، مُحَّد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الهرري الشّافعي، مراجعة: هاشم مُحَّد علي مهدي، دار المنهاج، دار طوق النّجاة ط1، 1430هـ/2009م.
37) مختار القاموس مرتّب على طريقة الصّحاح و المصباح المنير، الطّاهر أحمد الزّاوي الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا- تونس، دط، دت.
38) مراكز الثّقافة في المغرب من القرن السّادس عشر إلى القرن التّاسع عشر ، عثمان الكعّاك ، جامعة الدّول العربيّة مصر، ط1، دت ، 1985م.
39) المسند الصّحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، مُحَّد بن مرزوق التّلمساني دراسة و تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعيّاد، الشّركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، دط، 1401هـ/1981م.
40) معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسّسة نويهض الثّقافية، بيروت، لبنان، ط2 1400هـ/1980م.
41) المعجم الكبير، مجمع اللّغة العربيّة، مصر، ط1، 1421هـ/2000م.

42) معجم اللّغة العربيّة المعاصر، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط1 1429ه/2008م.
43) معجم المصطلحات الإسلاميّة في المصباح المنير، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الأفاق العربيّة، القاهرة، ط1، 1423ه/2002م.
44) المعجم المفصّل في تفسير غريب الحديث، إعداد: مُحَّد التّونجي، دار الكتب العلميّة بيروت، ط1، 1422ه/2002م.
45) معجم المؤلّفين وتراجم مصنّفي الكتب العربيّة، عمر رضا كحالة، مكتبة المتن، دار إحياء التّراث، بيروت، لبنان، دط، دت.
46) المعجم الوجيز، إبراهيم مدكور، مجمّع اللّغة العربيّة، مصر، ط1، 1400ه/1980م.
47) المعجم الوسيط، لجنة التّأليف: د نصار سيد أحمد و د مصطفى مُحَّد و مُحَّد درويش و أيمن عبد الله، دار إحياء التّراث العربي، ط1، 1429ه/2008م.
48) معجم متن اللّغة، الشّيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط 1377ه/1958م.
49) منظومة في شرح مثلّثات قطرب، الشّيخ عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي تحقيق: د وليد عبد الله المنيس، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان 1428ه/2007م.
50) المولد النّبوي الشريف، صلاح الدين الهواري، دار و مكتبة الهلال، دار البحار بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
51) النّبوغ المغربي في الأدب العربي ، عبد الله كنّون، المطبعة المهديّة تطوان المغرب 1357ه، ط2.
52) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، مُحَّد بن تاويت ، دار الثّقافة الدّار البيضاء، ط1، 1402ه/1982م.

الرّسائل الجامعيّة :

1) الأدب في العصر الزّياني الثّاني (749ه/952ه) أطروحة لنيّل شهادة الدكتوراه في الأدب المغربي القديم، نورية بن عدي، إشراف: مُحَّد مرتاض، 1431ه/2010م. الجزائر.

2) الحنين و الغربة في الشّعر الأندلسي "عصر سيادة غرناطة 635ه/897ه"، مها روحي إبراهيم الخليلي، المشرف: وائل أبو صالح، رسالة ماجستير، 2007م، جامعة نابلس.

3) قصيدة المديح النّبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين، صونيا بو عبد الله، إشراف علي عالية، 1431ه- 1432ه/ 2011،2010م، رسالة ماجستير جامعة الحاج لخضر باتنة، قسم اللغة العربية و آدابها، الجزائر.

4) مجموعة رسائل جامعيّة بكليّة الدّراسات العليّا و البحث العلمي، جامعة الشّارقة إشراف: الشّاهد البوشيخي، النّاشر: مجموعة بحوث الكتاب و السّنة، كليّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة الشّارقة، ط1، 1429ه/2008م.

5) شعر الحروب و الفتن في الأندلس(عصر بني الأحمر)، رانية أحمد إبراهيم أبو لبدة إشراف وائل أبو صالح، 2007م، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين.

الدوريّات :

1) بنية الصّورة الفنيّة في النّص الشّعري الحديث (الحرّ)، نازك الملائكة أنموذجا،رائد وليد جرادات، مجلّة الجامعة، دمشق، م29، ع (أ+2)، 2013، ص566.
2) جماليّات اللّون في القصيدة العربيّة، ذياب حافظ مُحَّد، مجلّة فصول، القاهرة،م5، ع2 1985، ص45.
3) ،الصّورة الشّعريّة من التّشكيل الجمالي إلى جماليّات التّخييل، بسّام دهينة، مجلّة كلّيّة الآداب واللّغات ، خيضر محمّد،بسكرة، العدد،جانفي/ جوان 2012م،ص254.

الفهـــــارس

فهرس الآيـات القــرآنية

فهرس الأحـاديث النّبويّة

فهرس الأشعــــــــار

فهرس الأعــــــلام

فهرس الموضوعــــات

فهرس الآيات القرآنيّة :

الآية	الصفحة
﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:76]	148
﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[المائدة:125].	94
﴿ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام:125]	93
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:33]	133
﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٣)﴾[التوبة:123].	110
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:22]	89
﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾	158
﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾[يوسف:53].	111
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[الرعد:27]	89
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[الحجر:87].	112
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل:43].	134
﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾	160
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) ﴾	160
﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه:01]	89
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	

أَعْمىٰ﴾[طه:122]	89
﴿ قَدَ اَفْلَحَ اَلْمُومِنُونَ ۝١ اَلذِينَ هُمْ فِے صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَالذِينَ هُمْ عَنِ اِللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾[المؤمنون:1-3]	112
﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ [الفرقان:72]	112
﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَٰنِ مِن رَّبِّكَ﴾[القصص:32]	93
﴿ وَلَا تُصَٰعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِے اِلَارْضِ مَرَحاً اِنَّ اَللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:17]	111
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[سبأ:28]	127
﴿لَّقَدْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنِ اِلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِے قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[الفتح:18].	142
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اُللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُۥ أَشِدَّآءُ عَلَى اَلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرِيٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾[الفتح:29]	139
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اُللَّهِ﴾[الفتح:29]	142
﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ اُلْكُفَّارَ﴾[الفتح:29].	141
﴿إِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَاللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحجرات:18]	148
﴿ وَهُوَ بِالُافُقِ اِلَاعْلَىٰ ۝٧ ﴾ [النجم:07]	160
﴿ اِقْتَرَبَتِ اِلسَّاعَةُ وَانشَقَّ اَلْقَمَرُ﴾[القمر:1]	90
﴿ وَمَنْ يُّوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[الحشر:09]	140
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[القلم:04]	87/69
﴿قُلُ اُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ۝١ يَهْدِے إِلَى اَلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً ۝٢﴾[الجن:1-2]،	132
﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ۝١ يَهْدِے إِلَى اَلرُّشْدِ ﴾ [الجن:1-2]	132
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح:1]	134

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾[الشرح:6]	153
﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾[النصر:1-2]	134
﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾	134

فهرس الأحاديث النّبويّة :

الصفحـة:

فهرس الأشعار:

فهرس الأعلام:

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

ملخّص:

تتضمّن هذه الأطروحة جملة من المسائل المتعلقة بحضارة المغرب الإسلامي، انطلاقا من أدبه الشّعري ؛ و ذلك في الفترة التي تشمل القرنين الثّامن والتّاسع الهجريين. و قد جاءت هذه الدّراسة لبيان المظاهر الحضاريّة في شعر المغرب الإسلامي في تلك الفترة مع إبراز جوانبها اللّغوية والفنّيّة حيث تنوّعت المظاهر كثيرا ممّا جعل هذين القرنين حافلين بالكنوز الشّعرية رغم الصّراعات التي كانت موجودة بين دول المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: شعر - حضارة - مغرب إسلامي - مظاهر حضاريّة.

Résumé :

Cette étude comprend un ensemble de questions attachées au civilisation du Maghreb islamique; a partir de sa littérature en général et notament de sa poésie. Ceci durant les deux siècles 8eme et 9eme de l'higire. Cette étude est conçue a éxposé les apparences civiques de la poésie du Maghreb islamique a cette époque et accentuer leurs aspects linguistiques et artistiques, dont les apparences différent carrément , ce qui mis ces deux siècles plein trésors littéraires et poétiques malgrés les conflits qui existèrent entre les états du Maghreb islamique.

Mots clés : poésie – civilisation – Maghreb islamique – apparences civiques.

Abstract :

This study contain several questions attached to the Maghreb Islamic civilization; from his literature generaly and his poetry specialy; within the two centuries 8th and 9th of higire. This study is bring to expose civilized appearances of Islamic Maghreb poetry in this epoch and present their linguistic and artistic aspects; when they diversified abundantly; why made the twi centuries full of literary and poetic treasures in spite the conflcts between Islamic Maghreb states.

Keywords : poetry – civilisation – Islamic Maghreb – civilizied appearances